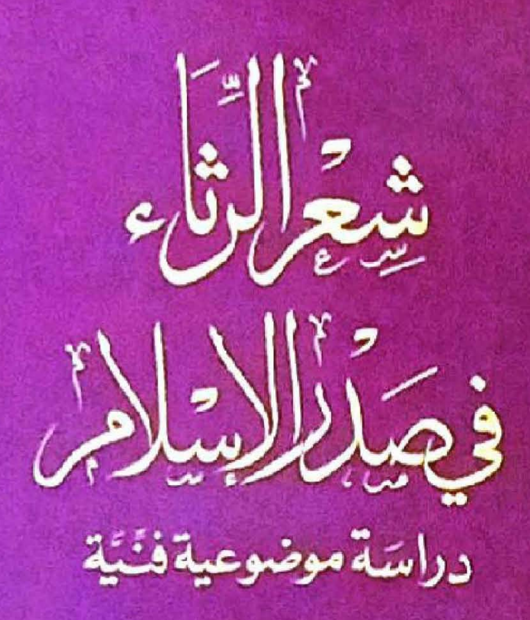






الشعر والشعراء

شعر الرثاء في صدر الإسلام

دراسة موضوعية فنية

الدكتور مصطفى عبد الشافي الشورى

مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الشعر والشعراء

شعر الرثاء في صدر الإسلام

إشراف الدكتور محمد عبد المطلب

الأستاذ بكلية الآداب – جامعة عين شمس

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

ص. ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولي ١٩٩٦

رقم الإيداع ٧١٠٦ / ١٩٩٥
الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧-١٦-٠١٨٢-٢

طبع في دار نوبار للطباعة ، بالقاهرة

إهداء

إلى روح والدي الكريمين

اللذين لولاهما لما كنت ..

عزاء لقلب ما زالت توجعه

آلام الفراق .

مصطفى الشورى



المحتويات





روح التنافس بين الشُعراء ، وخاصة عند رثاء القتلى ومن سقط شهيدًا من المسلمين ، و وقفت عند شعر قريش والمشركين ، و وجدت أنه دار حول البكاء والحسرة والجزع على من أصيبوا ، وعلى ذكر سجاياهم ومناقبهم وبطولاتهم ، وأنَّ شعرهم يعتبر امتدادًا لما كانوا عليه في الجاهلية ؛ ذلك لأنهم لم يتأثروا بالإسلام والقرآن ، وقد شارك اليهود أيضًا في رثاء قتلى قريش ، كما رثوا قتلاهم وما حلَّ بهم من بلاء .

أما المسلمون فقد شارك شعراؤهم في رثاء الشُهداء الَّذين كانوا يسقطون في الغزوات والمعارك ، ومن خلال مراثيهم ظهر أثر الإسلام في ألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم ، وإن كان في أول الأمر أثرًا ضئيلاً ثم أصبح ظاهرة لافتة فيما بعد ، خاصة في رثائهم للنبي ﷺ بعد وفاته .

وقد شاركت المرأة سائر الشُعراء – في تلك الفترة – فنَّ الرثاء ، فكانت أسرع إلى إظهار الحزن والتعبير عنه وتصوير انفعالاتها وجزعها ؛ لرهافة وطبيعة إحساسها . وكان شعرها امتدادًا لما دار في شعر ما قبل الإسلام من أفكار ومعان ترتبط بالندب والتأبين والتعزية .

واقتصر رثاء المرأة – مسلمة وكافرة – على المقطوعات القصيرة ، مما يدلُ على قصر نفسِها وعجزها عن الإطالة ، وأرجعت السبب إلى أن هؤلاء الشواعر قلن الشعر وقتئذ ، ولم يكن لهن شعر كثير في الجاهلية ؛ ومن ثم لم تتأصل موهبتهن في الماضي ، ولم يكن في فحولة شعراء الجاهلية .

وكذلك كثرت النَّقائض في شعر الرِّثاء بين المسلمين من جهة ، والكفار واليهود من جهة أخرى ، فكانت حربًا أدبية تساير المعاركَ التي دارت رحاها بينهم . وقد ظهر أثر الإسلام واضحًا في هذه النقائض ، غير أنه لم يكن بالصورة المرجوة ؛ إذ إن المعاني الدينية في القصيدة كانت مقتصرة على بيت أو أبيات قليلة ، وكانت تأتي مقتضبة من غير توسُّع ، ولا عمق ، ولا استرسال ، أو تفصيل .

وكان لزامًا أن أقف عند آراء بعض النقاد التي تتهم شعر تلك الفترة باللّين والسهولة وأحيانًا بالضعف ، وأوضحت أن الأسباب التي أدت إلى هذا الاتهام ترجع إلى كثرة الوضع والانتحال

وما نسب إلى تلك الفترة من شعر ركيك ، مما كان له دورٌ في اتهام هذا الشعر بالضعف .

أما اللين والسهولة فيرجع سببهما إلى لين الإسلام الذي هذَّب النفوس وجعلها تحسّ بالأمن والطمأنينة بين أرجائه ؛ ومن ثمَّ رقّ شعرُهم ولان ، وأصبح سهلاً يتناسب مع ما يشعرون من آثار الدين الجديد .

أما في زمن الخلفاء الرّاشدين فقد تطوّر شعرُ الرثاء سواء في زمن الحروب والفتوحات الإسلامية ، أو في زمن السِّلم عند رثاء الخلفاء ، وقد برزت المرأة مرة أخرى في الميدان ولم ينضب معينُها الشّعري ، وشاركت بشِعْرها في أحداث تلك الفترة .

وكان الشُّعراء أثناء الفتوحات الإسلامية - بجانب الرِّثاء التقليدي - يرثون ما يفقدون من أعضاء أجسامهم في ساحات القتال ، ويفخرون بذلك مستهينين بها لأنها في سبيل الله . ولم يكتف الشُّعراء بذلك ، بل رثى بعضهم نفسه أيضًا قبل الموت ، وقد ظهر من خلال شعرهم حنينهم إلى أوطانهم وتشوّقهم للأهل ولمرابع الصِّبا ، فكانوا يشكون ويبكون من الاغتراب والبعد ، تتدفّق فيها حرارة العاطفة وصِدق المشاعر .

وإذا كان هذا ما قيل من رثاء أثناء المعارك ، فقد قيل شعر وقت السلم في رثاء الخلفاء الرّاشدين وغيرهم ، ممن ماتوا أو قتلوا بأيد أثيمة خائنة . وقد تناول الشُّعراء حياة هؤلاء الخلفاء يؤبنونهم ويذكرون فضائلهم وخصالهم ومناقبهم .

ويكثر شعر الرِّثاء مرة أخرى زمنَ الفِتْنة الكبرى وما وقع بعد مقتل عثمان رضي الله عنه من حروب بين عليّ ومعاوية ، فقد نشط الشُّعراء يرثون قتلاهم بشعر تتضح فيه الميولُ الحزبية والسياسية بدرجة كبيرة .

وكان لفقد هؤلاء القتلى وقعٌ شديد على النفوس ؛ لأن ذلك لم يحدث نتيجة جهاد ضد الأعداء ، وإنما حدث نتيجة خلاف بين العرب ، وما كان ينبغي أن يحدث ؛ ولذلك تأثر الشُّعراء وغلب على رثائهم روح الخطابة والجدل .

وقد أنهيت هذه الدراسة بالحديث عن بعض الخصائص الفنية لشعر الرِّثاء في تلك الفترة .

وبعد ، فأرجو أن أكون قد أسهمت بهذه الدراسة في وضع لَبِنَة في بناء صرح الدراسات الأدبية الشامخ ، وأن أكون قد ألقيت الضوء على بعض جوانب شعر الرثاء في تلك الفترة .

والله الموفِّق والمعين ، إنه نعم المولى ، ونعم النصير .

الدكتور مصطفى الشورى

الفصل الأول
قضايا عامة

الإسلام والشعر

كان الشُّعراء قبل الإسلام ألسنة قبائلهم ، يسجِّلون مآثر قومهم ، وينشرون مفاخرهم ، ويخوِّفون أعداءهم ، ويخذلون خصومهم ؛ ومن هنا كانت للشعر أهمية كبرى في حياتهم . ولاشك أن القبائل كانت تحفظ شعر شعرائها ، ويرويه رواتها لأبنائها ؛ ومن ثم كان أفراد القبيلة يردّدون هذه الأشعار في مجالسهم وأسمارهم .

وكانت العصبية تسيطر في الشعر على جملة أغراضه ، فهي التي تهيج الفخر والمباهاة ، وتحمل على إثاره الضغائن والأحقاد ، وتأريث العداوات ، والتحريض على القتال .

وجاء الإسلام بالجِدِّ الذي لا يعرفه العرب في العمل للدنيا والآخرة ، فامتلأت أوقاتهم بالانشغال في تحصيل الدين أو نشر كلمته ، وهكذا أبطل هذا الدين كثيرًا من أمور الجاهلية ، وقيّدهم بحدود لا يتعدونها ، فحرم الكذب ، وإشاعة الفاحشة في الناس ، وقذف المُحْصَنات ، وشرب الخمر ، فحيل بينهم وبين ما يشتهون من نَخْوة الجاهلية وفخرها الكاذب ، وذكر العورات، وتأريث العداوات ؛ ولذلك نرى أن الشِّعر قد فترت حركتُه لبطلان أغراضه القديمة لديهم ، كالغزل المتهتِّك ، والخمريات ، والهجاء المقذع الفاحش .

ويدعي بعضُ الباحثين أن الشِّعر العربيّ قد ضعف في صدر الإسلام ، وأن القرآن الكريم قد أخرس ألسنتهم حتى لم تعد تنطق به ، فابن سلام يقول : « جاء الإسلام فتشاغلت العربُ عن الشِّعر ، وتشاغلوا عنه بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشِّعر وروايته . »[1] وهذا القول لم يصدر من ابن سلام وحده ، وإنما تابعه فيه كثيرٌ من الدارسين حتى أصبح عصر صدر الإسلام لدى بعضهم عصر ركود أدبيّ ، ولدى بعض المعتدلين عصر هدوء أدبي .

يقول ابن خلدون : « انصرف العرب عن الشِّعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوّة والوَحْي ، وما أدهشهم في أسلوب القرآن ونظْمه ، فأخرسوا عن ذلك ، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانًا . »[٢] ويقول جرجي زيدان : « فلما جاء الإسلام وجمع كلمته ، وذهبت العصبية ، لم تبق حاجة إلى الشعر والشعراء ، ناهيك باشتغال أهل المواهب والقرائح بالحروب في الجهاد لنشر الإسلام وبالأسفار ، وقد أدهشتهم أساليب القرآن ، وأخذتهم النبوّة ، وانصرفت قرائحهم الشِّعرية إلى الخطابة لحاجتهم إليها في استنهاض الهِمَم وتحريك الخواطر للجهاد . »[٣]

والحقيقة أن هذه الآراء يجانبها الصواب ؛ فالإسلام لم يحمل العرب على الانشغال عن الشِّعر ؛ لأنه لم يكن يريد هذا الأمر ، مع ما للشعر من سلطان على نفوس العرب ؛ ذلك « أنه علم قوم لم يكن لهم علم غيره . »[٤]

لم تكن الحرب بين الرسول ﷺ وقريش مجرَّد نزاع أو صراع بين المسلمين والمشركين ، ولكنها كانت معركة بين الأنصار وقريش ، وقد كانت العداوة بينهما قديمة ومستحكمة ؛ ومن ثم وجدنا ازدهار الشِّعر أثناء هذه المعارك ، فقبيلة قريش التي لم تعرف بكثرة شعرائها في الجاهلية ؛ لأنها لم تكن من القبائل المحاربة ، ولأنها لم تدخل في صراعات كثيرة كما يقول ابن سلام[٥] قد اشتهرت بكثرة الشُّعراء في الإسلام ، وكأن حرب المقاومة للإسلام قد أثارت الخيالَ الشّعري لهذه القبيلة . وقد سمعنا عن أسماء شعراء كثيرين ، مثل : الحارث بن الهيثم ، وضرار بن الخطاب ، والحارث بن هشام ، وعباس بن مرداس ، والأسود بن يعفر ، وعن دورهم القوي في هذا الصراع ، وبجانب هؤلاء ظهرت طبقة من شعراء المسلمين كانوا يدافعون عن الإسلام والرسول ، وكانوا يردّون على ما يقوله شعراء المشركين .

وكذلك تمخّضت هذه الحروب عن ظهور شواعر كثيرات ، أمثال : صفية بنت مسافر ، وهند بنت عتبة ، وقتيلة بنت الحارث ، وصفية بنت عبد المطلب ، وعمرة بنت دريد ، ونائلة بنت الغرامضة ، وغيرهن كثيرات ، وذاع صوت مراثيهن في القتلى الذين سقطوا في المعارك حينذاك .

ولم تكن قريش وحدَها تحارب المسلمين ، وإنما كان اليهود أيضًا يكيدون لهم ؛ ومن ثم حدث ما لم يكن منه بدّ ، وحارب المسلمون اليهود ، وقد وجدنا صدى لهذه الحروب في

القصائد العديدة من كلا الجانبين ، وظهرت أسماء لشعراء مثل : كعب بن الأشرف ، وسلام بن الحقيق ، وسمّاك اليهودي ، الذين كانوا يتزعّمون الحملة ضد الإسلام ، وفي الوقت الذي استمرت فيه الحروب كان الشُّعراء من كلا الجانبين يشغلون أنفسهم بها .

ومع ذلك ، فمن المحتمل أن معظم الشِّعر المناهض للإسلام قد ضاع نتيجة انتصار الإسلام والمسلمين والقضاء على الكفّار المشركين .

لم يوجِّه القرآن معارضته ، للشعر ذاته ، وإنما كانت المعارضة للشعراء الذين وصفوا بالغواية لأنهم ضَرَر للمجتمع ، وكل ما أراده القرآن الكريم هو تغيير مهمَّة الشعر في حياة العرب ، وتزويده بقِيَم وأهداف جديدة ، تتفق وطبيعة الفكرة الإسلامية ، ولهذا حمل الإسلام حملةً شعواء على هؤلاء الشُّعراء الذين يهيمون على وجوههم فلا يهتدون إلى الحق ، والذين يقولون بألسنتهم ما لا يلتزمونه في أعمالهم ، وتجلّت هذه الحملة في سورة الشعراء ، ولم يستثن منهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرًا ، فقال تعالى : ﴿ والشعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهمْ في كلِّ وادٍ يَهيمون ، وَأَنّهم يَقولون ما لا يَفْعَلون ، إلا الَّذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصّالحات وَذَكَروا الله كَثيرًا وَانْتَصَروا مِنْ بَعْد ما ظُلِموا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَموا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبون ﴾ [٦] .

ويحضرني هنا ما قاله أبو هلال العسكري تعليقًا على هذه الآيات : « واستثناء الله عز وجل في أمر الشُّعراء يدلُّ على أن المذموم من الشعر إنما هو المعدول من جهة الصواب إلى الخطأ ، والمصروف من جهة الإنصاف والعدل إلى الظُّلم والجور ، وإذا ارتفعت هذه الصفات ، ارتفع الذم ، ولو كان الذمُّ لازمًا لكونه شعرًا لما جاز أن يزول على حال من الأحوال . » [٧] فالقرآن قد ميّز بين فريقين من الشُّعراء : فريق استغل فنه فيما ينافي تعاليم الدين وهديه وآدابه ، وهذا الفريق هو الَّذي حاربه القرآن ، وفريق اتجه بشعره إلى نُصْرة الحقّ والعمل النافع المفيد ، وهذا الفريق هو الذي أيّده القرآن وأبقى عليه .

فمحاربة القرآن لم تكن للشعر ، وإنما للمنهج الذي سار عليه الشعر والشعراء ، وهو منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها ، والتي تشغل أصحابها عن تحقيقها .

وهكذا يتضح جليًا موقف الإسلام من الشعر ؛ فقد أراد للشعر أن يتحوَّل إلى وسيلة نافعة ، تكون في خدمة المسلمين ، وتكون بمثابة طاقة نفسية تخدم هذه الجماعة ، وتعمل في سبيل غاياتها ومثلها .

إذن كان على الشِّعر أن يطرح مفهومه القديم ، وأن يتقيد بقِيَم معينة فرضها الدين الجديد ، وأن يستهدف غاياته الرفيعة ، إذا أراد أن يكون له وجودٌ في هذه الحياة الجديدة ، وإلا كان من الخير أن يصمت ، « وما دامت الحياة العربية بجميع مظاهرها قد تعرّضت للتغيير ، فإن الشِّعر أصبح فاقدًا لكل قيمة ، إذا لم يتجاوب معها فيصوّرها من كافة أقطارها في ظلال القِيم الجديدة التي أصابت حياة الناس بالتغيير . والإسلام فضلاً عن كونه رسالة ليس إلا نمطًا من أنماط الحياة والسلوك ، وأسلوبًا من أساليب التفكير ، ولا بدَّ له من أن يترك آثارَهُ على الحياة الفنية . »[٨]

كان للصراع بين الدين الجديد وأعدائه من المشركين أثرٌ كبير في تأكيد قيمة الشِّعر والشُّعراء ، وتحديد مهمتهم في تثبيت دعائم الفكرة الإسلامية ، ودحض افتراءات أعدائهم ، فقد انطلق مشركو مكة يغرون شعراءهم بالإسلام والمسلمين ، وكان لزامًا أن يخوض الشعر الإسلاميُّ معركة عنيفة ضد أعداء الإسلام ، فندب النبيُّ ﷺ الشعراء وأهاجهم واستحثهم ، وكان ينتشي لمنافَحَتهم ويدعو لهم[٩] ، وهذا يعني تقدير النبي لخطر الشّعر وقيمته .

وتجلى أيضًا تقدير النبيّ ﷺ للشعر فيما خلعه على الشعراء الذين تقيّدوا بالقِيَم الإسلامية وما حباهم به من عطفه ، كما يتجلّي في موقفه من شعراء قريش ، الذين بلغت قسوتهم بالحملة عليه وعلى الإسلام حدًّا أهدر دَمَهم ، وقتل بعضهم فعلاً[١٠] .

وكان النبي يثني على الشعراء المسلمين ، ويشد من أزرهم ، ويشجعهم على الاستمرار في النضال ، وقال في حقهم: « هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل . »[١١] ، وكثيرًا ما خصَّ حسان بن ثابت بالعناية والرعاية ، فكان يقول له : « اهج المشركين ؛ فإن روح القدس معك . » وقال له أيضًا : « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ، ما نافحت عن الله ورسوله . »[١٢] ومما قاله لحسان كذلك : « هيج الغطاريف على بني عبد مناف ، والله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام . »[١٣]

وظل الشعر سهامًا يتداولها المتحاربون في كل معارك الإسلام الأولى ، فحين انهزم المشركون في موقعة الأحزاب قال الرسول : « إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم أذى ويهجونكم ، فمن يحمي أعراض المسلمين ؟»[١٤] فنهض إليه شعراء المسلمين ، وقاموا بتلك المهمة خير قيام مهتدين بقوله ﷺ : « قولوا لهم مثل ما يقولون لكم . »[١٥]

وقد أباح الرسول نظم الشِّعر ، وكان يجالس الشعراء ويستمع إليهم ، وكان يستنشد الصحابة أشعار الجاهليين ، ويستمع معهم إلى ذلك ، فقد روي أنه استنشدهم شعر قيس بن الخطيم ، فأنشدوه بعض شعره [١٦] .

وهذه قُتَيْلة أخت النضر بن الحارث الذي كان غاليًا في عداوة المسلمين بمكة ، يكثر أذاهم ، ويلقن فتيان قريش الشِّعر في هجائهم ، أسره النبي في بدر وقتله ، فجاءته أخته وأنشدته [١٧] :

يا راكِبًا إنَّ الأثيلَ مظنَّةٌ	مِنْ صُبْحِ خامسة وَأَنْتَ مُوَفَّقُ
أبلغْ بِهِ مَيْتًا بأنَّ تَحِيَّةً	ما إنْ تزالُ بها النَّجائبُ تَخْفِقُ
مِنِّي إلَيْكَ وَعَبْرَةً مَسْفوحَةً	جادَتْ بواكِفِها وَأُخْرى تَخْنُقُ
هَلْ يَسْمَعَنِّي النَّضْرُ إنْ نادَيْتُهُ	أمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ لا يَنْطِقُ
ظَلَّتْ سيوفُ بني أبيه تَنوشُهُ	لله أرْحامٌ هُناكَ تُشَقَّقُ
صَبْرًا يُقادُ إلى المَنِيَّة متعبًا	رَسْفَ المقيَّدِ وَهْوَ عانٍ موثَقُ
أ مُحَمَّدٌ وَلَدَتْكَ خَيْرُ نَجيبَةٍ	في قَوْمِها والفَحْلُ فَحْلٌ معرقُ
ما كانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّما	مَنَّ الفَتى وَهوَ المَغيظُ المُحْنَقُ
فَالنَّضرُ أقْرَبُ مَنْ قتلتَ قرابةً	وَأحقُّهُم إنْ كانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ
لَوْ كُنْتَ قابِلَ فِدْيَةٍ لَفَدَيْتُهُ	بِأعَزِّ ما يغلى بِهِ من ينفقُ

فقال رسول الله ﷺ : لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه .

ويتلخص موقف الرسول ﷺ من الشعر في قوله [١٨] : « إنما الشعر كلام مؤلَّف ، فما وافق الحقَّ منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خيرَ فيه . »

لم يقف الإسلام – إذن – من الشعر موقفًا عدائيّا ، ولم يحاول أن يحمل العرب على الانشغال عنه ، « فلم يكن من هدف الدين الإسلامي ، ولا من هدف رسوله في شيء أن يحول بين العرب والشعر ، وإنما كان الهدف أن يوضع الشِّعر موضعه ، وأن يخطط له بما يجعله ذا قيمة مؤثِّرة في حياة المسلمين ، لما كان يدركه من عمق الصِّلة بين حياة العرب وبينه ؛ ومن ثم فقد آثر أن يحوله عن وجهته الجاهلية إلى هذا الأفق الجديد . فحرض الشُّعراء وأغراهم على السير فيه ، ودعا لهم ، في حين ضرب على أيدي الشعراء الذين ظلوا يعيشون بمفاهيم جاهلية ؛ يتخذون منها وسيلة لمحاربة الإسلام والتنفير منه ، وإثارة الفِتَن والعصبيّات ، وإيذاء النفوس ، وإشاعة

البغضاء بين المسلمين [١٩] .

كان طبيعيًا أن يخفت صوت الشعر ، وإن لم يصمت ؛ فقد ظل الشُّعراء المسلمون يقومون برسالتهم في ردِّ سِهام المشركين وحماية العقيدة ونصرتها . يقول الدكتور النعمان القاضي : « خفت صوتُ الشُّعراء أمام المُثُل الإسلامية الجديدة التي تختلف تمام الاختلاف عن المثل الجاهلية التي اعتاد الشعر تصويرها والتحدّث عنها ، وفقد الآن حرية التعامل بقيمها وبصورها وبألوانها وبأجوائها ، وفقدت هي - من جانب آخر - طلاوتها لأنها لم تعد ذكريات عزيزة في تكوين الشِّعر والجماعة الجديدة داخل إطارها الجديد ، وإن ظلت جزءًا من ماضيه ، يأنف منه ويزدريه . و وجد الناس ما ينشدون من هذه المثل الإسلامية في القرآن الكريم وإدمان القراءة فيه وتفهّمه ، وازداد صوت الشعر خفوتًا عندما أخذ اهتمام الناس ينتقل من قراءة القرآن وتفهّمه ككتاب مقدّس للدعوة الإسلامية ، إلى كتاب أدبي يفوق بروعته وبيانه ما ورثوه من تليد الشعر ، ويتجاوز سحره طاقة البشر . » [٢٠]

وهكذا ، استقر في أذهان المسلمين أن أساليب القرآن تستطيع أن تسع منازعهم النفسية العميقة ، وأن توحي بكثير من ألوان البيان المماثل ، فوجدوا فيه بديلاً فنيّا غلب الشعر على منزلته ، حتى لقد صار شاعر الرسول ينشد في المسجد فلا يجد من يستمع إليه ، ويضطر الزبير أن يهيب بهم ليستمعوا إليه ؛ فقد كان الناس في شغل بالقرآن الذي استأثر بهم عن الشعر ؛ لأن فيه ما يهيِّج العصبيات التي قضى عليها الإسلام [٢١] .

ومهما يكن من أمر ، فإن المسلمين لم يُشغَلوا عن الشعر بسبب الجهاد والغزو ، كما قال ابن سلام ، وإنما كان نتيجةَ محاولة الإسلام تغيير مفاهيم الشعر وتعاليمه ومثله - كما سبق أن أوضحت - وأن الشعر عجز عن أن يقدِّم للناس ما وجدوه في القرآن .

ولم يكن من اليسير أن تتغير مفاهيم الشعر وقيمه بين ليلة وضحاها ؛ فهذه القيم قد رافقت الشعر أجيالاً طويلة ، وليس في الإمكان طرحها دفعة واحدة ، واستبدال قِيَم إسلامية تحل محلها بها ، وإنما احتاج الأمر إلى وقت تتخلص فيه الحياة تدريجيًا من رواسب الماضي ، بحيث تتأصل هذه القيم الجديدة في النفوس رويدًا رويدًا .

واختلف تأثر الشُّعراء الذين أدركهم الإسلام في معانيهم ، وفي أساليبهم لاختلاف بيئاتهم

الشِّعرية ، وتبعًا لمبلغ اتصالهم بالإسلام وتأثّرهم به ، ومدى خضوعهم لحوادثه وتغلغل روحه فيهم . وحاول بعضهم أن يفيد منه في معانيه وأسلوبه .

أما شعراء قريش المشركون فحافظوا على الطابَع الجاهليّ ، وهذا أمر طبيعي ؛ فهم لم يقروا بالإسلام ، ولم يعترفوا بنبيّه ، بل رأوا في الدين الجديد تهديدًا لعقيدتهم الجاهلية ، فقاموا يهاجمونه ويعرّضون به ، ويدافعون عن أحسابهم وأنسابهم ومكاسبهم ، فبرز في شعرهم العداء الشديد للنبي والمسلمين ، كما برز فيه التعصّب القَبَلي . على أن هذا لايعني أنهم لم يذكروا الإسلام ، ولم يتأثّروا به ؛ فإن طبيعة الصراع القائم قد دفعتهم إلى ذلك دفعًا ، فاضطُرّوا إلى معرفة مفاهيمه وأفكاره ليتمكنوا من الرد على دعاته وحامليه ، وليستطيعوا مهاجمته في أفكاره ، وليبينوا تمسّكهم بالقيم الجاهلية لأنها مهدّدة ، فأبو بكر بن شعوب الليثي - وهو شدّاد بن الأسود - يهاجم العقيدة الإسلامية ، وينكر البعث عندما يقول (٢٢) :

يُخبرنا الرَّسولُ بأنْ سَنَحْيا   وَكَيْفَ حَياةُ أصداءٍ وَهامِ

كذلك حافظ شعر القبائل على طابَعه الجاهليّ ، وحمل ما يحمل الشعر الجاهلي من خصائص وسِمات ، فلم يظهر تأثير الإسلام في أفكارهم وعواطفهم ، كأن أحوالهم ما تغيّرت منذ انتهاء عصر الجاهلية . فأهل البادية كانوا من أبعد الناس عن روح الإسلام ، ولا ميل لهم إلى تأمّل أمور الدين وفهمها ، فصعب دخول الإيمان في قلوبهم ، وظل شعر القبائل معزولاً عن الحياة الإسلامية إلى حين ؛ لأنه كان بعيدًا عن أرض المعركة ، فلم يساهم فيها إلا بقدر يسير .

ومهما يكن من أمر ، فإن المحافظة على الطّابَع الجاهليّ كانت ظاهرة عامة في شعر هذه الفترة ، وأول ما يلفت النظرَ إلى ذلك تلك المطالع التي درج عليها شعراء الجاهلية ، ومرنوا على استعمالها ، وأصبحت تقليدًا متبعًا ، لا سبيل إلى هجره ، فقد برزت هذه المطالع عند بعض الشُّعراء في هذه الفترة ، فهذا عبد الله بن الزِّبَعْرَى يذكر زحف جيش الأحزاب يوم الخندق على المدينة ، ولكنه يقف قبل ذلك على الديار فيقول (٢٣) :

حَتّى الدِّيار مَحا مَعارفَ رَسْمِها   طولُ البلى وَتَراوُحُ الأحْقابِ
فَكَأنَّما كَتَبَ اليهودُ رُسومَها   إلا الكَنيفَ ومقْعَد الأطنابِ
قَفْرًا كَأنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَلْهو بِها   في نِعْمَةٍ بأوانِسٍ أتْرابِ
فَاترُكْ تَذَكُّرَ ما مَضى مِنْ عيشَةٍ   ومَحلَّةٍ خلقِ المقامِ يبابِ

وإذا كان عبد الله قد وقف على الديار يوم الخندق ، يندب حاضرها ويذكر ماضيها ، ويفخر ويعتز بقومه ، فقد وقف عليها حسان بن ثابت من قبله يوم أحد ، يغمره الحزن والأسى على مقتل حمزة بن عبد المطلب فقال (٢٤) :

أ تَعْرِفُ الدارَ عَفا رَسْمُها بَعْدَكَ صَوْبَ المسيلِ الهاطِلِ
بين السَّراديحِ فأدمانَةٍ فمدْفع الرَّوْحاءِ في حائِلِ
ساءَلْتُها عَنْ ذاكَ فاسْتَعْجَمَتْ لَمْ تَدْرِ ما مَرْجوعَة السّائِلِ
دَعْ عَنْكَ دارًا قَدْ عَفا رَسْمُها وَابْكِ عَلى حَمْزَة ذي النّائِلِ

وكما قدم حسان لقصيدته ، قدم لها كعب بن مالك أيضًا ، إلا أن حسان صدّرها بذكر الأطلال والديار ، أما كعب فقد استهلها ببيتين من الغزل التقليدي ، مع أنها في رثاء حمزة أيضًا ، وذلك حيث يقول (٢٥) .

طَرَقَتْ هُمومُكَ فالرُّقادُ مُسَهَّدٌ وَجَزِعْتَ أنْ سُلِخَ الشَّبابُ الأغْيَدُ
وَدَعَتْ فُؤادَكَ لِلْهَوى ضَمْرِيَّةٌ فَهَواكَ غَوْرِيٌّ وَصَحْوُكَ مُنْجِدُ

ولكننا حين نتعقّب شعر الشُّعراء في هذه الفترة نجد فيه خيوطًا تظهر في نسيجه من حين إلى حين ، فقد تناول الشعراء شيئًا لم يتناوله الشعر الجاهلي ، وهو المعاني الدينية التي شاعت عند المسلمين ، فحفظ شعرهم ألفاظًا لم يذكرها مَنْ سبقهم من الشعراء ، ولكن تأثر الشعر بالإسلام يختلف باختلاف الشعراء الذين قالوا هذا الشعر ، ولا سيما أنهم كانوا جاهليين في فنّهم وعقليتهم ، ومن بيئات مختلفة ، فشعراء المدينة قد تأثروا بهذه المفاهيم الجديدة لأنهم عاشوا في بيئة تطبِّق أحكام الدين الجديد ، أضف إلى ذلك أن النبي كان يرعى شعراءه ويوجّههم الوجهة الإسلامية ، فكثيرًا ما ترددت ألفاظ : الوفاء ، والصدق ، والصبر ، وابتغاء رضوان الله . يقول عبد الله بن رواحة (٢٦) :

رَحِمَ الله نافعَ بْنَ بديلٍ رَحْمَةَ المُبْتَغي ثوبَ الجِهادِ
صابِرٌ صادِقٌ وفي إذا ما أكْثَر القوم قالَ قَوْلَ السّدادِ

ويقول حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث قبل فتح مكة (٢٧) :

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ الله في ذاكَ الجَزاءُ
أتَهْجوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْوٍ فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِداءُ

فهذه المناقشة المنطقية مستمدة من أسلوب القرآن في المناقشة ؛ فقد وضع القرآن الأسس الأولى بطريقة جديدة مستمدَّة من أصول الدين أو فروعه ، عندما ناقش المشركين في عقائدهم ، وكذلك أهل الكتاب أو المنافقين ممن كان يقف ضد رسالة الإسلام .

ويفخر كعب بن مالك بانتصار المسلمين يوم بدر فيقول (٢٨) :

وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقيناكُم لنَا مَدَدٌ فيهِ مَعَ النَّصْرِ ميكال وجبْريلُ
إنْ تَقْتُلونا فَدينُ الله فِطْرَتُنا وَالقَتْلُ في الحَقِّ عِنْدَ اللهِ تَفْضيلُ

فهو يفخر بتأييد الملائكة لجند الله وبانتصار المؤمنين الصادقين ، وهذه أفكار جديدة أحدثها الإسلام ، فلم يعد الشاعر يفخر بإعلاء كلمة القبيلة أو رفع شأنها ، كما كان يفعل في الجاهلية .

ويفخر حسان بن ثابت فيقول (٢٩) :

الله أكْرَمَنا بِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَبِنا أقامَ دَعائِمَ الإسْلامِ
وَبِنا أعَزَّ نَبِيَّهُ وَ وَلِيَّهُ وَأعَزَّنا بِالنَّصْرِ والإقْدامِ
نَحْنُ الخِيارُ مِنَ البَرِيَّةِ كُلِّها وَنِظامُها وَزِمامُ كُلِّ زِمامِ

فلم يعد الشاعر يفخر بقومه على أساس قبلي ، وإنما صار يفخر بهم باعتبارهم أنصار الإسلام ، وحملة دعوته الأوائل الذين اختارهم الله من بين البرية ليقودوا الناس من الظلمات إلى النور .

وقد تناول الشعراء في أشعارهم أيضًا بعض الأفكار الإسلامية الجديدة ، وتحدثوا بألفاظ جديدة – كما سنرى فيما بعد – لم تكن تعرفها الجاهلية ، كالتقوى والبِرّ والرحمة والإيمان والخير والهداية والنقاء ، وأصبحنا نحسّ في شعرهم سماحَة الإسلام وروح الرضا والصبر والطمأنينة ، التي أشاعها الإيمان الجديد في نفوسهم .

ولأول مرة نجد الشعراء في ظِلّ إيمانهم بالدين الجديد يمجِّدون الجهاد في سبيل الله ، مصداقًا لقوله تعالى (٣٠) : ﴿ إنَّ الله اشْتَرى مِنَ المؤمنين أنْفُسَهُمْ وَأمْوالَهُمْ بِأنَّ لَهُمُ الجَنَّة يُقاتِلونَ في سَبيلِ الله ، فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًا في التَّوْراةِ وَالإنْجيلِ وَالقُرآن ، وَمَنْ أوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الَّذي بايَعْتُمْ بِه ﴾ .

فعندما خرج المسلمون يجاهدون في سبيل الله ، ويجدّون في طلب الشهادة ، وهم يعلمون أن في استشهادهم الفوز بأسمى المراتب والمنازل في الحياة الآخرة ، وجدنا أن الشعراء في رثائهم لشهدائهم يذكرون أجرهم الذي وعدهم الله ، وهو الجنة . يقول حسان بن ثابت [٣١] :

فَإنْ تَذْكُروا قَتْلى وَحَمْزَةَ فيهم ... قَتيل ثَوى للهِ وَهْوَ مُطيعُ
فإنَّ جِنانَ الخُلْدِ مَنْزِلَةٌ بِها ... وَأمْرُ الَّذي يَقْضي الأمورَ سَريعُ
وَقَتْلاكُم في النّارِ أفْضَلُ رِزْقِهِمْ ... حَميمٌ مَعًا في جَوْفِها وَضَريعُ

ويردّد حسان هذه المعاني في حديثه عن شهداء المسلمين ، مصورًا حسن جزائهم وفوزهم برضوان الله عز و جل ، وأن الشهادة راحة للمجاهد ، يدعوه الله ليخلد في الجنة فرحًا بما أنعم عليه . ففي رثائه لحمزة بن عبد المطلب يقول حين قدمت بنته المدينة تسأل عن قبر أبيها [٣٢] :

فَقُلْتُ لَها إنَّ الشَّهادَةَ راحَةٌ ... وَرِضْوانُ رَب يا أمام غَفورِ
فَإنَّ أباكِ الخَيْر حَمْزَة فَاعْلَمي ... وَزيرُ رَسولِ اللهِ خَيْرُ وَزيرِ
دَعاهُ إلهُ الخَلْقِ ذو العَرْشِ دَعْوَةً ... إلى جَنَّةٍ يَرْضَى بِها وَسُرورِ
فَذَلِكَ ما كُنّا نرجي ونرتجي ... لِحَمْزة يوم الحَشْرِ خَيْر مصير

ويصور عبد الله بن رواحة إيمانه القويَّ بأن الجهاد في سبيل الله هو غاية ما بعده غاية ، ونراه يلهج بالدعاء لله عز وجل أن تأتيه في ميدان الجهاد طعنة نافذة تحقق حلمه الرشيد ، فيقول في غزوة مؤتة [٣٣] :

لَكنَّني أسألُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً ... وَضَرْبَةً ذاتَ فَرْغٍ تقذف الزّبدا
أوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكَبِدا
حَتّى يُقالَ إذا مَرّوا عَلى جَدَثي ... أرْشَدَهُ الله مِنْ غازٍ وَقَدْ رَشدا

ونجده يحدث نفسه أن تختار الاستشهاد في سبيل الله ، فهو إن لم يقتل في سبيل الله سيلقى حتفه ، فهو يقول [٣٤] :

يا نَفْسي إنْ لَمْ تُقْتَلي تَموتي ... هَذا حمامُ المَوْتِ قَدْ صليتِ
وَما تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أعْطيتِ ... إن تَفْعَلي فعلها هديـــتِ

فالشّاعر هنا يستمد مادته من المناهل الإسلامية الخالصة ، ويدور في دائرة إسلامية صِرْفة ،

قوامها ما جاء في القرآن الكريم من آيات تحث على الجهاد في سبيل الله .

وهكذا نرى بوضوح أثر الإسلام في الشعراء وفي صُورهم وأخيلتهم وفي ثقافتهم التي كانوا يودعونها أشعارهم ، وفي ألفاظهم وتراكيبهم ومعانيهم ، فمثلا في أبيات حسان ، وهو يرثي حمزة ، يمكن رصد ألفاظ إسلامية ، مثل : « الشهادة ، والرضوان ، والرب ، والغفور ، ورسول الله ، والخالق ، وذو العرش ، والجنة » .

فالمعجم هنا معجم مكثف بالاستخدام الإسلامي للألفاظ ، يقول ابن فارس : « كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم ، في لغاتهم ، وآدابهم ، ونسائكهم ، وقرابينهم ، فلما جاء الله - جل ثناؤه - بالإسلام ، حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت، فعفى الآخر الأول . » [٣٥]

وبعد وفاة النبي - ﷺ - استخدم الشعر في شرح معاني القرآن الكريم ، وكان أول من استخدمه ابن عباس - رضي الله عنه - ليكون شاهدًا موثقًا لألفاظ القرآن الكريم ، كاشفًا لمعانيها . وقد ذكر كتاب الإتقان أن ابن عباس قال [٣٦] : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه . »

و وقف عمر بن الخطاب على المنبر يقرأ قوله تعالى : ﴿ أو يأخذهم عَلَى تَخَوُّف ﴾ فسأل أحد الناس عن معنى « التخوف » فقام رجل من هذيل فقال : التخوُّف عندنا التنقّص ، ثم أنشد قول الشاعر [٣٧] :

تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْها تامِكًا قَرِدًا   كَما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبعَةِ السَّفِنُ

فقال عمر : « أيها الناس ، تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم . » وهناك نماذج كثيرة ، فسّر بها ابن عباس القرآن الكريم بالشعر الجاهلي .

وهكذا يتضح دور الشعر في الكشف عن معاني الألفاظ القرآنية وإزالة غريبها ؛ ولذلك كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري يقول [٣٨] « مُرْ من قبلك بتعلّم الشعر ؛ فإنه يدل على معاني الأخلاق وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب . »

الإسلام والموت والبعث والحساب

وقف الجاهلي عند الموت وفكر فيه وتأمله ، وانتهى إلى أنه حقيقة محتومة ، ومشرع لا بد من وروده ، طال العمر أم قصر . يقول عمرو بن كلثوم ملخصا رأيه ورأي الجاهليين (٣٩) :

وَإِنّا سَوْفَ تُدْرِكُنا المَنايا مُقَـدَّرَةً لَنـا وَمُقَدَّرينــــا

فالموت قدر لا مفرّ منه ولا مهرب ؛ لأنه النهاية التي تؤول إليها الحياة والأحياء .

أما طَرَفة بن العبد فيصور هذه الحتمية تصويرًا جميلاً عندما يشبِّه المرء في هذه الحياة بدابة أرخي لها الحبل لترعى ، فإذا أرادها صاحبها شدّ إليه الحبل ، فتركت مرعاها الخصيب وانقادت صاغرة ، لا تملك رفضًا . يقول (٤٠) :

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أَخْطَأَ الفَتى لكالطِّوَلِ المُرْخَى وَثنياهُ بِاليَدِ
مَتَى ما يَشأ يَوْمًا يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ وَمَنْ يَكُ في حَبْلِ المنيَّةِ ينقدِ

ويبدو أن الإحساس بهذه الحتمية قد هوَّن على كثير من العرب اقتحام المخاطر ومنازلة الشدائد . يقول عنترة بن شدّاد (٤١) :

وَعَرَفْتُ أنَّ مَنِيَّتي إنْ تَأتِني لا يُنْجني مِنها الفِرارُ الأسْرَعُ
فَصَبرتْ عارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً تَرْسو إذا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ

ويرد سلامة بن جندل على ابنته التي حاولت أن تثنيه عن ولوج المخاطر خوفًا عليه وعليها بأن الموت أمر لا مفرّ منه ، فإن استطاعت أن تمنع عنه الموت فلتفعل ، وإن لم تستطع فلتتركه يواجه مصيره في شجاعة (٤٢) :

تَقولُ ابْنَتِي إنَّ انْطِلاقَكَ واحِدٌ إلى الرّوعِ يَوْمًا تارِكي لا أبا لِيا
دَعينا مِنَ الإشْفاقِ أوْ قَدّمي لَنا مِنَ الحدثانِ وَالمَنِيَّـةِ واقِيــا

وقد توصل الشاعر الجاهليُّ إلى هذه النتيجة بعد تأمّل فيمن حوله ، وقد رأى الملوك العظماء الذين كانت في أيديهم كل أسباب الحياة فضلاً عن تقديسهم وتأليههم (٤٣) يعجزون عن حماية أنفسهم من الموت ، فكيف به وهو الذي لا يملك ما ملكوا ؟ فالشاعر الأسود بن يعفر ينظر في حياة الملوك الذين تخيّروا أجمل بقاع وأطيبها فشيدوا القصور ، وثمروا الجنان ، ثم راحوا

وتركوها طلولاً دوارسَ تتناوح فيها الأعاصير ، ثم يصل بعد هذا التأمّل إلى أن كل ما يسمى نعيمًا آخره فناء وهلاك . يقول (٤٤) :

ماذا أؤمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحرِّقٍ   تَركوا مَنازِلَهُم وبَعدَ إيادِ
أهْلِ الخَورْنَقِ والسَّدير وبارقٍ   وَالقصرِ ذي الشُّرُفات مِنْ سِنْدادِ
أرْضًا تَخَيَّرَها لِدارِ أبيهِمُ   كَعْبُ بْنُ مامَةَ وَابْنُ أمِّ دُؤادِ
جَرت الرِّياحُ عَلى مَكانِ دِيارِهِمُ   فَكأنَّما كانوا عَلى ميعـادِ
وَلَقَدْ غَنُوا فيها بِأنْعَمِ عيشَةٍ   في ظِلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأوْتادِ
نَزَلوا بِأنْقِرَةٍ يَسيلُ عَلَيْهِمُ   ماءُ الفُراتِ يَجيءُ مِنْ أطْوادِ
أيْنَ الَّذينَ بَنوْا فَطالَ بناؤُهُمْ   وَتَمَتَّعوا بِالأهْلِ وَالأوْلادِ
فإذا النَّعيمُ وَكُلُّ ما يُلْهى بِهِ   يَوْمًا يَصيرُ إلى بِلًى وَنَفادِ

ومن نتائج هذه الحتمية أن شاع نوعٌ من الجَبْرية العميقة في نفوس كثير من الجاهليين ، وهي جبرية تكِل كل شيء إلى القدر . قال ابن قتيبة : « روى عبد الله بن محمد بن أسماء ، عن جُوَيْرية قال : كنت عند قتادة فسئِل عن القدر ، فقال : ما زالت العرب تثبت القدر في الجاهلية والإسلام . » (٤٥)

وكان العرب يفهمون القدر على أنه القوّة التي تتصرَّف في الإنسان ، فلا تترك له مجالاً للاختيار . يقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة الأسدي (٤٦) :

لَعَمْرُ ما قَدَرٌ أوْدَى بِمَصْرَعِهِ   لَقَدْ أخلَّ بِعَرْشي أيَّ إخْـلال

فالقدر الذي ذهب بفضالة قد هزه هزًّا عنيفًا .

وعندما يجزع الأسود بن يعفر على فقد « مالك » إنما يفعل ذلك تنفيسًا عما يلاقيه من لواعج الحزن ؛ لأنه يعلم أن الجزع لا ينفع ولا يمنع من حدوث القدر . يقول الأسود (٤٧) :

فَيا لَهْفَ نَفْسي عَلى مالِكٍ   وَهَل يَمْنَعُ اللَّهفَ ذو القَدَرِ

وكان من نتائج الإحساس بحَتْمية الموت والفناء التهافت على لَذّات الحياة ومتعها ، كما كان يفهمها الشاعر الجاهليّ ، فما دام الموت يترصَّده في كل خطوة ، وما دامت الحياة ستنتهي إلى رمس مظلم في بَرِّيَّة مقفرة ، فليتزود منها ما استطاع ، وليغرق نفسه في لذائذها ومباهجها ؛ فقد

لا تتاح له هناك حياة مثل هذه الحياة ، على ما فيها من شظف وخشونة . يقول طرفة (٤٨) :

فَذَرْني أرَوّي هامَتي في حَياتِها　　مَخافَةَ شُرْبٍ في المَمات مُصَرَّدِ
كريمٌ يُرَوّي نَفْسَهُ في حَياتِهِ　　سَتَعْلَمُ إنْ مُتْنا غَدًا أيُّنا الصَّدي

ويدعو امرؤ القيس نفسه للتمتُّع بالخمر والنساء قبل أن يدركه الفناء ، فيقول (٤٩) :

تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيا فَإنَّكَ فانِ　　مِنَ النَّشَواتِ وَالنِّساءِ الحِسانِ
مِنَ البيضِ كالآرامِ وَالأُدْمِ كَالدُّمى　　حَواصِنُها وَالمُبْرِقاتُ رَوانِ

أما فكرة البعث عند العرب ومعرفتهم باليوم الآخر فالأدلة عليها كثيرة ، فقد ورد ذكر يوم الحساب ويوم القيامة والحشر في شعر الشعراء قبل الإسلام (٥٠) . وإذا كان مِن الشعراء الجاهليين مَنْ آمن بذلك ، فإن بعضًا منهم لم يكن يؤمن به ، ولعلنا نلاحظ أن إنكار هؤلاء للآخرة لم يظهر ولم يَعْلُ صوته إلا بعد أن جاء الإسلام واصطرع مع الوثنية ، فبرز الإنكار . والشعر الجاهلي الذي أنكر فيه قائلوه البعث والحشر لا يدلّ على أن هؤلاء الشعراء يجهلون الفكرة ، وإنما يدل على أنهم كانوا يعرفونها ولكنهم ينكرون ، والقرآن الكريم واضح الدلالة على ذلك .

قال تعالى (٥١) : ﴿ وَقالَ الَّذينَ كَفَروا أ ئِذا كُنّا تُرابًا وَآباؤُنا أ ئنّا لَمُخْرَجون ، لَقَدْ وُعِدْنا هَذا نَحْنُ وآباؤُنا مِنْ قَبْلُ ، إنْ هَذا إلا أساطيرُ الأوَّلين ﴾ . ويقول الطبري شارحًا الآيتين (٥٢) : « يقول تعالى ذكره : قال الذين كفروا أ ئنا لمخرجون من قبورنا أحياء كهيئتنا من بعد مماتنا ، بعد أن كنا فيها ترابًا قد بلينا (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) يقول : لقد وعدنا هذا من قبل محمد واعدون ، وعدوا ذلك آباءنا فلم نر لذلك حقيقة ، ولم نتبين لذلك صحة . » ويقول الإمام ابن كثير (٥٣) : « لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعًا . » فالجاهليون كانوا - إذن - على عِلْم بأن ثمة حياة بعد الموت ، توارثوا ذلك عن آبائهم وأجدادهم ، ولكنهم رفضوا أن يصدقوا أن ذلك كائن ؛ لأنه لم يقم لديهم دليل عليه ، ومن هنا جاء إنكارهم للبَعْث والحياة الأخرى ، والقضية قضية معرفة وإنكار ، لا قضية جهل (٥٤) .

وما دام هؤلاء لا يؤمنون بالبعث والحساب فقد ارتبطت قضية الخلود عندهم بطريق جهاد النفس في الحرب وإتلافها في المروءة والكرم ، باعتبار أن الذكرى للإنسان عمر ثان . فالإنسان يبلي بلاءً حسنًا في الحرب ونوال الثأر أو الكرم أو المروءة ليظفر بالخلود بعد الموت ، بترديد اسمه

على الألسنة . يقول الحادرة الذبياني [٥٥] :

فَاثْنوا عَلَيْنا لا أبا لأبيكُم ... بِإحْسانِنا إنَّ الثَّناءَ هُوَ الخُلْدُ

ويقول الغنوي [٥٦] :

فَإذا بَلَغْتُمْ أرْضَكُم فَتَحَدَّثوا ... وَمِنَ الحَديثِ متألفٌ وَخُلودُ

ويقول المهلهل بن ربيعة [٥٧] :

فَقَتْلاً بِتَقْتيلٍ وَعَقْرًا بِعَقْرِكُم ... جَزاءَ العَطاءِ لا يَموتُ مَنِ اثَّأر

فالخلود عند المهلهل هو إدراك الثأر ، وعدم إدراكه هو الموت في الحياة . وهكذا يمكن القول بأن الجاهلية عرفت في عقائدها البعث ، ولكنها عرفته على نحو يختلف عما جاء في عقيدة الإسلام . وسواء أ كانت معرفتهم له من إرث أبيهم إبراهيم أم انتقلت إليهم من الديانات السماوية الأخرى ، فإنهم خلطوه بكثير من الأساطير والخرافات .

تلك كانت نظرة الجاهليين للموت والبعث والحشر . وعندما جاء الإسلام اتضحت أمام الشاعر الجاهلي – الذي دخل الإسلام – معالم الدين الجديد وتعاليمه ، مما كان له أثرٌ مباشر في تعميق الشاعر عن حقيقة الحياة الدُّنيا ومتاعها الزّائل ، وما وراء هذه الحياة من موت وفناء ونشور وحساب وجزاء .

رسم القرآن الكريم والحديث النبويُّ الشريف صورةً واضحة لهذه الحقيقة التي وضعت في الشعر العربي الأسس الواضحة لموضوع الزهد في ملذّات الدنيا ومتعها . ففناء الدنيا أمرٌ لا محالةَ واقع ؛ ومن ثم وجب على الإنسان ألا يغترّ بزُخْرفها وزينتها ، وأن يعمل حساب يوم تعرَض فيه أعمال الخَلْق على الخالق – عزّ و جل – ، فمن عمل صالحًا فنعم أجر الصالحين ، ومن عمل سوءًا فجزاؤه من جنس عمله ، يقول عز و جل [٥٨] : « وَاعْلَموا أنَّما الحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ في الأمْوال والأوْلادِ كمثل غيثٍ أعْجَبَ الكفّارَ نباتُهُ ثم يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفراًّ ثُمَّ يَكونُ حُطامًا ، وَفي الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ ، وَما الحَياةُ الدُّنيا إلا مَتاعُ الغُرورِ » .

إن أولئك الذين يغترّون بمتاع الدنيا ويجرفهم تيار زخرفها الزائل ، غافلون عن مصيرهم

المؤلم ، فقد أعد الله لهم عذابًا وجحيمًا . يقول تعالى [٥٩] : ﴿ إنَّ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بالحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلون . أولَئِكَ مَأواهُمُ النّارُ بِما كانوا يَكْسِبون ﴾ وليس كذلك مصير من خشي ربَّه وكبح جِماح شهوات نفسه ، فإن مصيره الجنة التي أعدها الله للعازفين عن ملذَّات الدنيا . يقول عز و جل [٦٠] : ﴿ فأمَّا مَنْ طَغى ، وَآثَرَ الحَياةَ الدُّنْيا ، فَإنَّ الجَحِيمَ هِيَ المأوَى ، وَأمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوى ، فَإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المأوَى ﴾ ولابد للإنسان ألا ينخدع في هذه الحياة الدنيا ، ويجب أن يعلم أن الآخرة خير وأبقى . يقول تعالى [٦١] :

﴿ قَدْ أفْلَحَ مَنْ تَزَكّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى ، بَلْ تُؤثِرونَ الحَياةَ الدُّنْيا ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وأبْقى ﴾ . ويصوِّر لنا الحديث النبوي الشريف الدنيا سجنًا للمؤمن بالله ، وأما الكافر فإنه يراها جنة . يقول عليه الصلاة والسلام [٦٢] : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . والإنسان في هذه الدنيا إن أحبّها أضرّ بالباقية ، وهي الحياة الآخرة . يقول الرسول الكريم [٦٣] : « من أحب الدنيا أضرّ بآخرته ، ومن أحبَّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما بقي على ما يفنى » .

على هذا النحو رسم القرآن الكريم والحديث الشريف صورة الدنيا وزخرفها وزينتها ، وأن الفناء واقع لا محالة ، ثم يأتي يوم الحشر العظيم فيلقى كل إنسان كتابه ، ويحاسبه الخالق عزَّ وجل على ما قدَّمت يداه في دنياه . فالحياة الدنيا حياة فانية تعقبها الحياة الآخرة الباقية ، والإنسان المؤمن عليه أن يزهد في ملذّات الحياة ويتحلّى بالمثاليات الخلقية التي رسمها له الخالق عز وجلَّ في مُحْكَم آياته ، التي فصلها النبي ﷺ في أحاديثه ، وهذه المثاليات الخلقية نابعة من العقيدة السماوية المنزلة ، أي أنها مثاليات غير شخصية ، جاءت من تجارب الإنسان في حياته الدنيوية على نحو مثاليات المجتمع الجاهلي . إنها مثاليات منزَّهَة عن الأغراض الدنيوية ، تهذب خلق الإنسان ،وترسم له طريق النجاة من شرور وآثام الدنيا ، وتفسح أمامه طريق العمل من أجل ثواب الآخرة .

ولذلك مضى الشُّعراء في العصر الإسلامي يوضِّحون في شعرهم إيمانهم بالله عز وجل ، وبما جاء في كتابه العزيز ، وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل شيء ، بيده الأمر ، جعل لكل إنسان أجلاً مقررًا ، ويوم القيامة يحاسبه على ما قدمت يداه في دنياه .

ولقد حبّب الإسلام إلى قلوب المؤمنين الجهادَ في سبيل الله ، قال تعالى [٦٤] : ﴿ فَلْيُقاتِلْ في سَبيل اللهِ الَّذين يَشْرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا بالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتيهِ أجْرًا عَظيمًا ﴾ ؛ ولذلك نجد أن الشُّعراء - لأول مرة في ظلّ إيمانهم بالمعتَقَد الديني القويم - يمجّدون الجهادَ في سبيل الله ، إعلاء لكلمة الله عز وجل ومصداقًا لقوله تعالى [٦٥] : ﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المُؤْمِنينَ أنْفُسَهُمْ وَأمْوالَهُمْ بِأنَّ لَهُمُ الجَنَّة يُقاتِلونَ في سبيل الله فَيَقْتُلونَ وَيُقْتَلونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًا في التَّوْراةِ وَالإنْجيل وَالقُرْآن ، وَمَن أوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الَّذي بايَعْتُمْ بِهِ وذلك هُوَ الفَوْزُ العَظيم ﴾ . وهكذا هانت على الناس أرواحهم فخرجوا يجاهدون في سبيل الله ، ويجدّون في طلب الشهادة ، يحاربون أعداء الله ، وهم يعلمون أن في استشهادهم الفوز بأسمى المراتب والمنازل في الحياة الآخرة .

ولقد حَرَصَ الشُّعراء في رثائهم لمن استشهد على ذكر أجرهم الَّذي وعدهم الله وهو الجنة ، يقول حسان بن ثابت [٦٦] :

فَإنْ تَذْكُروا قَتْلى ، وَحَمْزَةُ فيهم ... قَتِيـلٌ ، ثَـوى للهِ و هـو مُطيـعُ
فَإنَّ جِنانَ الخُلْدِ مَنْزِلُهُ بِها ... وَأمْرُ الَّذي يَقضي الأمورَ سَريعُ
وَقَتْلاكُم في النّار أفْضَلُ رِزْقِهِمْ ... حَميمٌ مَعًا ، في جَوْفِها وَضَريع

ويردّد حسان هذه المعانيْ في حديثه عن شهداء المسلمين ، مصورًا حسن جزائهم جنة طيبة خالدين فيها مع الصالحين الأبرار . فهو يقول في رثاء خبيب بن عدي الأنصاري [٦٧] :

فَاذْهَبْ خَبيبُ جَزاكَ اللهُ طَيِّبَةً ... وجَنَّةَ الْخُلْدِ عِنْدَ الحورِ في الرُّفُقِ

ويقول فيه أيضًا [٦٨] :

صَبْرًا خَبيبُ فَإنَّ القَتْلَ مَكْرَمَةٌ ... إلى جِنانِ نَعيمٍ يَرْجِعُ النَّفَـــسُ

وحين يرثي الشُّعراءُ الشهداءَ فإنهم يفيضون في الحديث عن فوزهم برضوان الله عز وجل ، وفي أن الشّهادة راحة للمجاهد ، يدعوه الله ليخلد في الجنة ، فرحًا بما أنعم الله عليه : فحسان ابن ثابت يرثي حمزة بن عبد المطلب حين قدمت بنته المدينة تسأل عن قبر أبيها ومصرعه فيقول [٦٩] :

فَقُلْتُ لَها : إنَّ الشّهادَةَ راحَةٌ ورِضْوانُ رَبٍّ أُمام غَفورِ
فَإنَّ أباكِ الخير حَمْزَة فاعْلَمي وَزيرُ رَسولِ الله خَيْرُ وَزيرِ
دَعاهُ إلهُ الخَلْقِ ذو العَرْشِ دَعْوَةً إلى جَنَّةٍ يَرْضى بها وَسُرورِ
فَذَلِكَ ما كنا نُرَجّي وَنَرْتَجي لِحَمْزَة يَوْم الحَشْر خَيْر مَصيرِ

ويصوِّر عبد الله بن رواحة إيمانه القويَّ بأن الجهاد في سبيل الله هو غاية ما بعدها غاية ، ونراه يلهج بالدُّعاء لله عز وجل أن تأتيه في ميدان الجهاد طعنة نافذة تحقِّق حلمه الرشيد ، فهو يقول لأصحابه عندما توجَّه لغزو الروم في مؤتة بعد أن ودعوه قائلين : نسأل الله أن يردك سالمًا [٧٠] :

لَكِنّي أسألُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذاتَ فَرْعٍ تقذفُ الزَّبَدا
أوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرّان مُجْهِزَةٍ بِحَرْبَة تُنْفِذُ الأحشاءَ وَالكَبِدا
حَتّى يُقالَ إذا مَرّوا عَلى جَدَثي أرشده الله مِنْ غازٍ وَقَدْ رَشَدا

ونجده يحدِّث نفسه أن تختار الاستشهاد في سبيل الله ، فهو إن لم يقتل في سبيل الله سيلقى حتفه . يقول [٧١] :

يا نَفْسُ إلا تُقْتَلي تَموتي هذا حِمامُ المَوْتِ قَدْ صَليتِ
ما تَمَنَّيْتِ قَدْ أعْطيتِ إنْ تَفْعَلي فعلها هُديتِ

وهكذا نرى أن الشعراء قد استمدوا أفكارهم من المناهل التي تدور في دائرة إسلامية صِرْفة ، قوامها ما جاء في القرآن الكريم من آيات تحث على الجهاد في سبيل الله .

ولقد أوجد هذا الجهاد – الذي حاول البعض أن يردّ إليه انشغال العرب عن قول الشعر – آفاقًا جديدة أمام الشِّعر العربيّ ، فجرى على ألسنة المجاهدين سواء في غزواتهم الأولى أو في فتوحاتهم ، وتجلى في هذا الحنين رثاء النفس والأعضاء ، واحتسابها في سبيل الله ، كما سيتضح فيما بعد .

وخلاصة القول أنه شاعت بين المسلمين روح التسليم لله والرضا بقضائه ، فما دامت كل نفس ذائقة الموت فعليهم أن يتحلّوا بالصَّبْر امتثالاً لقوله تعالى [٧٢] : ﴿ وَبَشِّرِ الصّابِرينَ ، الَّذينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالوا إنّا لله وَإنّا إلَيْهِ راجِعون ، أولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأولَئِكَ هُمُ المُهْتَدون ﴾ .

وبهذه القيم الجديدة السّامية الَّتي جاءت في القرآن الكريم نجد أن الإسلام قضى على أفكار جاهلية كثيرة بكل ما طوي فيها من كهانة وسِحر وأساطير وخرافات . وبذلك ارتقى عقل الإنسان ، وأخذ يفكِّر ويمعن النظر في هذا الكون من حوله ، وعرف بعد تأمّل أنه لم يُخْلق عبثًا ، وأن الله الواحد الحيّ هو الَّذي دبَّره وأحكم نظامه ، وعرف أنه سيعرض على الله حتمًا يوم القيامة ، وأن خلود الإنسان في الدنيا مستحيل ، وإنما الخلود في الآخرة ، إما في الجنة أو النار ، حيث يُجْزَى كل إنسان بما قدَّمت يداه .

الفَصْلُ الثَّاني

شعر الرثاء في زمن النبوة

كثر شعر الرثاء في صدر الإسلام ، وخاصة أيام الصراع بين المسلمين والمشركين وأيام الفتوحات الإسلامية ، مما يوحي بأن الصراع كان عنيفًا آنذاك . فالرثاء يأخذ صوره وبواعثه من نتائج المعارك ، ومصارع القتلى ، حيث توجد المصائب وتكثر عند الهزيمة .

والرِّثاء في شعر الصراع والغزوات سجلّ حافل لأحاسيس الشعراء تجاه القتلى ، يسجلون انفعالاتهم الصادقة في ساعات الحزن والألم . وكان هذا الموقف يتطلّب من الشّاعر أن يظهر جَلَدَهُ وصبره على المحنة ، وأن يتحمل وقعَ المصيبة ؛ ومن ثم نرى هذا اللَّون من الشِّعر يقترن بالوعيد والتهديد للأعداء ، وتعييرهم بالهزائم التي ألحقت بهم ، ولم يتوقف شعر الرثاء بتوقّف القتال ، بل مضى يصوِّر ما بعد ذلك من أحداث .

كان شعراء قريش وشعراء القبائل الأخرى التي وقفت بجانبها يردّدون نفس المعاني الجاهلية في رثائهم لقتلاهم ، فأبرزوا في تأبينهم صور البطولة والشجاعة التي كان القتلى يتحلَّون بها في حياتهم ، وتحدثوا عن كرمهم و وفائهم وحِلمهم ، وسلك بعضهم سبيل الشرح والتفصيل لبعض جوانب حياة هؤلاء القتلى .

وليس غريبًا أن يصدر رثاء هؤلاء الشُّعراء على نفس الصّورة التي سار عليها شعر الرِّثاء في العصر الجاهلي ، فهم لم يقرّوا بالإسلام ، ولم يعترفوا بنبيّه ، بل رأوا في الدين الجديد تهديدًا لعقيدتهم الجاهلية ، وهكذا حافظ هؤلاء الشعراء على طابَع الشعر الجاهلي ، ولم يظهر أثر الإسلام في أفكارهم وعواطفهم .

أما شعر القبائل الأخرى فقد ظل معزولاً عن الحياة الإسلامية إلى حين ؛ لأنه كان بعيدًا عن أرض المعركة ، فلم يساهم فيها إلا بقدر يسير .

ومن أصدق الأمثلة على هذا بكاء الأسود بن عبد المطلب على بنيه الَّذين قتلوا يوم بدر ، وكانت قريش قد ناحت على قتلاها في هذا اليوم فقالوا : لا تفعلوا فيبلغ محمدًا وأصحابه فيشمتوا بكم ، وكان الأسود قد أصيب له ثلاثة من ولده ، وكان يحب أن يبكي عليهم ، وبينما هو كذلك ، إذ يسمع نائحة في الليل تبكي على بعير لها ، فاحترق جوفه ، وفاض حنينه ، وارتفع أنينه ، ثم لم يلبث أن انفجر باكيًا (١) :

أ تَبْكي أنْ يضلَّ لَها بَعيرٌ ... وَيَمْنَعها مِنَ النَّوْمِ السُّهودُ
فَلا تَبْكي عَلى بَكْرٍ وَلَكِنْ ... عَلى بَدْرٍ تَقاصَرَتِ الْحُدودُ
وَبَكّي إنْ بَكَيْت عَلى عَقيلٍ ... وَبَكّي حارِثًا أسَدَ الأسودِ (٢)
وبَكّيهِم ولا تُسَمّي جَميعًا ... وَما لِأبي حكيمَةَ مِنْ نَديدِ

وقد وقف كثير من الشعراء العرب مع قريش مثل أمية بن أبي الصلت ، الذي جعل يرثي قتلاها يوم بدر بمرثية افتتحها بقوله (٣) :

ألا بَكَيْت عَلى الكِـــرا ... مِ بن الكِرام أولى الممادح
كَبُكا الْحَمامِ عَلى فُــرو ... عِ الأيْكِ في الغُصنِ الجوانح
يَبْكينَ حَـرَّى مُسْتَكيــ ... ـناتٍ يَرُحْنَ مَعَ الرَّوائح
أمْثالَهُــنَّ الباكِيـــــا ... ت المعْولات مِنَ النَّوائح
مَنْ يَبْكِهِم يَبْكِ عَلــى ... حُزنٍ ويَصْدقُ كُلُّ مادح

وتفيض هذه القصيدة بذكر مآثر قريش ، ومنزلتها بين العرب ، ومعظمها ندب وبكاء حارّ على الذين قتلوا من سادة قريش في هذه الوقعة ، ورثى أمية أيضًا قتلى بني أسد الذين قتلوا في بدر فقال :

عَيْنُ بَكّي بالمسْبَلاتِ أبا الحا ... رث لا تَذْخَري عَلى زَمَعَةْ
وعقيــلَ بن أســودِ البـــأ ... س لِيَوْمِ الهياجِ والدَّفَعَةْ
فعَلى مثلِ هُلْكهم خَوَت الجو ... زاءُ لا خانةٌ ولا خَدَعةْ
وهم الأسرةُ الوسيطةُ مِنْ كعـ ... ـبٍ وفيهم كذِرْوة القَمَعةْ
أنبتوا مِن معاشِرٍ شَعْرَ الرأ ... سِ وهم ألحقوهمُ المَنَعَةْ
فبنو عَمِّهِم إذا حضر البَأ ... سُ عَلَيْهم أكبادُهُم وَجِعَةْ
وَهُم المطْعِمون إذ قَحَط القَطْـ ... ـــر وحالت فَلا ترى قَزَعَةْ

وهذه الأبيات لا تخرج في معناها ومضمونها عن معاني الرثاء في العصر الجاهلي .

وكان لمصرع كثير من الفرسان المشركين ببدر أثر كبير في كثرة شعر الرثاء الذي قيل في بكاء هؤلاء القتلى والحزن عليهم وتعديد مآثرهم وبطولاتهم . فعبد الله بن الزِّبَعْرَى يبكي قتلى بدر فيقول (٥) :

ماذا عَلى بَدْر وَماذا حَوْلَهُ ... مِنْ فِتْيَةٍ بيضِ الوُجوهِ كرامِ
تَرَكوا نَبيهًا خَلْفَهم وُمَنبِّهًا ... وَابْنَي ربيعة خَير خَصْمٍ فئامِ
والحارثَ الفَيّاضَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ ... كَالبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ الإظْلامِ
والعاصي بن مُنَبِّه ذا مِرَّة ... رمحًا تميمًا غَيْر ذي أوصامِ
تَنْمي بِهِ أعْراقُهُ وَجُدودُهُ ... وَمآثِرُ الأخْوالِ وَالأعْمامِ
وَإذا بَكى باكٍ فأعول شَجْوَهُ ... فَعَلى الرَّئيسِ الماجِدِ ابْنِ هِشامِ
حَيّا الإله أبا الوليد وَرَهْطَهُ ... رَبّ الأنامِ وَخَصّهم بِسَلامِ

ويعتبر افتقاد الزعيم السياسي كارثة عظيمة للقبيلة ؛ لأنهم يفتقدون فيه المدبر لأمورهم ، والمسيِّر لسياستهم ، والمدافع عن كيانهم ، وليس غريبًا أن يقف شاعرهم ليبكي هذا الزَّعيم ، ويدعو إلى الصبر على افتقاده ، ويحرِّض على الأخذ بثأره ، فضرار بن الخطاب عندما يرثي أبا جهل الذي قتل يوم بدر . يقول (٦) :

أ لا مَنْ لِعَيْنٍ باتَتِ اللَّيْلَ لَمْ تَنَمْ ... تُراقِبُ نَجْمًا في سَوادٍ مِنَ الظلم
كَأنَّ قَذًى فيها وَلَيْسَ بِها قَذى ... سِوى عَبْرَةٍ مِنْ جائِلِ الدَّمْعِ تَنْسَجِم
فَبلِّغْ قُرَيْشًا أنَّ خَيْرَ نَديِّها ... وأكرمَ مَنْ يمشي بِساقٍ عَلى قَدَم
ثَوى يَوْمَ بدر رهن خَوْصاءَ رَهْنها ... كَريم المساعي غيرُ وَغْدٍ ولا بَرَم
فآليتُ لا تَنْفَكّ عَيْني بِعَبْرَة ... عَلى هالِكٍ بَعْدَ الرَّئيسِ أبي الحَكم
عَلى هالِكٍ أشْجَى لُؤيَّ بن غالب ... أتته المنايا يَوْمَ بَدْرٍ فَلَمْ يَرِم
فَلا تجزعوا آلَ المغيرَةِ وَاصْبِروا ... عَلَيْهِ وَمَنْ يَجْزع عَلَيْهِ فَلَمْ يُلم
وَجِدّوا فَإنَّ المَوْتَ مَكْرُمَةٌ لَكُم ... وما بعده في آخِرِ العَيْشِ مِنْ نَدَم

وقد رثاه أخوه الحارث بن هشام بأبيات مفعمة باللهفة عليه والحزن لفراقه ، موضحًا مدى ألمه

وحسرته لأنه أصبح وحيدًا بعد فقده لأخيه ، ثم يعدّد مناقبه ومآثره الَّتي كان عليها أبو جهل في حياته ، فيقول (٧) :

ألا يا لَهْف نَفْسي بَعْدَ عَمْرو ... وَهَلْ يغني التَّلَهُّفُ مِنْ قَتيلِ
يُخَبِّرني المخَبِّرُ أنَّ عَمْرًا ... أمامَ القوم في جَفْرٍ مُحيلِ
فَقِدْمًا كُنْتُ أحسبُ ذاكَ حقّا ... وَأنْتَ لما تَقَدَّمَ غيرُ فِيلِ
وكنتُ بنعمةٍ ما دمتَ حَيّا ... فَقَدْ خُلِّفْتَ في دَرَجِ المَسيلِ
كَأنّي حينَ أمسي لا أراهُ ... ضَعيفُ العَقْدِ ذو هَمٍّ طَويلِ
عَلى عمرو إذا أمسيت يومًا ... وطَرْفٍ مِنْ تذكّره كليلِ

ويبكي الأعشى بن زرارة قتلى بني عبد الدّار يوم أحد فيقول (٨) :

حُيِّيَ من حَي على نأيِهِم ... بَنو أبي طَلْحة لا تُصْرَف
يَمُرُّ ساقيهم عَلَيْهم بها ... وكلُّ ساقٍ لَهُمْ يَعْرِف
لا جارُهمْ يشكو ولا ضيفُهمْ ... من دونه بابٌ لهم يَصْرِف

ولم تكن قريش وحدها التي حاربت الرسول ﷺ بالسيف واللسان ، فبعد فتح مكة نجد أن قريشًا قد دخلت في دين الله في حين كانت قبائل أخرى مستمرة في حربها للمسلمين ، مثل قبيلة هذيل وشاعرها أبي خراش الذي رثى زهير بن العجوة الهذلي بعد ما قتله جميل بن معمر الجمحي يوم حنين ، عندما وجده مربوطًا في أناس أخذهم أصحاب رسول الله . وفي ذلك يقول أبو خراش (٩) :

عجف أضْيافي جَميل بن مَعْمَرٍ ... بِذي فجر تأوي إلَيْهِ الأراملُ
طَويلُ نِجادِ السَّيْفِ لَيْسَ بجيدر ... إذا اهْتَزَّ واسْتَرْخَتْ عَلَيْهِ الحمائِلُ
تَكادُ يَداهُ تُسْلِمانِ إزارَهُ ... مِنَ الجودِ لما أذلقتْهُ الشَّمائِلُ
إلى بَيْتِهِ يأوي الضّريكُ إذا شتا ... ومُسْتَنْبح بالي الدريسينِ عائِلُ
تروح مَقْرورًا وَهَبَّتْ عشية ... لَها حدبٌ تحتثهُ فيوائِلُ
فَما بالُ أهْلِ الدّارِ لَمْ يَتَصَدَّعوا ... وَقَدْ بانَ مِنْها اللَّوْذَعِيُّ الحلاحِلُ

ونرى أبا خراش يضمِّن رثاءه نفس الخِلال التي رأيناها عند عرب الجاهلية ، والتي قلنا إنها

تتجسم في المروءة .

وقد اشترك في الرِّثاء أيضًا بعض شعراء اليهود ، وقفوا مع قريش يؤيدونها في حربها ضد المسلمين ، فكعب بن الأشرف يبكي أصحاب القليب من قريش الَّذين أصيبوا ببدر ، ويحرِّض على رسول الله ﷺ وينادي بأخذ ثأر أولئك الذين قتلهم أهل يثرب ؛ لأن الأخذ بالثأر من شيم ذوي الحسب الكريم ، فيقول (١٠) :

طَحَنَتْ رَحى بَدْرٍ لِمَهْلِك أهْلِهِ ... وَلِمِثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وَتَدْفَعُ
قُتِلَتْ سَراةُ النّاسِ حول حياضِهم ... لا تَبْعَدوا إنَّ الملوكَ تُصْرَعُ
كم قد أصِيبَ بِهِ من أبيضَ ماجدٍ ... ذي بَهْجة يأوي إلَيْهِ الضُيَّــعُ
طَلْق اليدين إذا الكواكِبُ أخلفتْ ... حَمّالُ أثقالٍ يَسودُ ويَرْبَــعُ
وَيَقولُ أقوامٌ أسَرُّ بسُخْطِهِمْ ... إن ابنَ الأشْرَفِ ظَلَّ كَعْبًا يَجْزَعُ
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلَّتْ تسوخ بِأهْلِها وتَصدعُ
صار الَّذي أثَرَ الحديثَ بطَعْنَةٍ ... أو عاشَ أعْمى مُرْعَشًا لا يَسْمَعُ
نُبِّئْتُ أن بَني المغيرَةِ كُلَّهُمْ ... خَشَعوا لِقَتْلِ أبي الحَكيمِ وجُدِّعوا
وابنا رَبيعَة عِنْدَهُ ومُنَبِّه ... ما نال مِثْلَ المهْلِكينَ وتُبَّــعُ
نُبِّئْتُ أن الحارِثَ بن هِشامِهِمْ ... في النّاسِ يبني الصّالحاتِ وَيَجْمَعُ
لِيَزورَ يَثْرِبَ بِالجُموعِ وإنَّما ... يَحْمي على الحَسَبِ الكَريمِ الأرْوَعُ

و واضح ما في هذه الأبيات من تأبين الشاعر للقتلى بجميع الفضائل الَّتي درج الشُّعراء على التفاخر بها بأسلوب يتضح فيه التفجُّع والتلهُّف ، ونعي الصفات التي كانوا يتصفون بها ، وكأنها ذهبت بذهابهم واندثرت بموتهم ، أضف إلى ذلك دعاء الشّاعر لهؤلاء القتلى بعبارة كانت تتردد كثيرًا في الشِّعر الجاهلي ، وهي قوله : « لا تبعدوا » ، وكأنه يريد أن يبقى ذكرهم ولا يذهب لأن بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته . و واضح أن اليهودية والوثنية كلاهما أعداء للإسلام ، وأن الدَّوافع التي دفعت الشّاعر اليهودي لمثل هذا الرِّثاء تكمن في معاداته للمسلمين ، فهو يريد أن يكسب أنصارًا ليزداد اليهود قوة ضدّ الإسلام .

أراد الشّاعر أن يعبِّر عن نفسية يهودية في تلك الفترة التي انطوت على الكراهية للمسلمين والحِقد عليهم ، فعمد إلى العرب الوثنيين يحرِّضهم على الانتقام والقتال بأن خلع عليهم صفات

العزة والمجد والشَّرف والكرم والحسب والنسب ، وأثار فيهم حَمِيَّة الأخذ بالثأر والقتال ، وبث فيهم روح الانتقام من المسلمين .

ولما قتل كعب بن الأشرف هذا رثاه سمّاك اليهودي - على طريقة الجاهليين أيضًا - ذاكرًا مكانته في قومه ، متوعدًا المسلمين بأنهم لن يستسلموا إلا بعد أن يقتلوا منهم رجالاً تنهش الطير أشلاءهم ، على نحو ما لاقوا من جيش أبي سفيان بن حرب في معركة أحد ، فيقول [١١] :

أرقْتُ وضَافَني همٌّ كَبير ... بلَيْلٍ غَيْرُهُ لَيْلٌ قَصيرُ
قَتَلْتُمْ سَيِّدَ الأحْبارِ كَعْبًا ... وَقِدَمًا كانَ يأمن مَنْ يُجيرُ
تَدَلَّى نَحْوَ مَحْمودٍ أخيهِ ... وَمَحْمودٌ سَريرَتُهُ الفُجورُ
فَغادَرَهُ كأنَّ دَمًا نَجيعًا ... يَسيلُ عَلى مَدارِعِهِ عَبيرُ
فَقَدْ وَأبيكُمْ وَأبي جَميعًا ... أصيبتْ إذْ أصيبَ بِهِ النَّضيرُ
فإنْ نَسْلَمْ لَكُمْ نَتْرُكْ رِجالاً ... بكعب حَوْلَهُمْ طَيْرٌ تَدورُ
كَأنهم عَتائِرُ يَوْمِ عيدٍ ... تُذْبَحُ وَهِيَ لَيْسَ لَها نَكيرُ
ببيضٍ لا تُليقُ لَهُنَّ عظيمًا ... صوافي الحَدِّ أكْثَرُها ذُكورُ
كَما لاقَيْتُمْ مِنْ بَأسِ صَخْرٍ ... بِأحُدٍ حَيْثُ لَيْسَ لَكُمْ نَصيرُ

وهكذا كان شعراء المشركين ومن ساندهم يرثون قتلاهم ، فهم لم يدخلوا الإسلام بعد ؛ ومن ثم لم تخرج مراثيهم عما كان مألوفًا في الشِّعر القديم ، فكل ما ورد فيها من معان وأفكار كانت تسير على النهج التقليدي المعروف ، لقد صوّروا الحزن والأسى الَّذي كان ينتاب النفوس ، كما ذكروا صفات المرثيّين وأعمالهم في حياتهم ، وسلوكهم ، ومعظم المراثي جاءت ناطقة باسم الجماعة في مجملها ، وبخاصة عند اليهود .

وهناك مراثٍ كثيرة في سيرة ابن هشام لشعراء قريش ومن حالفها يبكون فيها قتلاهم في شتى الغزوات والمناسبات ، وقد اكتفيت هنا بما ذكرت من أشعار لأن هذه المراثي كلَّها كانت تدور في فلك واحد ، هو الندب والبكاء ثم التأبين بذكر الصفات والمآثر ، كما سبق أن ذكرت .

أما شعراء المسلمين فتفيض سيرة ابن هشام أيضًا بمراثيهم [١٢] ، يبكون فيها الَّذين استشهدوا في المعارك والغزوات ، ولم يختلف رثاؤهم كثيرًا عن رثاء الشُّعراء المشركين في السَّنوات الأولى للصراع ؛ إذ لم يكن من اليسير أن تتغير مفاهيم الشِّعر وقِيَمه بين يوم وليلة ، فهذه القيم قد

رافقت الشعر أجيالاً طويلة ، ولم يكن من اليسير طرحها دفعة واحدة وإحلال قيم إسلامية جديدة محلها ، وإنما احتاج الأمر إلى وقت تتخلص فيه الحياة تدريجيًا من رواسب الماضي ، بحيث تتأصل هذه القيم الجديدة في النفوس رويدًا رويدًا .

ومن أصدق الأمثلة على ذلك شعر كعب بن مالك الذي يبكي فيه حمزة بن عبد المطلب ويعدِّد مآثره ومناقبه فيقول (١٣) :

وَلَقَدْ هُدِدْتُ لِفَقْدِ حَمْزَةَ هَدَّةً ... ظَلَّتْ بَناتُ الجَوْفِ مِنْها تُرْعِدُ
وَلَوْ أنَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءُ بِمِثْلِهِ ... لَرأيتُ رَأسي صَخْرِها يَتَبَدَّدُ
قَرْم تَمَكَّنَ في ذُؤابَةِ هاشِمِ ... حَيْثُ النُّبُوَّة وَالنَّدَى وَالسُّؤددُ
وَالعاقِرِ الكُومَ الجِلادَ إذا غَدَتْ ... ريحٌ يَكادُ الماءُ مِنْها يَجْمُدُ
وَالتّارك القِرْنَ الكَمِيَّ مُجَدَّلاً ... يَوْمَ الكَريهَةِ وَالقَنا يَتَقَصَّدُ
وَتَراهُ يَرْفُلُ في الحَديدِ كَأَنَّهُ ... ذو لِبْدَةٍ شَثْنُ البَراثِنِ أرْبَدُ
عَمّ النبيّ مُحَمَّدٍ وَصَفِيُّهُ ... ورَد الحِمامَ فَطابَ ذاك الموردُ
وأتى المنِيَّةَ مُعْلِمًا في أسرة ... نَصَروا النَّبيَّ وَمِنْهُم المسْتَشْهَدُ

فالشاعر لا يختلف في رثائه عن أي شاعر من شعراء الجاهلية يرثي سيدًا من سادات قومه ، فالشّجاعة والكرم والشَّرف كانت من أهم الصِّفات التي امتدحوها ، فهم يصفون الميت بجميع الفضائل التي يفاخرون بها بأسلوب يتضح فيه التفجُّع والتلهّف ، وينعون الصفات التي كان يتصف بها ، غير أننا نجد في البيتين الأخيرين إشارة للنبي ﷺ ورَهْطه الذين نصروه ، والذين استشهدوا في سبيل الله ، وهذه من الأفكار الدينية الجديدة التي جاء بها الإسلام .

أما عبد الله بن رواحة فيبكي حمزة ، ويذكر أن قتله مصيبة للرسول وللمسلمين جميعًا ، وأن جزاءه الجنة التي لا يفنى نعيمها ، ثم يعزي الهاشميين فيه ، ويدعو لهم بالصبر الجميل على هذا المصاب الجَلَل ، وأن في صبر رسول الله على ما ألمَّ بهم قدوة حسنة . يقول ابن رواحة (١٤) :

بَكَتْ عيني وحُقَّ لَها بُكاها ... وما يُغْني البكاءُ وَلا العَويلُ
على أسَدِ الإله غَداةَ قالوا ... أ حَمْزَةُ ذاكُمُ الرَّجُلُ القَتيلُ
أصيبَ المسْلِمونَ بِهِ جَميعًا ... هُناكَ وَقَدْ أصيبَ بِهِ الرَّسولُ
أبا يَعْلي لَكَ الأركان هُدَّتْ ... وَأَنْتَ الماجِدُ البَرُّ الوَصولُ

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ رَبِّكَ في جِنانٍ ... مُخالِطُها نَعيمٌ لا يَزولُ
ألا هاشِـمِ الأخيـار صَبْــرًا ... فَكُلُّ فعالكم حَسَن جميلُ
رَسول الله مُصْطَبِـر كَريـم ... بِأمْرِ الله يَنْطقُ إذْ يَقــولُ

وبعد أن يذكِّر هند بنت عتبة بمقتل أبيها وعمها وأخيها وابنها في بدر يقول لها :

ألا يا هِنْد فابْكي لا تَمَلّي ... فأنْتِ الوالِهُ العَبْرى الهبولُ
ألا يا هِنْدُ لا تبدي شماتًا ... بِحَمْـزَة إنَّ عِزَّكُـم ذَليـلُ

ويرثي حسان بن ثابت أيضًا حمزة بن عبد المطلب فيقول (١٥) :

دَعْ عَنْكَ دارًا قَدْ عَفا رَسْمُها ... وَابْكِ عَلى حَمْزة ذي النّائِلِ
المالئ الشِّيزَى إذا أعصفَتْ ... غبراءُ في ذي الشَّبِمِ الماحِلِ
وَالتّارِكِ القِرْنَ لَدَى لِبْدَةٍ ... يَعْثُرُ في ذي الخُرُصِ الذّابلِ
وَاللابس الخَيْلَ إذا أجْحَمَتْ ... كَاللَّيْثِ في غابَتِهِ الباسِـلِ
مالَ شَهيدًا بَيْنَ أسْيافِكم ... شُلَّتْ يَدا وَحْشِيٍّ مِنْ قاتِلِ
أظْلَمَتِ الأرْضُ لِفقدانِهِ ... وَاسْوَدَّ نورُ القَمَرِ النّاصِلِ
صَلّى عَلَيْهِ الله في جَنَّةٍ ... عالِيَــةٍ مُكْرَمَــة الدّاخِـلِ
كُنّا نَرى حَمْزَةَ حِرْزًا لَنا ... في كُلِّ أمـر نابَنـا نـازِلِ
وَكانَ في الإسْلامِ ذا تدرأ ... يَكْفيكَ فَقْدُ القاعِدِ الخاذِلِ

فحسان يغمره الحزن والأسى ، ويرى أنه لا فائدة من الوقوف على الأطلال والديار التي بليت ودرست وتغيّر رسمها ، ويطلب البكاء على حمزة ؛ لأنه كان كريمًا وقت الجدب والشدة ، شجاعًا قويًا عند لقاء الأعداء ، ويمكننا أن نحسّ أثر الإسلام في ألفاظ حسان ومعانيه من الأبيات الأخيرة أيضًا .

ولحسان بن ثابت كثير من المراثي التي قالها في مناسبات كثيرة وهي في رثاء شهداء المسلمين ، فهو يرثي خبيبًا بن عدي الذي أرسله النبي ﷺ مع نفر من المسلمين إلى نجد ليفقهوا النّاس بالدّين الجديد ، فغدر بهم وقتل بعضهم يوم الرَّجيع ، وأسر خبيبًا وأتباعه مشركو مكة ، ثم قتلوه ، فقال حسان (١٦) :

ما بالُ عَيْنَيْكَ لا ترقا مَدامعها ... سَحًا على الصَّدْرِ مِثل اللُّؤْلُؤِ القَلِقِ
عَلى خبيبٍ فَتى الفِتْيانِ قَدْ عَلِموا ... لا فَشِلٍ حينَ تَلْقاهُ وَلا نَزِقِ
فَاذْهَبْ خبيبُ جَزاكَ الله طَيِّبَةً ... وَجَنَّةَ الخُلْدِ عِنْدَ الحورِ في الرُّفُقِ
ماذا تَقولونَ إن قالَ النَّبِيُّ لَكُمْ ... حينَ الملائكة الأبرار في الأفُقِ
فيمَ قَتَلْتُمْ شَهيدَ الله في رَجلٍ ... طاغٍ قَدْ أوْعَثَ في البُلدانِ والرُّفَقِ

وهذه الصورة تعبِّر عن تأثر حسان بالإسلام ، فالجنة والحور والملائكة والنبي والشهيد كلها كلمات إسلامية ، بدأت تظهر في شعر شعراء المسلمين ، وكذلك المعاني والأفكار التي استعان بها الشّاعر في رسم هذه الصورة ، نجدها مستمدة من الدّين ، فقوله :

فَاذْهَبْ خَبيْبُ جَزاكَ الله طَيِّبَةً ... وَجَنَّةَ الخُلْدِ عِنْدَ الحورِ في الرُّفُقِ

مستمد من قوله تعالى : ﴿ يا أيَّتُها النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ ارْجعي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّة ، فادْخُلي في عِبادي ، وَادْخُلي جَنَّتي ﴾ .

ولخبيب نفسه أبيات قالها قبيل أن يقتله المشركون ، تفيض لوعة وأسًى على ما ناله من التعذيب ، وكيف أنهم جمعوا رجالهم ونساءهم وأطفالهم ليشاهدوا مصرعه ، ولكنه رغم ذلك كلِّه كان صابرًا ، ثابت النفس ، رابط الجأش ، لا يرهب الموت ما دام في سبيل الله ، وأنه لولا قوة إيمانه وثبوت عقيدته في نفسه لخاف وجزع ولساومهم في فك أسْرِهِ ، ولكنه - المؤمن القوي الصادق - يؤمن أنه لا محالة ميت ، وأن مرجعه إلى الله سبحانه وتعالى . يقول خبيب(١٧) :

لَقَدْ جَمَّعَ الأحْزابُ حَوْلي وَألَّبوا ... قَبائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعوا كُلَّ مَجْمَعِ
وَكُلُّهُمْ مُبْدي العَداوةِ جاهِدٌ ... عَليَّ لأنّي في وِثاقٍ بِمَصْيَعِ
وَقَدْ جَمَعوا أبناءَهُمْ وَنساءَهُمْ ... وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَويلٍ مُمَنَّعِ
إلى اللهِ أشْكو غُرْبَتي ثُمَّ كُرْبَتي ... وما أرْصَدَ الأحزابُ لي عِنْدَ مَصْرَعي
فَذا العَرْشِ ، صَبِّرْني عَلى ما يُرادُ بي ... فَقَدْ بَضَّعوا لَحْمي وَقَدْ ياسَ مَطْمَعي
وَذلكَ في ذاتِ الإلهِ وَإن يَشَأْ ... يُبارِكْ عَلى أوصال شِلو مُمَزَّعِ
وَقَدْ خَيَّروني الكُفْرَ وَالمَوْتُ دونَهُ ... وقد هَمَلَتْ عَيْناي مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
وما بي حِذارُ المَوْتِ ، إنّي لَميِّتٌ ... وَلكن حِذارى جَحيم نار مُلَفَّعِ
فَوالله ما أرْجو إذا متّ مُسْلِمًا ... عَلى أيِّ جَنْبٍ كانَ في اللهِ مَصْرَعي
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخَشُّعًا ... وَلا جَزَعًا ، إنّي إلى الله مَرْجِعي

والأبيات تفيض بقوة الإيمان ، وثبات العقيدة ، وحبّ الشهادة ، والخوف من النار ، والصبر على الشدائد . وهذه الأبيات تذكّرنا بأبيات قالها عبد يغوث بن وقاص قبل أن يقتله بنو تميم ، وكان ذلك بعد أن أسروه في معركة الكلاب الثاني ، ولم يقبلوا منه فدية فشدّوا لسانه بنسعة لئلا يهجوهم ، ثم أطلقوا لسانه ، وقطعوا عرقه ، ومطلعها :

ألا لا تَلوماني كَفى اللَّوْم ما بِيا وَما لَكُما في اللَّوْمِ خَيْرٌ وَلا لِيا

وفيها يفخر بنفسه وبشجاعته وبراعته في الطعن والقتال ، ثم بكرمه ، ولا يكاد يشير إلى الموت في أبياته ولا يصرّح بذكره . والفرق واضحٌ بين شاعر لا يؤمن بالله واليوم الآخر والثواب والعقاب ، فلا هدف له إلا الإشادة بخصاله وأفعاله ، وهذا هو الخلود في تفكيرهم . أما خبيب المؤمن بلقاء ربه في الآخرة فلم يتحدث عن نفسه ، وإنما تحدَّث عن مشاعره ، فهو زاهد في الدنيا لأنه لا محالة ميِّت ، ولم يرهب الموت ولم يعرض عليهم فدية ، بل هم الذين عرضوا عليه ، وخيَّروه الكفر أو الموت ، فقبل الموت في سبيل الله صابرًا محتسبًا (١٨) .

وإذا كان خبيب قد استشهد دون قتال أو معركة ، فهناك شهداء آخرون أيضًا استشهدوا ولم يكونوا في ساحة حرب . هؤلاء هم شهداء بئر معونة الذين غدر بهم حارسهم وخانهم ، ولم تراع لهم ذمة ولا موثق أعطوه رسول الله ﷺ . ويرثي حسان بن ثابت هؤلاء الشهداء معلنًا للناس أنهم لم يكونوا في ميدان المعركة ، وإلا لرأى الأعداء منهم شجاعة ومقاومة فيقول (١٩) :

عَلى قَتْلى مَعونَةَ فاسْتَهلّي بِدَمْعِ العَيْنِ سَحّا غَيْر نَزْرِ
عَلى خَيْلِ الرَّسولِ غَداةَ لاقَوْا مَناياهُم ولاقَتْهم بِقَدْرِ
أصابَهُمُ الفَناءُ بِعَقْدِ قَوْم تُخُوِّنَ عَقْدُ حَبْلِهِمْ بِغَدْرِ
فيا لهفي لِمُنْذِرِ إذ تَوَلّى وَأعْنَقَ في مَنِيَّتِه بِصَبْرِ
وَكائن قَدْ أصيبَ غَداةَ ذاكُمْ مِنْ أبيض ماجِدٍ مِنْ سرّ عمرو

ولا تخلو وقعة التحم فيها المسلمون مع الكفار من هذا الرثاء ، حيث يسقط القتلى من الفريقين ، فهذا كعب بن مالك يرثي عبيدة بن الحارث الذي استشهد في موقعة بدر أثناء حربه للمشركين فيقول (٢٠) :

أ يا عَيْن جودي وَلا تَبْخَلي — بدَمْعِك حَقًا وَلا تَنْزُري
عَلى سَيِّدٍ هَدَّنا هلْكُهُ — كَريمِ المشاهِدِ وَالعُنْصُرِ
جريءِ المقدَّمِ شاكي السِّلاحِ — كَريمِ النَّثا طَيِّبِ المَكْسِرِ
عُبَيْدة أمْسى ولا نَرْتَجيه — لِعُرْفٍ عَرانا وَلا مُنْكَرِ
وَقَدْ كانَ يحمي غَداةَ القتا — لِ حاميَةَ الجَيْشِ بالمِبْتَرِ

فالشّاعر يردِّد ما كان يدور من معان في الرِّثاء الجاهلي ، فالمرثي كان سيداً في قومه يستحق أن تبكيه العين وتذرف من أجله الدَّمع الغزير ؛ لأنه كريم الأصل ، يحمي قومه بسيفه الذي يبتر كل من سولت له نفسه الاعتداء عليهم . ويرثي كعب قتلى مؤتة ، فيقول (٢١) :

نامَ العُيونُ وَدَمْعُ عَيْنِكَ يَهْمُلُ — سحًا كَما وَكَفَ الطِّبابُ المُخْضَلُ
في لَيْلَةٍ وَرَدَتْ عَلَيَّ هُمومُها — طورًا أحِنُّ وَتارَةً أتَمَلْمَلُ
وَاعتادني حُزْنٌ فَبِتّ كأنَّني — بِبَناتِ نَعْشٍ وَالسِّماكِ مُوَكَّلُ
وَكأنَّما بَيْنَ الجوانحِ والحَشَى — مِمّا تَأوَّبَني شِهابٌ مُدْخَلُ
وَجْدًا عَلى النَّفرِ الَّذينَ تَتَابَعوا — يَوْمًا بمؤتة أسْندوا لَمْ يُنْقَلوا
صَلَّى الإله عَلَيْهِمْ مِنْ فِتْيَةٍ — وَسَقى عِظامَهُمُ الغَمامُ المسْبلُ
صَبَروا بمؤتة للإلهِ نُفوسُهُمْ — حَذَرَ الرَّدى وَمَخافَةً أنْ يَنْكُلوا
فَمَضوا أمامَ المسلمينَ كأنَّهُمُ — فُنُقٌ عَلَيْهِنَّ الحَديدُ المرْفَلُ
قَوْمٌ بِهِمْ عَصَمَ الإلَهُ عِبادَهُ — وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الكِتابُ المُنَزَّلُ
فَضَلوا المعاشِرَ عِزَّةً وَتَكَرُّمًا — وَتَغَمَّدَتْ أحلامُهُمْ مَنْ يَجْهَلُ
لا يُطْلِقون إلى السَّفاهِ حُباهُمُ — وَيُرى خَطيبُهُمْ بحَقٍّ يَفْصِلُ
بيضُ الوجوهِ تَرى بُطونَ أكفِّهِمْ — تَنْدى إذا اعتذرَ الزَّمانُ المحْلُ
وَبِهَدْيِهِم رَضِيَ الإلَهُ لِخَلْقِهِ — وَبجَدِّهِمْ نُصِرَ النَّبِيُّ المرْسَلُ

فهؤلاء الأبطال الذين استشهدوا ودافعوا وثبتوا للعدو وقاتلوا وقتلوا ، كان الواحد منهم يحرص على الموت حتى توهب له الحياة الباقية عند الله .

ويردّد حسان بن ثابت مثل هذه المعاني في بكاء زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، وهما من شهداء مؤتة ، فيقول (٢٢) :

عين جودي بِدَمْعِكِ المنزورِ وَاذْكُري في الرَّخاءِ أهْلَ القُبورِ
وَاذْكُري مؤتة وَما كانَ فيها يَوْمَ راحوا في وَقْعَةِ التغويرِ
حينَ راحوا وَغادَروا ثَمَّ زَيْدًا نِعْمَ مأوى الضَّريكِ وَالمأسورِ
إنَّ زَيْدًا قَدْ كانَ مِنّا بِأمْرٍ لَيْسَ أمْرَ المكَذَّبِ المَغْرورِ
ثُمَّ جودي لِلْخَزْرَجِيِّ بِدَمْعٍ سَيِّدًا كانَ ثَمَّ غَيْرَ نَزورِ
قَدْ أتانا مِنْ قَتْلِهِمْ ما كَفانا فَبِحُزْنٍ نَبيتِ غَيْرِ سُرورِ

فحسان يصوِّر مدى حزنه على قتلى مؤتة وعلى قتل زيد وعبد الله ، فقد كانا سيدين كريمين كثيري العطاء ، فهو يبكي حتى قلّ دمعه ، ولكنه يأمر عينه أن تجود بذلك القليل على ما هو عليه.

و وقف حسان أيضًا يرثي شهداءَ المسلمين في معارك بني قُرَيْظَة ، عندما قتل اليهود سعد بن معاذ وبعض صحابة رسول الله ﷺ ، فقال [٢٣] :

ألا يا قَوْمي هَلْ لِما حُمّ دافعُ وهل ما مضى مِنْ صالح العيشِ راجعُ
تَذَكَّرْتُ عَصْرًا قَدْ مَضى فَتَهافَتَتْ بَناتُ الحَشَى وَانْهَلَّ مِنّي المدامِعُ
صَبابَةُ وَجْدٍ ذَكَّرَتْني أحِبَّةً وَقَتْلى مَضى فيها طُفَيْلُ وَرافِعُ
وَسَعْدٌ فأضْحَوا في الجِنانِ وَأوْحَشَتْ مَنازِلُهم فَالأرْضُ مِنْهُم بَلاقِعُ
وَفَوْا يَوْمَ بَدْرٍ لِلرَّسولِ وَفَوْقَهُمْ ظِلالُ المَنايا وَالسُّيوفُ اللَّوامِعُ
دَعا فَأجابوهُ بِحَقٍّ وَكُلُّهُمْ مُطيعٌ لَهُ في كُلِّ أمْرٍ وَسامِعُ
فَما نَكَلوا حَتّى تَوَلَّوْا جَماعَةً وَلا يَقْطَعُ الآجالَ إلا المصارِعُ
لأنَّهُمْ يَرْجونَ مِنْهُ شَفاعَةً إذا لَمْ يكن إلا النَّبِيّونَ شافِعُ
فذلكَ يا خَيْرَ العِبادِ بَلاؤُنا إجابَتُنا للهِ وَالمَوْتُ ناقِعُ
لَنا القَدَمُ الأولى إليك وَخَلْفَنا لأوَّلِنا في مِلَّةِ اللهِ تابِعُ
وَنَعْلَمُ أنَّ المُلْكَ للهِ وَحْدَهُ وَأنَّ قَضاءَ الله لا بُدَّ واقِعُ

فالشّاعر يهدئ من روع القوم بتصوير مصير الشُّهداء في جنات النعيم ، ويعبِّر عن رضاه بقضاء الله وقدره وإظهار أن الموت حق . وهو متأثر في معانيه وأفكاره بكثير من آيات القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْت ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أيْنَما تَكونوا يُدْرِكْكُمُ

المَوْتُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أجَلٍ كِتاب ﴾ وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلا وَجْهَه ﴾ وقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْها فان . وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجَلالِ وَالإكرام ﴾ ، كل هذا تعزية للنفوس الحزينة ودعوة للصبر ، فلا جزع ولا قنوط من رحمة الله .

وحين نتعقب شعر الرثاء في هذه الفترة ، نجد فيه خيوطًا إسلامية تظهر في نسيجه من حين إلى حين ، فقد تناول الشِّعر الإسلامي معانيَ دينية لم يتناولها الشِّعر القديم ، واستخدم ألفاظًا لم يذكرها الشُّعراء من قبل ، ولكن تأثر الشِّعر في ذلك الوقت بالإسلام يختلف من شاعر إلى آخر ، فشعراء المدينة قد تأثروا بالمفاهيم الإسلامية الجديدة ؛ لأنهم عاشوا في بيئة تطبِّق أحكام الدين الجديد ، تحت رعاية النبي وتوجيهه ، فنجدهم يتحدثون في مراثيهم عن المجد والتَّقوى والإيمان والخير والبِرّ ، والوفاء والرحمة والهداية والنقاء ، وبهذه المآثر الكريمة والمناقب الأصيلة رثى الشُّعراء الرسول ﷺ عندما انتقل إلى الملأ الأعلى .

كان فقدُ الرسول الكريم قمة الحزن عند المسلمين ، وفزع الناس لهذا النبأ المفجع ، حتى إن عمر بن الخطاب لم يصدق بادئ الأمر ، لولا أن أبا بكر ردّه إلى صوابه وتلا عليه قوله تعالى : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنَّهُمْ ميتون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أ فئِنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْس ذائِقَة الموت ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَما مُحَمَّدٌ إلا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل ﴾ ، فبدأت السكينة تنزل عليه ، وثاب إلى رشده - وخرجت المدينة تشيع رسول الله إلى مثواه الأخير ، ويعلو البكاء في كل الأرجاء ، وتشتعل النيران في القلوب حزنًا وألمًا على فراق الحبيب المصطفى .

ويرتفع صوت الشِّعر ليصوِّر هول ذلك اليوم ويعبِّر عن لوعة المسلمين وجزع أفئدتهم بهذا المصاب الجلَل ، فبادروا إلى رثائه والتفجُّع عليه بشِعر كثير ، وكان الأنصار أسرع الناس إلى بكاء نبيهم ، كما كانوا أسرع النّاس إلى نُصرته والدِّفاع عنه .

فحسان بن ثابت يرثيه في قصائد متنوِّعة يصب فيها لوعته و وجده ، ويبكيه بعبارات مشجية وألفاظ محزنة مليئة بالحسرة والألم على فقدهم له ، فيقول [٢٤] :

ما بالُ عَيْنِكَ لا تَنامُ كَأَنَّما ... كُحِلَتْ مآقيها بكُحْلِ الأرْمَدِ
جَزَعًا عَلى المَهْديِّ أصبَحَ ثاوِيًا ... يا خَيْرَ مَنْ وطِئَ الحَصى لا تَبْعَدِ
وَجْهي يَقيكَ التُّربَ لَهفي لَيْتَني ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ في بَقيعِ الغَرْقَدِ
بِأبي وأمي مَنْ شَهِدْتُ وَفاتَهُ ... في يَوْمِ الاثْنَيْنِ النَّبيُّ المهْتَدي

فظَلِلْتُ بَعْدَ وَفاتِهِ مُتَبَلِّدًا   مُتَلَدِّدًا يا ليتني لَمْ أولَدِ
أ أقيمُ بَعْدَكَ بالمدينةِ بَيْنَهُمْ   يا لَيْتَني صُبِّحْتُ سُمَّ الأسْوَدِ
أوْ حَلَّ أمْرُ اللهِ فينا عاجلاً   في رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنا أوْ مِنْ غَدِ
فَتَقومُ ساعَتُنا فَنَلْقى طَيِّبًا   مَحْضًا ضَرائِبُهُ كَريمَ المحْتِدِ
يا رَبِّ فاجْمَعْنا مَعًا وَنَبِيَّنا   في جَنَّةٍ تَثْني عُيونَ الحُسَّدِ
في جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ فاكتُبْها لَنا   يا ذا الجَلالِ وَذا العلا وَالسّودَدِ
والله أسْمَعُ ما بَقيتُ بهالكٍ   إلا بَكَيْتُ عَلى النَّبيِّ مُحَمَّدِ
يا وَيْحَ أنْصارِ النَّبيِّ وَرَهْطِهِ   بَعْدَ المغَيَّبِ في سَواءِ المَلْحَدِ

والشاعر في هذه الأبيات ينقل إلينا إحساسه بفداحة المصيبة التي حلَّت بالمسلمين وبخاصة الأنصار ، فهو يتمنى ألا يعيش بعد وفاة الرسول ، راجيًا أن يوافيه أجله حتى يلقى رسول الله ﷺ في جنة الخلد ، وكأنه كان يعبِّر عما يدور في خَلَد المسلمين في هذه اللحظة بكل ما فيها من جزع وترقّب بعد فقدهم لرسولهم وقائد مسيرتهم ومنشئ دولتهم .

ولحسان قصيدة أخرى طويلة يرثي فيها النبيَّ ﷺ مطلعها [٢٥] .

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسولِ وَمَعْهَدٌ   مُنيرٌ وَقَدْ تَعْفوالرُّسومُ وَتَهْمُدُ
وَلا تَنْمَحي الآياتُ مِنْ دارِ حُرْمَةٍ   بِها مِنْبَرُ الهادي الَّذي كانَ يَصْعَدُ
و واضح آثارٍ وَباقي مَعالِمٍ   وَرَبْعٌ لَهُ فيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
بِها حُجُراتٌ كانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا   مِنَ اللهِ نورٌ يُسْتَضاءُ وَيوقَدُ

فهو يذكر مواطن الرسول : مسجده ، ومصلاه ، ومنبره ، وبيته ومهبط الوحي ، ثم يمضي في القصيد مؤبنًا رسول الله ﷺ بصفات كثيرة منها البرّ والعدل والتقوى والنور والضياء والعفو والكرم والشرف ، فيقول [٢٦] :

إمامٌ لَهُمْ يَهْديهِمُ الحَقَّ جاهدًا   مُعَلِّمُ صدْقٍ إن يُطيعوهُ يَسْعَدوا
عَفُوٌ عَنِ الزَّلاتِ يَقْبلُ عُذْرَهُمْ   وَإنْ يُحْسِنوا فَاللهُ بِالخَيْرِ أجْوَدُ
وَإن نابَ أمرٌ لَمْ يَقوموا بِحَمْلِهِ   فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسيرُ ما يتشَدَّدُ
فَبَيْنا هُمْ في نِعْمَةِ اللهِ بَيْنَهُمْ   دَليلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّريقَةِ يُقْصَدُ
عَزيزٌ عَلَيْهِ أن يَجوروا عَنِ الهُدى   حَريصٌ عَلى أنْ يَسْتَقيموا ويهتد

عَطوفٌ عَلَيْهِمْ لا يُثْني جَناحَهُ ... إلى كَنَفٍ يَحْنو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ
فَبَيْنا هُمْ في ذَلِكَ النّورِ إذْ غَدا ... إلى نورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الموْتِ مُقْصِدُ
فَأصبَحَ مَحْمودًا إلى الله راجِعًا ... يَبْكيهِ حقّ الْمرسَلات وَيُحْمَدُ
وَأمْسَتْ بِلادُ الحَرَمِ وَحْشًا بِقاعُها ... لِغَيْبَة ما كانَتْ مِنَ الوَحْي تَعْهَدُ

والملاحظ هنا أن المعنى الدينيّ بدأ يتضح كثيرًا عند حسان فقد أخذ من القرآن الكريم معنى الآية . ﴿ لَقَدْ جاءَكُمْ رَسولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتّم حَريصٌ عَلَيْكُمْ بِالمؤْمِنينَ رَءوفٌ رَحيم ﴾ [٢٧] .

ويعتصر الألم حسان بن ثابت فيدعو عينه مرة أخرى للبكاء حزنًا وجزعًا على فقده للرسول الذي لا يوجد في الدهر مثله فيقول (٢٧- أ) :

فَبَكّي رَسولَ اللهِ يا عَيْنُ عَبْرَةً ... وَلا أعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ يَجْمَدُ
وما لكِ لا تَبْكينَ ذا النِّعْمَةِ الَّتي ... عَلى النّاسِ مِنْها سابِغٌ يَتَغمَّدُ
فَجودي عَلَيْهِ بِالدُّموعِ وَأعْولي ... لِفَقْدِ الَّذي لا مِثْلُهُ الدَّهْرَ يوجَدُ
وَما فَقَدَ الماضونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... وَلا مِثْلُهُ حَتّى القِيامَةِ يُفْقَدُ
أعَفَّ وَ أوْفى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ ... وَأقْرَبَ مِنْهُ نائِلاً لا يُنْكَدُ
وَأبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّريفِ وَتالِدٍ ... إذا ضَنَّ مِعْطاءٌ بِما كانَ يُتْلَدُ
وَأكْرَمَ صيتًا في البُيوتِ إذا انْتَمى ... وَأكْرَمَ جَدًّا أبْطَحِيًّا يُسَوَّدُ
وَأمْنَعَ ذِرْوات وَأثْبَتَ في العُلا ... دَعائِمَ عِزّ شاهِقاتٍ تُشَيَّدُ
وأثبتَ فَرْعًا في الفُروعِ وَمَنْبِتًا ... وَعودًا غَذاهُ المزْنُ فَالعودُ أغْيَدُ

ويرثي حسان رسول الله ﷺ في أبيات حزينة أخرى فيصفه بصفاته ، ويذكر حاله وفقره بعده ، ثم يصف نساء النبي وما أصابهن من حزن وبؤس بعد انتقاله للرفيق الأعلى ، فيقول [٢٨] :

تاللهِ ما حَمَلَتْ أنْثى وَلا وَضَعَتْ ... مِثْلَ الرَّسولِ نَبِيِّ الأمَّةِ الهادي
وَلا بَرا الله خَلْقًا مِنْ بَرِيَّتِهِ ... أوْفى بِذِمَّةِ جارٍ أوْ بِميعادِ
مِنَ الَّذي كانَ فينا يُسْتَضاءُ بِهِ ... مُبارَكَ الأمْرِ ذا عَدْلٍ وَإرْشادِ
أمْسى نِساؤكَ عَطَّلْنَ البُيوتَ فَما ... يَضْرِبْنَ فَوْقَ قَفا سِترٍ بِأوتادِ
مِثْلَ الرَّواهِبِ يَلْبَسْنَ المباذِلَ قَدْ ... أيْقَنَّ بِالبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ البادي
يا أفْضَلَ النّاسِ إنّي كُنْتُ في نَهَرٍ ... أصْبَحْتُ مِنْهُ كَمِثْلِ المفْرَدِ الصّادي

أما كعب بن مالك فقد قلَّ رثاؤه للنبي ﷺ وكأن المصيبة قد عقدت لسانه فكادت تصيب شاعريته بالجفاف ، ولكنه رثاه على كل حال فقال :

يا عَيْن فَابْكي لِدَمْع ذرى ... لِخَيْرِ البَرِيَّـةِ والمصْطَفَى
وبَكّي الرَّسولَ وحُقَّ البُكا ... عَلَيْهِ لَدى الحرْبِ عِنْدَ اللّقا
عَلى خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ ناقَةٌ ... وأتْقى البَرِيَّةِ عِنْدَ التُّقى
عَلى سَيِّدٍ ماجِدٍ جَحْفَلٍ ... وخَيْرِ الأنامِ وخَيْرِ اللّها

إلى أن يقول :

نخصُّ بِما كانَ مِنْ فَضْلِهِ ... وَكان سِراجًا لَنا في الدُّجَى
وَكان بَشيرًا لَنا مُنْذِرًا ... ونورًا لنا ضَوْؤُهُ قَدْ أضَا
فأنْقذنا اللهُ في نورِهِ ... وَنَجَّى بِرَحْمَتِهِ مِنْ لَظَى

ويظهر في البيتين الأخيرين أثر الإسلام في شعر كعب ، فالله سبحانه وتعالى قد أرسل رسوله للناس ﴿ مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﴾ وقد بكى الرسول ﷺ أيضًا بعض شعراء القبائل الذين أسلموا ، فهذا عامر بن الطفيل الأزدي يصوِّر وقع المصيبة على نفسه فيقول [٣٠] :

بَكَتِ الأرْضُ وَالسَّماءُ عَلى ... النّورِ الَّذي كانَ لِلْعبادِ سِراجا
مَنْ هُدينا بِهِ إلى سُبُلِ الحَقِّ ... وَكُنّا لا نَعْرِفُ المِنْهاجا

وهو يتناول نفس المعاني التي تناولها كعب بن مالك من قبل . أما أبو ذؤيب الهذلي فقد عبَّر عن أساه بقوله [٣١] :

لَمّا رَأيْتُ النّاسَ في عسلاتِهم ... ما بَيْنَ مَلْحودٍ لَهُ ومضرحِ
فَهُنالِكَ صِرْتُ إلى الهُمومِ وَمَنْ يَبِتْ ... جارَ الهُمومِ يبيت غَيْر مروحِ
كُسِفَتْ لِمَصْرَعِهِ النُّجومُ وَبَدْرُها ... وَتَزَعْزَعَتْ آطامُ بَطْنِ الأبطحِ
وَتَزَعْزَعَتْ أجْبالُ يَثْرِبَ كُلّها ... وَنَخيلُها لِحلولِ خَطْبٍ مُفدَحِ

وقد ورد رثاء كثير في النبي ﷺ في دواوين الحماسة الّتي بين أيدينا ، منه على سبيل المثال ما ورد في الحماسة البصرية قول شاعر يقال له عبد الله بن أنيس [٣٢] :

نقي اليوم ما لا تعتليه الأضالع وخَطْب جَليل للخلائِق فاجمع
غداة نعى النّاعي إلَيْنا مُحَمَّدًا وَتِلْكَ الَّتي تَسْتَكُّ مِنْها المَسامِع
فوالله لا آسى عَلى هلكِ هالِكٍ مِنَ النّاسِ ما أرسى كبير وفارِع

والحماسية الّتي بعدها – وهما ليستا في الحماسات الأخرى – لعمرو بن سالم الخزاعي في رثاء الرسول ﷺ أيضًا فيقول [٣٣] :

لَعَمْري لَئِنْ جادَتْ لَكَ العينُ بِالبُكاء لمحقوقة أنْ تستهلَّ وتدمعا
فيا حَفْص إنَّ الأمْرَ جَلَّ عَنِ البُكا غَدَاةَ نَعى النّاعي النَّبِيَّ فأسْمَعا
فواللهِ ما أنساهُ ما دُمْتُ ذاكِرًا لِشَيْء وما قلبتُ كَفا وإصْبَعا

ويلاحظ أن هذا الرثاء يصورِّ هول الفجيعة التي عمّت المسلمين بوفاته عليه السلام ، والتي كانت أجلَّ من البكاء ، وكأنهم لم يصدّقوا موته ؛ ولذلك لم يتطرق الشّاعران إلى أوصاف الرسول ؛ لأن المقام هنا ندب وبكاء وليس تأبينًا بذكر الصِّفات .

كانت وفاة الرسول ﷺ حافزًا لأن ينشط شعر الرِّثاء ، وكان الشعر الَّذي قيل فيه حزن وجزع و وصف للفجيعة التَّي نزلت بالمسلمين ، إلا أن ذلك الشِّعر – رغم صدقه ولوعته – ما كان ليرقى إلى مقام الرسول الكريم ، ولعل مرجع ذلك أن المصيبة كانت أكبر من أن يصوِّرها الشِّعر أو تتحملها النفوس ، والقرائح عادة لا تجيد التعبير المبدع وقت المصائب .

وهكذا نلاحظ أن ما رثِيَ به الرسول ﷺ من شعر لم يكن ليعبِّر عن القيم والمبادئ الدينية على الوجه المرجوِّ من شعراء الرسول ؛ ذلك لأن الشعراء لم يكونوا ليدركوا المبادئ والقيم الدينية التي جاء بها الإسلام إدراكًا عميقًا بحيث تؤثر في سلوكهم ونظرتهم للحياة وللشعر ، ومن ثم وجدنا أثر الدين في شعرهم مقصورًا على استعمال ألفاظ وعبارات دينية ، أو ذكر أحداث ومناسبات إسلامية ، أو تضمين آيات قرآنية ، مرّ بها الشعراء مرورًا سريعًا في بيت أو أبيات قليلة . وكل هذا لا يدخل في الإبداع والابتكار لمعان مستوحاة من هدي الإسلام وتعاليمه ، وكان من المرجوّ أن يفيد الشعراء من أسلوب القرآن في القصص والحكم والأمثال والوعد والوعيد ، وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم .

ومن الملاحظ كذلك أن الشِّعر الإسلاميّ في هذه الفترة قد ضعف وذلك بسبب حداثة

الشّاعرية القرشية ، فلم تشتهر قبيلة قريش في الجاهلية بقول الشعر ، ولم يعرف فيها شعراء فحول ، وإنما ظهر الشعر فيهم بعد الإسلام لضرورة أوجدتها الحوادث الَّتي دارت بين المشركين والمسلمين وقتئذ . أضف إلى ذلك أن الشُّعراء الَّذين دخلوا الإسلام - كحسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة - قد اقتحموا أغراضًا جديدة في ظل الإسلام ، وهذه الأغراض كانت تحتاج إلى مران طويل ليبرعوا فيها ؛ ومن ثم جاء شعرهم ضعيفًا كما قلنا من قبل .

لقد حاول الشُّعراء أن يتخلصوا من آثار الماضي ، الَّذي تربوا فيه ونشأوا بين أحضانه ، وكان من الصعب عليهم أن ينسلخوا من هذا الماضي ؛ ولذلك نجد شعرهم - أحيانًا - امتدادًا لما كانوا عليه في الجاهلية من مقدمات طللية وصور وتشبيهات .

وخلاصة القول أن معظم الشعر قد لان وضعف في صدر الإسلام لحداثة الشعراء بالإسلام وقلة الأغراض التي كان يجب عليهم أن يتحدثوا فيها ، ولأسباب أخرى سنوضحها فيما بعد .

وإذا انتقلنا إلى شعر النساء الشواعر ، فإننا نجد أن المرأة شاركت الرجل في الرثاء ، فكانت أسرع إلى إظهار الحزن والتعبير عنه وتصوير انفعالاتها وجزعها لرهافة وطبيعة إحساسها ، فندبت القتلى وذرفت عليهم الدموع . وكان أكثر شعرها - في هذه الفترة - في رثاء الشُّهداء وندبهم والبكاء على صرعى المسلمين ، وهي لم تقف عند وصف الأحزان فحسب ، وإنما تجاوزتها إلى رصد الصِّفات الَّتي كانوا يمتدحونها في ذلك العصر .

وكان للنساء المشركات دورٌ أيضًا في رثاء القتلى أثناء المعارك التي دارت بينهم وبين المسلمين ، وكان شعرهن لا يقل خطرًا عن شعر الرجال ، فهو امتداد لما كان يدور في شعر ما قبل الإسلام من أفكار ومعان ترتبط بالندب والتأبين والتعزية ، أضف إلى ذلك مقدرة المرأة على إظهار لوعتها وتفجّعها أثناء بكائها القتلى ، « وكان من عاداتهم عند البكاء على الميت شق الجيوب ولطم الخدود وتعفير الرؤوس بالتراب ، واجتماع النسوة لندب الميت وذكر مناقبه . »(٣٤) « وكانت الَّتي ترفع صوتها بالنياحة تعرف بالصالقة ، أما التي تحلق شعرها عند نزول المصيبة فكان يقال لها الحالقة ، وأما التي تشق جيبها فيقال لها الشاقة . »(٣٥) وقد نهى الإسلام عن هذه الأفعال ، قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية . »(٣٦) و ورد في الحديث أيضًا : « ليس منا من صلق أو حلق أو خرق . »(٣٧) أي ليس منّا من رفع صوته أو حلق شعره أو شق جيبه عند الموت ؛ ولذلك نهى لبيد في الإسلام ابنتيه أن تأتيا أعمال

الجاهلية في النواح عليه بعد موته ، فهو يقول [٣٨] :

فَقوما فَقولا بِالَّذي عَلِمْتُما ... وَلا تخْمشا وَجْهًا وَلا تحلِقا شَعْرا

هذا ما كانت تقوم به المرأة في الجاهلية عند ندب الموتى ، وقد استمرت هذه العادات في صدر الإسلام عند المشركين الذين لم يدخلوا الإسلام ولم يمتثلوا لأوامره .

ومهما يكن من شيء ، فإن الشَّواعر المشركات قلن شعرًا في الرثاء ، وأول ما يطالعنا من شعرهن شعر هند بنت عتبة بن ربيعة ، فقد كانت مصيبتها في موقعة بدر كبيرة ، حيث قتل لها آنذاك أبوها وأخوها وابنها وعمها ، فقالت تبكي أباها [٣٩] :

أ عَيْنَيَّ جودا بِدَمْعٍ سَرِبْ ... عَلى خَيْرِ خِنْدِفٍ لَمْ يَنْقَلِبْ
تَداعى لَهُ رَهْطُهُ غُدْوَةً ... بَنو هاشِمٍ وَبَنو المطَّلِب
يُذيقونَهُ حَدَّ أسْيافِهِمْ ... يَعُلّونَهُ بَعْدَ ما قَدْ عَطِبْ
يَجُرّونَهُ وَعَفيرُ التُّراب ... عَلى وَجْهِهِ عارِيًا قَدْ سُلِبْ
وَكان لَنا جَبَلاً راسِيًا ... جَميلَ المراة كَثيرَ العُشُبْ
وَأمّا بُرَيّ فَلَمْ أعْنِهِ ... فأوتِيَ مِنْ خَيْرِ ما يَحْتَسِبْ

وقالت أيضًا [٤٠] :

يا عَيْنُ بَكّي عُتْبَهْ ... شَيْخًا شَديد الرَّقَبهْ
يُطْعِمُ يَوْمَ المسْغَبَهْ ... يَدْفَعُ يَوْمَ المغْلَبَهْ
إنّي عَلَيْهِ حَرِبَــهْ ... مَلْهوفَةٌ مُسْتَلَبَــهْ
لنهبطَن يَثْرِبَــهْ ... بغارَةٍ مُنْثَعِبَــهْ
فيها الخيولُ مُقْرَبَهْ ... كُلُّ جَوادٍ سَلْهَبَهْ

لم تستطع هند - الأم والأخت والابنة - أن تكبت مشاعرها نحوهم، وتدفن أحزانها عليهم، فاندفعت إلى تصوير انفعالاتها وإظهار حزنها وجزعها العميق . ولها قصيدتان أخريان في السيرة [٤١] وقصيدة في الأغاني [٤٢] ، وقد أنكر ابن هشام نسبة هذا الشعر لهند . ومن الغريب أن رثاء هند بنت عتبة - رغم عظم مصيبتها وفداحتها - قليل ؛ إذ لم يتجاوز المقطعات القصيرة ، فهو لذلك قصير النفس ، ولا شك أن قلة الشِّعر وضعفه في تلك الفترة له

أسبابه التي سأتحدث عنها فيما بعد .

وعندما رأت صفية بنت مسافر بن أبي عمرو قومها يقتلون في بدر ، وفيهم ابن عمها عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو ، قالت تبكي قتلى قريش وتندبهم [٤٣] :

يا مَنْ لِعَيْنٍ قذاها عائِرُ الرَّمَدِ حَدَّ النَّهار وَقَرْنُ الشَّمْسِ لَمْ يَعُدِ
أخْبِرْتُ أنَّ سَراةَ الأكرمينَ مَعًا قَدْ أحْرَزَتْهُمْ مَناياهُمْ إلى أمَدِ
وَفَرَّ بِالقَوْمِ أصْحابُ الرّكابِ وَلَمْ تَعْطِفْ غداتَئِذٍ أمٌّ عَلى وَلَدِ
قُوْمي صَفِيَّ وَلا تَنْسَيْ قَرابَتَهُمْ وَإنْ بَكَيْتِ فَما تَبْكينَ مِنْ بُعُدِ
كانوا سُقوبَ سَماءِ البَيْتِ فانْقَصَفَتْ فأصْبَحَ السَّمْكُ مِنْها غَيْرَ ذي عَمَدِ

فالبكاء واجب على أقارب الميت وفاءً وتكريمًا له ، وكان الاتجاه السائد في هذا النوع من شعر الرثاء هو الإشادة بفضل المرثي وشجاعته وقوته ، ونراها توضح هذه الصفات في رثاء ابن عمها عقبة فتقول [٤٤] :

ألا يا مَنْ لِعَيْنٍ لِلتَّـ بَكّي دَمْعها فـانْ
كَغَرْبَيْ دالج يَسْقي خِلالَ الغَيْثِ الدّانْ
وَما لَيْثُ غَريفٍ ذو أظافيرٍ وَأسْنـانْ
أبو شِبلَيْنِ وَثّابٌ شَديدُ البَطْشِ غَرْثانْ
كَحِبّي إذْ تَوَلّى وَ وُجوهُ القَوْمِ ألْوانْ
وَبالكَفِّ حُسامٌ صا رِمٌ أبيَضُ ذُكْرانْ
وَأنْتَ الطّاعن النَّجْلا ء مِنْها مُزْبِدٌ آنْ

وعندما تفقد الشَّاعرة أباها ويغيب عنها ، تحس باليتم والقطيعة ، وتبكيه وتجزع عليه ، وتبادر إلى سكب انفعالاتها في أبيات حزينة موجعة ، وهذا ما حدث لقتيلة بنت النضر بن الحارث ، التي تناهى إليها خبر قتل أبيها النضر يوم بدر مع الَّذين قتلوا من المشركين ، فأخذت تبكيه بأبيات تفيض أسى وألمًا فقالت [٤٥] :

يا راكِبًا إن الأثيلَ مظنة مِنْ صُبْحِ خامِسَةٍ وَأنْتَ مُوَفَّقُ
أبلغ بِها ميتًا بأنَّ تَحِيَّةً ما إن تزالُ بها النَّجائبُ تخفقُ
مِنّي إلَيْكَ وَعَبْرَةٌ مَسْفوحَةٌ جادَتْ بِواكِفِها وأخْرى تخنقُ

هَلْ يَسْمَعَنّي النَّضْرُ إنْ نادَيْتُهُ ؟ أم كَيْفَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ لا يَنْطِقُ ؟
أ مُحَمَّدٌ يا خير ضنء كَرِيمَةٍ في قَوْمِها وَالفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
ما كانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّما مَنَّ الفَتى وَهُوَ المغيظُ المحْنِقُ
أوْ كُنْتَ قابِلَ فِدْيَةٍ فلينفقن بأعَزّ ما يغلو به ما ينفقُ
فالنَّضْرُ أقربُ مَنْ أسَرْتَ قرابَةً وَأحَقّهُمْ إنْ كانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ
ظَلَّتْ سُيوفُ بني أبيه تَنوشُهُ لله أرْحامٌ هُناكَ تَشَقَّقُ
صَبْرًا يُقاد إلى المنية مُتْعَبًا رَسفَ المقَيَّدِ وَهُوَ عانٍ موثَقُ

وهي تعاتب الرسول عتابًا رقيقًا حزينًا على قتل أبيها ، وتقول له : كان باستطاعتك أن تمن عليه أو أن تقبل فدية من ذويه أو أن تعتقه .

ولكنها لا تنسى أن تبيّن موقفها من النبي ﷺ فتمدحه ببيت تقول فيه :

أ مُحَمَّدٌ يا خَيْرَ ضنء كريمـة في قَوْمِها وَالفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

وهي لا تهدف من ذلك إلا إلى إيضاح موقفها فحسب ، لكي تكشف عن العاطفة التي تخالجها ، فهي تعاتب عتاب المبقي على الود .

والحديث – كما هو واضح – كلّه فجيعة ولوعة وألم وبكاء بسبب فراق أبيها لها . وقد تأثر النبي ﷺ بكلام قتيلة – لما بلغه شعرها – فقال : لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه .

هؤلاء كن شواعر الكفار ، أما شواعر المسلمين فقد أسهمن بشعرهن أيضًا في رثاء الشهداء وندبهم أثناء المعارك والغزوات ، فهند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب ترثي عبيدة بن الحارث بن المطلب الذي استشهد في بدر بعد أن قطع رجله عتبة بن ربيعة فمات بمكان يسمى الصفراء فتقول (٤٦) :

لَقَدْ ضُمِّنَ الصَّفْراءُ مَجْدًا وَسُؤدُدًا وَحِلْمًا أصيلاً وافِرَ اللُّبِّ وَالعَقْلِ
عُبَيْدَةُ فَابْكيهِ لأضْيافِ غُرْبَةٍ وَأرْمَلَةٍ تَهْوي لأشْعَثَ كَالجِذْلِ
وَبَكّيهِ للأقوامِ في كُلِّ شَتْوَةٍ إذا احمرَّ آفاقُ السَّماءِ مِنَ المحْلِ
وَبَكّيهِ لِلأيتام وَالرّيحُ زَفْزَفٌ وَتَشْبيب قِدْر طالما أزْبَدَتْ تَغْلي
فإنْ تُصْبِح النّيرانُ قَدْ ماتَ ضَوْءُها فَقَدْ كانَ يُذْكيهِنَّ بالحَطَبِ الجَزْلِ
لِطارِقِ لَيْلٍ أو لِمُلْتمس القِرَى وَمُسْتَنْبحٍ أضْحى لَدَيْهِ عَلى رِسْلِ

وهي تعدد مآثر عبيدة - على عادة الجاهليين - وتصفه بجميع الفضائل الَّتي يفاخرون بها بأسلوب يتضح فيه التفجُّع والتلهف ، وتنعى الصِّفات الَّتي كان يتصف بها وكأنها ذهبت بذهابه واندثرت بموته .

وترثي صفية بنت عبد المطلب - عمة الرسول - أخاها حمزة شهيد موقعة أحد رثاء إسلاميًا حزينًا فتقول (٤٧) :

أ سائِلَةٌ أصْحابَ أحُدٍ مَخافةً بَناتُ أبي من أعْجَم وَخَبيرِ
فَقالَ الخبيرُ إن حَمْزَةَ قَدْ ثَوى وَزيرُ رَسولِ الله خَيْرُ وَزيرِ
دَعاهُ إلَهُ الحَقِّ ذو العَرْشِ دَعْوَةً إلى جَنَّةٍ يَحْيا بها وَسُرورِ
فَذَلِكَ ما كُنّا نُرَجّي وَنَرْتَجي لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْر مَصيرِ
فَوالله لا أنْساكَ ما هَبَّتِ الصّبا بُكاءً وَحزنًا مَحْضَري وَمَسيري
عَلى أسدِ اللهِ الَّذي كانَ مِدْرَها يَذودُ عَنِ الإسْلام كُلَّ كَفورِ
فيا لَيْتَ شِلْوي عِنْدَ ذاكَ وَأعْظُمي لَدى أضْبُعٍ تَعْتادني وَنُسورِ
أقولُ وَقَدْ أعلَى النَّعِيُّ عَشيرَتي جَزى الله خَيْرًا مِنْ أخٍ وَنَصيرِ

ويظهر في رثائها - بجانب الحزن والتفجّع والصبر على قضاء الله - قوة الإيمان والتأثّر بالقرآن الكريم في مثل قولها :

دَعاهُ إلهُ الحَقِّ ذو العَرْشِ دَعْوَةً إلى جَنَّةٍ يَحْيا بِها وَسُرورِ

وقولها :

عَلى أسدِ اللهِ الَّذي كانَ مِدْرَها يَذودُ عَنِ الإسْلامِ كُلَّ كَفورِ

وهذه ظاهرة جديدة بدأت تظهر في شعر شواعر المسلمين نتيجة تأثرهن بالإسلام .

وإذا كانت صفية قد حزنت على وفاة أخيها حمزة ، فإن نعم بنت سعيد كانت أشد حزنًا على فقدها لزوجها شماس بن عثمان الَّذي استشهد يوم أحد ، فقالت (٤٨) :

يا عَيْنُ جودي بِفَيْضٍ غَيْرِ إبْساسِ عَلى كَريمٍ مِنَ الفِتْيانِ أبّاسِ
صَعْبِ البَديهَةِ مَيْمونٍ نَقيبَتُهُ حَمّالِ ألْوِيَةٍ رَكّابِ أفْراسِ
أقولُ لَمّا أتى الناعي لَهُ جَزَعًا أودى الجَوادُ وَأوْدى المطعِمُ الكاسي
وَقُلْتُ لَمّا خَلَتْ مِنْهُ مَجالِسُهُ لا يُبْعِدِ الله عَنّا قُرْبَ شَمّاسِ

وهذا الرثاء أقرب إلى رثاء الجاهليين ، فالشاعرة تعدّد الصِّفات الّتي حرم منها الناس بسبب قتل زوجها ، مع أنه استشهد في سبيل الله ، فهو رثاء غير محتسَب يخلو من الملامح الدِّينية ، ومن أثر الإسلام في الشّاعرة ، وقد فطن أخوها أبو الحكم بن سعيد إلى ذلك فأخذ يعزيها ويخفف عنها ويذكِّرها بالصبر على ما أصابها ، وأن زوجها قد استشهد في سبيل الله وطاعته كغيره من المسلمين ، ولها في حمزة العزاء والتسلية ، فيقول (٤٩) :

أقْنَيْ حياءَكِ في سِتْرٍ وَفي كَرَم ... فَإنَّما كانَ شَمّاسٌ مِنَ النّاسِ
لا تَقْتُلي النَّفْسَ إذ حانت مَنِيَّتُهُ ... في طاعَةِ الله يَوْمَ الرَّوْعِ وَالباسِ

وإذا فقدت الأم ابنها يلم بها ألم عميق ، وينتابها أسًى شديد ، ولكن ألم كبيشة بنت رافع الأنصارية على ابنها سعد بن معاذ يفوق كل ألم ، وحزنها يزيد على كل حزن ، فكل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ ، كما يقول رسول الله ﷺ عندما سمعها تنوح وتبكي على ابنها ، حين حمل نعشه إلى مثواه الأخير فقالت (٥٠) :

وَيْل أمّ سَعْدٍ سَعْدا ... صَرامَةً وَحَـــدّا
وَسُؤدُدًا وَمَجْـــدا ... وَفارِسًا مُعَـــدّا
سُدَّ بِهِ مَسَـــــدّا ... يَقُدُّ هامًا قَـــدّا

وهذا الندب كان نتيجة موقف انفعال مؤقت ، فرضه الموقف عند احتدام العواطف .

وليس غريبًا أن تشارك النساء الشّواعر في بكاء الرسول ، فالمرأة تجلّ من يحسن إليها ، ويعطف على وضعها ، ويقوي من ضعفها ، كذلك لم يكن الرسول فردًا عاديًا ، وإنما كان نبيًا مرسَلاً ؛ ومن ثم فعاطفة المرأة نحوه تختلف عن عاطفتها نحو أي فرد عادي ؛ لأنه كان الأمل والرجاء الذي يتطلّع إليه كل مسلم ومسلمة ، وهذا ما عبَّرت عنه صفية بنت عبد المطلب (٥١) :

ألا يا رَسولَ اللهِ كُنْتَ رَجاءَنا ... وَكُنْتَ بِنا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جافِيا
وَكُنْتَ رَحيمًا هادِيًا وَ مُعَلِّمًا ... لِيَبْكِ عَلَيْكَ اليَوْمَ مَنْ كانَ باكِيا
صَدَقْتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسالَةَ صادِقًا ... وَمِتَّ صَليبَ العودِ أبْلَجَ صافِيا

وتبكيه أم أيمن فتقول [٥٢] :

ولبكيا خير من رزئناه في الدُّنـ ... يا ومن خصّه بوَحْيِ السَّماء

فَلَقَدْ كانَ ما عَلِمْتُ وَصولاً ... وَلَقَدْ جاءَ رَحْمَةً بالضِّياء

طَيِّب العودِ والضَّريبَةِ والمعْدِنِ ... والخيـمِ خاتَـمِ الأنْبيـاء

ويقال إن فاطمة بنت الرسول ﷺ رثت أباها بمراثٍ عديدة – وإن لم نعرف عنها إلا القليل – ذكرها ابن رشيق وفضلها على رثاء الكميت للنبي ، منها [٥٣] :

اِغْبَرَّ آفاقُ السَّماءِ وكُوِّرَتْ ... شَمْسُ النَّهارِ وأظْلَمَ العَصْرانِ

فالأرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَئيبة ... أسَفًا عَلَيْهِ كَثيرةَ الرَّجَفانِ

فَليبكِهِ شَرْقُ البِلادِ وغَرْبُها ... ولْيَبْكِهِ مُضَرٌ وكُلُّ يَماني

ولْيبكِهِ الطَّوْدُ المَعظَّم جَوُّهُ ... والبَيْتُ ذو الأسْتارِ والأرْكانِ

يا خاتَمَ الرُّسُلِ المبارَك صِنْوهُ ... صَلّى عَلَيْكَ مُنَزِّلُ القُرْآنِ

فالشّاعرة يسيطر عليها جو من الحزن والاكتئاب ، وتريد أن تشرك جميع مظاهر الطبيعة هذا الشُّعور ، تنفيسًا عما بداخلها ، ومردّ ذلك لسببين ، هما : أنها فقدت أباها ، وأن الفقيد سيد الخلق وأفضلهم جميعًا ؛ ولذلك أتت بصور تتناسب وحالتها النفسية الَّتي تعاني منها ، فالصورة لوّنت بالسواد والشحوب ، وبعد أن تغيّر لون السَّماء وصورتها المعتادة شاركت الأرض باضطرابها وكثرة رجفانها ، ثم أوجبت على النّاس البكاء . وقد أوردت المصادر [٥٤] مقطوعات شعرية لشواعر كثيرات ، شاركن في رثاء الرسول ، وهي متشابهة من حيث الصياغة والأسلوب .

هكذا شاركت النساء في شعر الرثاء زمن النبوة ؛ لأنهن « أشجى الناس قلوبًا عند المصيبة ، وأشدُّهن جزعًا على هالك ؛ لما ركَّب الله عز وجل في طبعهن من الخَورِ وضعف العزيمة . » [٥٥] وكانت هناك منافسة شديدة بين شواعر قريش وشواعر المسلمين – مثلما كان بين الشُّعراء من كلا الفريقين ، وكأنها منافسة بين مكة والمدينة ، ولكننا نلاحظ أن شعر شواعر قريش أقوى فنّا لحرقة الهزيمة ، وزوال العِزّ والمجد القديم .

وكانت الشَّواعر المسلمات مؤمنات بقضاء الله وقدره ، يرين في الشَّهادة مطلبًا ومغنمًا ، نلاحظ ذلك في قول صفية بنت عبد المطلب :

فَذَلِكَ ما كُنّا نُرَجِّي وَنَرْتَجي   لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْرَ مَصيرِ

كذلك شاعت في شعرهن بعض الألفاظ الدِّينية والقيم الروحية نتيجة تأثير الإسلام فيهن .

وإذا كانت لحظة الرِّثاء من اللحظات التي يكون فيها الإنسان صادقًا مع نفسه ، فكل ما يصدر عنه في هذه اللحظة يصدر عن معاناة حقيقية ، تترك أبلغ الأثر في نفوس الآخرين .

فالرثاء لا يصدر إلا عن نفس تعاني مرارة الحزن والأسى والشُّعور بفداحة الفقيد ؛ ولذا كان شعر المرأة أكثر جزعًا وأشد حزنًا وأوقع أثرًا لما يسوده من بكاء ونحيب وندب ، على حين نجد الشُّعراء يتجملون في رثائهم ويلتزمون التأبين والتعزية .

رثت المرأة - مسلمة وكافرة - الأبناء والأخوة والآباء والأزواج والأقارب والشهداء . واقتصر شعرها على المقطوعات القصيرة مما يدل على قِصَر نَفَسِها ، وعجزها عن الإطالة . ويرجع السبب في ذلك إلى أن الشواعر اللائي قلن الشعر وقتئذ لم يكن لهن شعر كثير في الجاهلية ، ولم تتأصل موهبتهن في الماضي ؛ ولذا جاءت أشعارهن أبيات قليلة على قدر مقدرتهن الفنية واللُّغوية ، ولم تكن في فحولة شعراء الجاهلية .

ويبقى سبب آخر مهمّ ساعد على قلَّة شعر الشَّواعر في تلك الفترة هو أن الإسلام حرّم كثيرًا من عادات الجاهلية ، التي تناولتها الشَّواعر في شعرهن ؛ ومن ثم بدأن - في صدر الإسلام - يتحدثن عن أغراض ومعان جديدة لم يطرقنها من قبل ؛ ومن هنا جاء شعرهن مقطوعات قصيرة لم ترق إلى جودة الشعر الجاهلي وقوته وجزالته ؛ ذلك لأنهن حاولن خلق أشكال جديدة ترتبط بالإسلام والمسلمين ، ولكنهن لم ينجحن تمامًا ؛ ولذلك كان الشِّعر - في معظم الأحيان - يعتبر امتدادًا لما كن عليه في الجاهلية .

وربما كان السبب أيضًا هو أن معظم الشَّواعر قد دخلن الإسلام بعد فتح مكة ؛ ومن ثم لم

يعدن راغبات في حفظ أشعارهن الَّتي قيلت وقت الشرك ، ولذلك أيضًا لم يهتم به رواة الشِّعر في هذا الوقت ولم يحرصوا على تدوينه ، فضاع معظمه ولم يصلنا منه إلا القليل .

وخلاصة القول أن معظم شعر شواعر العرب المسلمات قد لان وسهلت ألفاظه لحداثتهن بالإسلام ، ولقلّة الأغراض الَّتي كان يجب عليهن أن يتحدثن فيها ، ولم يمنع ذلك من تأثرهن بمعاني وألفاظ القرآن الكريم .

الفصل الثالث

الرثاء في زمن الخلفاء الراشدين

الرثاء في حروب الردة

ازدهر شعر الرثاء في حياة الرسول ﷺ - كما سبق أن أوضحت - فقد كان يجري على ألسنة شواعر وشعراء كثيرين ، وإذا كان هذا الشعر قد دخله شعر موضوع ، فإن ما ارتضاه الرواة وعلماء اللُّغة الموثوق بهم يشكل كمّا ضخمًا يعطي صورة واضحة عن تطوّر هذا الفن وانتشاره في تلك الفترة .

وبعد أن انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى كان الإسلام قد عمَّ وانتشر في أنحاء الجزيرة العربية بعد أن قضى على الوثنية تمامًا . ولم يكد أبو بكر الصديق يخلف النبي ﷺ ويتولى أمور المسلمين حتى ارتد كثير من العرب الَّذين لم يثبت الإسلام في نفوسهم بعد ، إذ لم تمض عليهم فترة طويلة في ظل الإسلام .

وتصدى أبو بكر الصديق لهذه الفتنة ، و وجه إلى المرتدّين جيوشًا بقيادة خالد بن الوليد وغيره من الأبطال ، ودارت المعارك طاحنة بين الفريقين كان النصر فيها أخيرًا للمسلمين ، « ولم يكن في الشعر الَّذي قيل في الردة شيء غير العصبية ، ولا تجد فيه معارضة لمبادئ الإسلام ، أو احتجاجًا على الدين ، أو طعنًا فيه ، بل عصبية قبلية تأنف دفع الزكاة باعتبارها إتاوة تدفع لقريش . . . وسبب ذلك أن أكثر هذا الشِّعر قيل من قبل المرتدين ، ولم يساهم فيه المسلمون إلا في القليل ، وهذا القليل لشعراء من البادية ، قالوه تحريضًا على القتال ، وفخرًا بثباتهم على الدين ، واعتزازًا بفضل الله عليهم ، ولم يشارك في هذا شعراء المدن ، ولم يشارك الشُّعراء البارزون في هذه المناسبة خلاف حسان ، الذي جاءت في ديوانه أبيات شغلها الفخر بقومه وشدتهم »[1] . وأما حظ شعر الرثاء في هذه المعارك العنيفة التي سقط فيها كثير من القتلى فقليل . فقد سقط في معركة اليمامة عدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ ، ورغم ذلك لم نجد

شعرًا في رثاء هؤلاء القتلى . ولعل السبب في ذلك هو سرعة إخماد هؤلاء المرتدين والقضاء عليهم ، ثم توجيههم إلى الفتوح الإسلامية التي كانت هدفا أساسيًا لنشر الدين الإسلامي في أنحاء المعمورة .

وهكذا قل الشِّعر الإسلامي بعامة ، وشعر الرثاء بخاصة أثناء حروب الردة ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى ربما قيل شعر في رثاء الشُّهداء المسلمين في هذه المعارك ، ولكنه ضاع وفقد بموت كثير من الرواة أو استشهادهم أثناء الفتوحات الإسلامية بعد ذلك .

ومن شعر الرثاء القليل الذي وصلنا عن تلك الفترة رثاء متمم بن نويرة اليربوعي - وهو صحابي - لأخيه مالك بن نويرة سيد بني يربوع . وكان مالك هذا قد قدم على رسول الله ﷺ فأسلم ، فولاه صدقة قومه ، ثم كان ممن منع الزكاة بعد موت النبي ، فقتله خالد بن الوليد فيمن قتل من مانعي الزكاة والمرتدين في وقعة البطاح في السنة الحادية عشرة من الهجرة . ولما بلغ متمم مقتل أخيه أقبل إلى مسجد رسول الله وصلى الصبح خلف أبي بكر ، فلما فرغ من صلاته قام متمم فوقف بحذائه واتكأ على سية قوسه ، ثم أنشد :

نِعْمَ القَتيلُ إذا الرِّياحُ تَناوَحَت ... خلفَ البُيوتِ قُتِلْتَ يا بنَ الأزْوَرِ
أ دَعَوتَهُ باللهِ ثـمَّ غَدَرْتَـهُ ... لَوْ هو دَعاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ تَغْدِرِ

وأومأ إلى أبي بكر ، فقال : والله ما دعوته ولا غدرته ، ثم أنشد :

ولنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ كانَ حاسِرًا ... ولَنِعْمَ مَأوَى الطّارِقِ المُتَنَوِّرِ
لا يُمْسِكُ الفَحْشاءَ تَحْتَ ثِيابِهِ ... حُلْوٌ شَمائِلِهِ عَفيفُ المِئْزَرِ

ثم بكى ، فقال له عمر بن الخطاب : لوددت لو أنك رثيت زيدًا أخي بمثل ما رثيت به مالكًا أخاك ، فقال : يا أبا حفص ، والله لو علمت أن أخي صار بحيث صار أخوك ما رثيته . فقال عمر : ما عزاني أحد عن أخي بمثل تعزيته ، وأراد متمم بذلك أن أخاه مالكًا قتل عن الردة غير مسلم ، وأن زيد بن الخطاب قتل شهيدًا يوم اليمامة (٢) .

ومن رثاء متمم لأخيه مالك قوله (٣) :

أرِقْتُ ونامَ الأخْلِياءُ وهاجَني ... معَ اللَّيلِ هَمٌّ في الفُؤادِ وَجِيعُ
وَهَيَّجَ لي حُزْنًا تَذَكُّرُ مالِك ... فما نِمتُ إلا والفؤادُ مَرُوعُ
إذا عَبرَةٌ ورَّعْتُها بعد عَبرة ... أبت و استَهَلَّتْ عَبرَةٌ ودُمُوعُ

كما فاض غربٌ بين أقرُنِ قامَةٍ يُرَوِّي دِبـارًا مـاؤهُ وزُرُوعُ
جديدُ الكُلَى واهِي الأديمِ تُبينُه عنِ العِبرِ زوْرَاءُ المَقَام نَزُوعُ
لِذِكْرى حَبيبٍ بعدَ هدءٍ ذَكرتُه وقد حانَ من تالي النُّجُوم طُلُوعُ

فالشّاعر ملتاع القلب ، موجع الفؤاد ، حزين متألم لهلاك أخيه ، ودموعه لا ينضَب معينُها ، وحين يتذكر أخاه مالكًا لا يرقأ له جفن ، ويظل ساهرًا طول الليل يبكي لما أصابه من فرقة بعد اجتماع ، ثم نراه يختم القصيدة بصورة رائعة من صور الجدب والقحط ، وكأن موت مالك قد أحال المكان قفرًا ، والحيوان هزالاً ، وهي صورة تناسب أحاسيس الشّاعر ومشاعره تجاه فقده لأخيه . يقول متمم (٤) :

له تَبَعٌ قد يعْلَمُ النّاسُ أنَّهُ عَلَى مَن يُدَانِي صَيِّفٌ ورَبِيعُ
وراحَت لِقاحُ الحَي جُدْبًا تَسوُقها شآمِيةٌ تزوي الوُجُوه سَفوُعُ

وهكذا رثى متمم أخاه رغم ارتداده عن الإسلام ، ويبدو أنه أقدم على ذلك لأسباب نفسية عميقة ، منها أنه كان « دميمًا قليل التصرف في أمر نفسه اكتفاء بأخيه مالك » (٥) ، فلما أيقن بزوال وليه ومعينه على الحياة ، و وجد نفسه وحيدًا ، فاضت عيناه بالدموع على فقده لأخيه ، وعلى ما سيخبئه له القدر بعد أن فرق الموت بينهما . ومنها أنه رثاه على عادة العرب في الجاهلية ليؤكد للشامتين أو الذين نهوه عن البكاء مدى حبه لأخيه لما بينهما من صلة الرَّحم ، فهو يقول :

لَقَدْ لامَني عِنْدَ القُبورِ عَلى البُكا رَفيقي لتذراف الدُّموعَ السَّوافِك
فقال : أ تَبْكي كُلّ قَبْرٍ رَأيْته لقبر ثَوى بينَ اللّوى والدّكادِكِ ؟
أ مِنْ أجْلِ قَبْرٍ في المَلا أنْتَ نائحٌ عَلى كُلِّ قَبْرٍ أوْ عَلى كُلِّ هالِكِ
فقلت له : إنَّ الشَّجى يَبْعَثُ الشَّجى فَدَعْني ، فَهَذا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ

ونلاحظ هنا حرص الشّاعر على تكرار كلمة « قبر » للتأثير فينا ، ولما تخلقه هذه الكلمة من معنى الفقد والهلاك .

ويقول متمم أيضًا (٦) :

أقولُ لَها لَمّا نَهَتْني عَنِ البُكا أ في مالِكٍ تَنْهَيْنَني أمَّ خالِدِ
فَإنْ كانَ إخْواني أصيبوا أوْ أخْطَأت بني أمّكِ اليَوْمَ الحتوفُ الرَّواصِدُ
فَكُلُّ بني أمٍّ سَيُمْسونَ لَيْلَةً وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أعْيانِهِمُ غَيْرُ واحِدِ

ولمتمم قصيدة أخرى في رثاء أخيه يقول فيها (٧) :

لَعَمْرِي وما دَهرِي بتأبِينِ هالِكٍ ... ولا جَزَعٍ مِمَّا أصَابَ فأوْجَعَا
لقد كفَّنَ المِنْهَالُ تحتَ رِدَائِه ... فَتًى غيرَ مِبْطانِ العَشِيَّاتِ أرْوَعَا
ولا بَرَمًا تُهدي النِّساءُ لِعِرْسِه ... إذا القَشْعُ مِن حَسِّ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا
لَبِيبٌ أعَانَ اللبَّ مِنهُ سمَاحَةٌ ... خَصِيبٌ إذا ما راكِبُ الجَدْبِ أوْضَعَا
تراه كَصدْرِ السَّيْفِ يَهتَزُّ للنَّدَى ... إذا لم تَجد عِندَ امرئِ السَّوءِ مَطْمَعَا
وإن تَلقَهُ في الشَّربِ لا تَلق فاحِشا ... على الكأسِ ذا قاذرُوةٍ مُتزبِّعَا

فالميِّت هنا لم يكن مجرد فرد هلك ، وإنما مجموعة من الفضائل والشِّيم ، فالشّاعر لا يرثي إنسانًا مات ، فذلك مصير لا بد منه ، وإنما يبكي على ذهاب كل هذه الفضائل والخلال الَّتي كانت متمثلة في مالك .

وفي هذه القصيدة يندب الشاعر أخاه فيقول (٨) :

أبى الصبر آيات أراها وأنَّني ... أرى كُلَّ حَبْلٍ بعدَ حَبْلِكَ أقْطَعا
وأنِّي مَتى أدْعُ باسْمِكَ لا تُجب ... وكُنْتَ جَدِيرًا أنْ تُجيبَ وتَسْمَعا
وعِشْنا بِخَيرٍ في الحَياةِ وقَبْلَنا ... أصابَ المَنايا رَهْطَ كِسْرى وتُبَّعا
فَلمَّا تَفرَّقْنا كأنِّي ومالِكا ... لِطولِ اجْتِماعٍ لَمْ نَبِتْ لَيلةً مَعا
وكُنَّا كندْمانَيْ جَذِيمة حِقْبةً ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قيلَ لَنْ يَتَصدَّعا
فإنْ تَكُنِ الأيّامُ فَرقْنَ بَيْنَنا ... فَقَدْ بان مَحْمودًا أخي حينَ ودَّعا
أقولُ وقدْ طارَ السَّنا في رَبابِه ... وجَوْنَ يَسحُّ الماءَ حَتّى تَرَبَّعا
سَقى الله أرْضًا حلَّها قَبْرُ مالِكٍ ... ذَهاب الغَوادي المُدْجِناتِ فَأمْرَعا

فالشّاعر يظهر جلَده وصبره على فقده لأخيه ، ويعزي نفسه بما أصابت المنايا من الملوك والأقيال ، ثم استسقى لقبره الغوادي المدجنات حتى تخضر الأرض من حوله روضة بهيجة تزهى به وبجدثه .

والدعاء بالسقيا لقبر الميّت من الأساليب التي وردت في الشّعر الجاهلي ، ويبدو أنها أصبحت بعد ذلك من الأنماط الأسلوبية الَّتي تتصل بدفن الموتى وما يتبع مواراة الجدث ترابه نثر الماء فوقه .

والشّاعر عادة – في مقام الرّثاء – يعتز بتمسكه بمثل هذا الدُّعاء ، وقد ظل الدُّعاء بالسقيا إلى ما بعد الإسلام ، ولم يكن يتعارض قط مع الأسلوب الخاص لكلّ شاعر (٩) .

وخلاصة القول أننا إذا تتبعنا معاني الرّثاء عند متمّم وجدنا أنها نفس المعاني الّتي طرقها شعراء عصره ، كالكرم والشّرف والنّخوة وحماية الجار ، ولكنه ألبسها ثوبًا يشف عما في نفسه من كوامن الحزن والأسى ، فإذا به يضفي على أخيه صفات يخيل للقارئ أنه قد انفرد بها دون سائر النّاس ، وذلك للصور الرّائعة التي صور بها أخاه مالكًا .

وإذا كانت هذه المعاني الّتي أبّن بها متمم أخاه قد عرفها العرب أيّام الجاهلية واستمرت بعد ظهور الإسلام ، فإن هناك معاني أبطلها الإسلام ونهى عنها ، ومع ذلك فقد ذكرها متمم في رثائه لأخيه ، سائرًا في ذلك على نهج شعراء الجاهلية ، دون أن يتأثر في شعره بالمبادئ الإسلامية . ومن ذلك تكرار وصفه لعفة أخيه حين يشرب الخمر ، ورجاحة عقله الّتي لا يفقدها إذا ما شرب ، فهو يقول (١٠) :

وللشَّرْبِ فابكي مالِكًا ولِبُهْمَةٍ ... شَديدٍ نَواحيهِ عَلى مَنْ تَشَجَّعا

ويذكر القداح من شعره فيقول (١١) :

إذا جَرَّدَ القَوْمُ القِداحَ وأُوْقِدَتْ ... لَهُمْ نارُ أَيْسارٍ كَفى مَنْ تَضَجَّعا

ومن هنا يمكن القول بأن مبادئ الإسلام لم تظهر بوضوح في شعر متمم ، فقد استمر ناهجًا الجاهلية في أخيلته ومعانيه ، وقد أشار إلى ذلك المستشرق نلينو حين عدَّ متممًا ضمن شعراء البادية الّذين لم يؤثر الإسلام في شعرهم (١٢) .

* * *

وبعد انتصار المسلمين في حروب الردة والقضاء على هذه الفتنة في مهدها وجّه خليفة رسول الله أبو بكر الصديق الجيوش المنتصرة إلى الحيرة ، ومن ثم كانت بداية الفتوحات الإسلامية الّتي تم معظمها في عهد الخلفاء الراشدين .

وقد واكب الشّعر هذه الفتوحات وازدهر أثناءها ، و وجد الشعراء فيها متنفسًا لإطلاق ألسنتهم من عقالها ؛ إذ وجدوا الظروف متاحة لهم للحديث عن أغراض كان الخوض فيها محظورًا عليهم من قبل ، كفخر الشاعر بقومه ما داموا جميعًا يدافعون عن الإسلام ، ويبذلون

كل غال في سبيل نشره . أضف إلى ذلك أن هذه الحروب قد وضعت الشُّعراء في مواقف شديدة الشَّبه بالمواقف التي مرَّت بهم في الجاهلية ، مع اختلاف الغرض بين هذا وذاك اختلافًا كبيرًا .

وقد اضطلع شعر هذه الفترة بمهام كبيرة أيضًا ، كانت في مجموعها صورة مشرقة للوثبة الهائلة الَّتي انطلقت بالعربي من حيِّزه الضيق ، لتطوف به في أرجاء ممتدة بعيدة لم يستشرفها من قبل ، « فقدم صورًا عديدة للفروسية العربية في إطارها الإسلامي ، وعبر - أحيانًا - عن نفحات الإيمان القوية ، والتصديق العميق بما وعد الله به المجاهدين من عباده ، وسجّل معارك المسلمين ونتائجها ، وصداها في تلك النُّفوس العربية ، وما استحدثته من ظروف الاغتراب والبعد عن الأوطان ، وما يستتبعه من حنين إليها ، وإلى الأهل والأحباب فيها ، وقد يعرج الشعر على بعض المشاهد الغريبة التي عاينها المسلمون لأول عهدهم بها من مناطق نائية ، فيصور انطباعات الشُّعراء بها ، وانعكاساتها على أنفسهم ، أو ينهض برثاء الذين فازوا بالشهادة في ميادين الجهاد . . . إلى غير ذلك مما عالجه هذا الشِّعر ، ونجده مبثوثًا في المراجع العديدة الَّتي تؤرّخ للفتوح ، أو تروي شيئًا عنها . » (١٣)

ومن الطبيعي أن يكثر شعر الرِّثاء في تلك الفترة ، قد دار حول الشُّهداء الَّذين ضحوا بحياتهم وأرواحهم في سبيل الله ، ودار أيضًا في وقت السِّلم حول تأبين الخلفاء الراشدين الذين ماتوا أو قتلوا ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، رضي الله عنهم . وهذا الرثاء - كما سنرى - وإن كان بعيدًا عن جو المعارك والفتوحات ، إلا أنه كان معبِّرًا عن مدى فداحة المصيبة الَّتي حلّت بالمسلمين وبالأمة الإسلامية في تلك الأوقات الغصيبة ، التي هم أحوج فيها إلى الاتحاد وجمع الشمل ، حتى تكتمل هذه الفتوحات ، وينتشر دين الله في أرجاء العالم .

وبجانب رثاء الشهداء والخلفاء نجد لونًا جديدًا يظهر لأول مرة في الشعر العربي ، وهو رثاء الشعراء المسلمين ما فقدوا من أعضاء أجسامهم في ساحات القتال ، ويظهر من هذا الرثاء استهانتهم بفقد تلك الأعضاء واحتسابها في سبيل الله ، مشيدين بما فعلته بالأعداء قبل فقدها .

وكان الشعراء في رثائهم وقت السِّلم أو الحرب يصدرون عن نفس حزينة متألمة ، ولكن مما خفّف من ألمهم قوة إيمانهم ، والتسليم بالقضاء والامتثال لإرادة الله وحسن تقبّلها ، وتمثّل ما أعده الله للشهداء من ثواب عظيم .

* * *

الرثاء في الفتوحات الإسلامية

عندما وجَّه أبو بكر قوّاده بجيوش المسلمين لنشر الدين الإسلامي ، وإعلاء رسالة الحق خارج الجزيرة العربية ، اندفعوا جميعًا يلبّون نداء ربهم ، مزودين بطاقة روحية عظيمة ، أمدهم بها الإيمان فحبَّب إليهم الجهاد وزيّنه في صدورهم ، فأصبحت قلوبهم عامرة به . والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تدعو إلى الجهاد ، وقد أوضحت الأحاديث النبوية أيضًا أهميته وفضله .

هب المسلمون – إذن – في أقطار الأرض حاملين كتاب الله ومتوكلين عليه ، وموقنين بالنصر أو الشهادة ، وقد أسهم الشُّعراء بدور كبير في هذه الأحداث ، وذلك بتحريضهم المؤمنين على الكفاح وإشعال جذوة الحماس في نفوسهم ، يستحثّونهم على مواصلة الجهاد في سبيل الله « وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبي العراق أمام جيوش المثنّى بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهَّز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان في فلسطين ، ولم يلبث أن أمدّهما أبو بكر بخالد ابن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانتصر على أرطبون في موقعة أجنادين ، كما انتصر في موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولي على حمص . »[١٤]

ويتوفى أبو بكر في السنة الثالثة عشرة للهجرة ، ويتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب ، وتستمر الفتوحات ، ويتم فتح بلاد فارس بعد موقعة القادسية واستيلاء المسلمين على عاصمتهم المدائن ، كما استولوا على نهاوند وأصفهان واصطخر وغيرها من المدن الهامة ، ويتم أيضًا فتح الشام وفلسطين ومصر التي كانت تحت حكم الرومان ، وفي أثناء هذه الفتوح – سواء مع الفرس أو الروم – نظمت أشعار كثيرة بعضها كان حماسيًا ، والبعض الآخر في رثاء من كانوا يفقدون ويستشهدون . وقد برز شعراء كثيرون في هذه المعارك لم نكن نسمع عنهم من قبل مثل : « نافع ابن الأسود بن قطبة التميمي ، وعمرو بن مالك الزهري ، وحسان بن المنذر الضبي والأعور الشني ، وكثير النهشلي ، وزهير بن عبد شمس البجلي ، وغيرهم ، كما أنها – أي الفتوح – أنطقت قومًا بالشّعر ، ولم تكن لهم سابقة في ميدانه ، حتى ليخيَّل إلينا أن الفاتحين جميعًا قد استحالوا شعراء في هذه الفتوح . »[١٥]

وكان شعر الرّثاء في معظمه في تلك الفترة يدور على تمجيد بطولة من استشهدوا في ساحة القتال ، وتعديد مآثرهم ، والإشادة بمواقفهم ، كما عبَّر عن الأسى والحزن لفقدهم .

فهذه خزانة بنت خلد بن جعفر بن قراط الَّتي حضرت فتوح الحيرة ترثي شهداء المسلمين بقولها (١٦) :

طَوى الدَّهْرُ ما بَيْني وَبَيْنَ أحبة　　بِهِم كُنْتُ أعْطى ما أشاءُ وأمنعُ
فَلا يَحْسب الواشونَ أنّ قَناتَنا　　تَلينُ وَلا أنَا مِنَ المَوْتِ نجذع

وهي تظهر فداحة المصيبة الَّتي ألمت بها بعد استشهاد هؤلاء الأبطال ، فقد فقدت بعدهم كل شيء ؛ ومن ثم أصبحت لا حولَ لها ولا قوة ، ولكنها سرعان ما تفيق من ألمها وحزنها لتظهر أمام الشّامتين الحاقدين عليها بمظهر القوة ، وتقرِّر أنها وقومها لا يخافون الموت ولا يجزعون منه ؛ لأن قناتهم صُلْبة قوية .

إذا كان هذا الرّثاء قد ساده الحزن والألم ، فإن روح التسليم بالقضاء والامتثال لإرادة الله وما أعده للشهداء من جزاء عظيم كانت متمثلة واضحة فيه ، نجد ذلك في رثاء الحباب بن ذريح بن الحارث لولده الَّذي استشهد فيٰ قتال الفرس عندما يقول (١٧) :

أبغي الحباب في الجهاد وَلا أدْري　　لَهُ شبها ما دام لله ساجــدا
وَكانَ الحباب كالشهاب حياته　　وَكُلُّ شهابٍ لا مَحالَةَ خامِد

فالشّاعر مؤمن بقضاء الله وقدره ، فإذا كان الَّذي استشهد فارسًا شجاعًا لا مثيل له إلى يوم الدّين ، فإنه لا بد ميت لأن لكل أجل كتابًا .

وأما ما أعدّه الله للشهداء من ثواب وأجر عظيم لما قدموه من تضحيات في سبيل نشر دينه فقد تردد كثيرًا في شعر الرّثاء ، من ذلك قول الشّاعر الذي رثى شهداء المسلمين في معركة القادسية الَّذين دفنوا بمشرق (١٨) :

جَزى الله أقْوامًا بِجنب مشرق　　غَداةَ دَعا الرحمن مَنْ كانَ داعِيا
جِنانًا مِنَ الفِرْدَوْسِ وَالمنزل الَّذي　　يحل بِهِ الخير مَنْ كانَ باقِيا

ولم يهزم المسلمون أثناء تلك الفتوحات إلا في موقعة واحدة هي « قس الناطف » التي كانت

بينهم وبين الفرس ، وكانت تلك الهزيمة الوحيدة الَّتي لحقت بهم . وكان من الطبيعي أن يسكت الشُّعراء وقتئذ عن ذكر هذه المحنة التي ألمت بالمسلمين ، ولكننا نجد أبا محجن الثقفي يرثي الشُّهداء الَّذين سقطوا في ساحة المعركة بقوله (١٩) :

إنّي نسيتُ نَحْوَنا أمّ يوسفٍ ... ومِنْ دونِ مَسْراها فَيافٍ مَجاهِلُ
إلى فتيةٍ بِالعطفِ نبل سراتُهُم ... وغودِرَ أفْراسٌ لَهُمْ وَرَواحِل
وأضْحى أبو جبر خَلاء بُيوتُهُ ... وَقَدْ كانَ يَغْشاها الضّعافُ الأرامِلُ
وَأَضْحَتْ بَنو عَمْرٍو لَدى الجسرِ مِنْهُم ... إلى جانِب الأبْياتِ جودٌ ونائِلُ
وما لُمْتُ نَفْسي فيهم غَيْرَ أنَّها ... لَها أجَلٌ لَمْ يَأتِها وَهْوَ عاجِلُ
وما رُحْتُ حَتّى مَزَّقوا بِرِماحِهِم ... إهابي وَجادَتْ بِالدِّماءِ الأباجِلُ

وقال حسان بن ثابت أيضًا في تلك الحادثة (٢٠) :

لَقَدْ عَظُمَتْ فينا الرَّزِيَّةُ إنَّنا ... جلادٌ عَلى رَيْبِ الحَوادِثِ وَالدَّهْرِ
عَلى الجسرِ قَتْلى لَهْفَ نَفْسي عَلَيْهِم ... فيا حَسْرَتا ماذا لَقينا عَلى الجسرِ

فأبو محجن يبدأ أبياته بحديثٍ مفعَم بالشجن عن أم يوسف . وهذا تقليد فني حَرَصَ الشّاعر عليه في هذه المناسبة ، وهو يذكرنا بالَّذي نراه مرصودًا في كل قصيدة تتضمن أمرًا جَللاً في العصر الجاهلي ، فقد درج الشعراء على ذكر المرأة بكنيتها ، كأم عمرو ، وأم جندب ، وأم أوفى ، وأم معبد ، في مقدمة قصائدهم عند حديثهم عن أمر جلل (٢١) .

ويبدو أن أبا محجن ظل متأثرًا بهذا الموروث القديم فاستهل قصيدته بذكر أم يوسف ، وهذه ليست إلا عادة فنية درج على اعتمادها أغلب الشّعر القديم .

وكثيرًا ما نجد الشُّعراء يحرصون على رثاء الإخوة في تلك الفتوح لما بينهم من صلة الرحم ، وهم في هذا الرّثاء يعنون بإظهار العاطفة الإنسانية وتمثيل النَّفس وأشجانها ، ويجهدون أنفسهم في التعبير عن مشاعرهم النفسية ، وإفراغ عواطفهم فيما تفيض به قرائحهم ، ليكون في ذلك عزاء ومشاركة في مصابهم . فقد رثى الشمردل أخاه وائلاً الَّذي قتل في هذه الفتوحات فقال (٢٢) :

لَعَمْري لَئِنْ غالت أخي دار فرقة وَآبَ إلَيْنا سَيْفُهُ وَحَمائله
وَحَلَّتْ بِهِ أثقالها الأرض وَانْتَهى بمَثْواه مِنْها وهو عف مآكله
لقد ضمنت جلد القوي كان يتَّقي بِهِ جانب الثَّغر المخوف زلازله
أقول وَقَدْ رحلت عنه فأسْرعت إليَّ بِأخْبارِ اليقين محاصله
إلى اللهِ أشْكو لا إلى النّاسِ فقده ولوعة حزن أوجع القلب داخله
وتحقيق رؤيا في المنام رأيتها فَكان أخي رمحًا ترفض عامله
سقى جدثًا أعراف غزة دونه ببيشة ديمات الرَّبيع و وابله

فالشّاعر يندب حظه التعس بفقده لأخيه ، ويصف خلَجات نفسه بما فيها من حزن دفين ومرارة كامنة ، وهو مع ذلك مستسلِم لقضاء الله ، صابر على ما ابتلاه به .

وعندما قتل أخ لهذا الشّاعر نراه يرثيهما معًا فيقول (٢٣) :

أقولُ إذا عزيت نَفْسي بإخْوَةٍ مَضَوْا لأضعافٍ في الحياةِ ولا عزل
أبى الموتُ إلا فجع كُلِّ بَني أبٍ سَيُمْسونَ شَتّى غير مُجْتَمِعي الشَّمْلِ
سبيل حَبيبي اللّذينِ تبرضا دُموعي حَتّى أسْرَعَ الْحُزْنُ في عَقْلي
فَعَيْنَيَّ إنْ أفضلتما بَعْدَ وائلٍ وصاحِبِه دَمْعًا فَعُودا عَلى الفضلِ

وهذا الرِّثاء يدلُّ على مدى حبِّ الشّاعر لأخويه ، وعلى صِدق مشاعره في وصفه لمصابه ، وما ألمَّ به من أسى وألم وحزن ، ولم لا ، فقد افتقد بموت أخويه سندًا قويًا وركنًا حصينًا كان يأوي إليه في الملمات .

وهذا الأعور بن قطبة يرثي أخاه الَّذي قتل يوم أغواث ، قتله أحد قادة الفرس ، فيقول (٢٤) :

لَمْ أرَ يَوْمًا كانَ أحْلى وَأمَرّ مِن يوم أغواث إذ افتر الثَّغر
مِنْ غَيْرِ ضحك كان أسوى وأمر

ورغم قلة الرجز في الرِّثاء ، فإن ابن قطبة ينتابه شعوران متضاربان في وقت واحد ، هما الفرح والحزن ، فهو فرح لأن أخاه قد قتل قائدًا من قواد الفرس ، وهذا بلاء حسن عظيم ، ولكنه حزين لأن هذا القائد قبل أن يسقط استطاع أن يقتل أخاه البطل ، فهو متألِّم على فقد أخيه ، ولكن عزاء الشّاعر أن أخاه قد أدى واجبه قبل الشّهادة في سبيل الله .

ويرثي نَهارُ بنُ تَوْسِعَةَ أخا له يدعى عِتْبان فيقول [٢٥] :

عِتْبانُ قَدْ كُنْتُ امْرَءًا لي جانِبٌ	حَتَّى رَزِئْتُكَ وَالجُدودُ تَضَعْضَعُ
قَدْ كنتُ أَشْوَسَ في المقامةِ سادِرًا	فَنَظَرْتُ قَصْدي وَاسْتَقام الأَخْدَعُ
وَفَقَدْتُ إخْواني الَّذينَ بِعَيْشِهِمْ	قَدْ كنتُ أُعْطي ما أَشاءُ وأَمْنَعُ
فَلِمَنْ أقولُ إذا تُلِمُّ مُلِمَّـــةٌ	أرني بِرأيكَ أمْ إلى مَنْ أَفْزَعُ
وليأتِيَنَّ عليـكَ يـومٌ مَـــرَّةً	يُبْكي عَلَيْك مُقَنَّعًا لا تَسْمَعُ

فمصيبة الشّاعر فادحة بعد أن فقد أخاه وأصبح وحيدًا عاجزًا ، لا حولَ له ولا قوة ، وتبدَّلت حالة من قوة ومَنَعة إلى ضعف واستكانة ، ومن ثم فهو يبكي . ولكننا في البيت الأخير نجد الشّاعر مؤمنًا بأن الموت لا محالة واقع ، وهو بذلك يعزي نفسه ويواسيها على فقد أخيه .

ومع أن موقف الشّاعر جديرٌ بأن يبرزَ فكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل الله والتسليم لقضائه واحتساب هؤلاء الشُّهداء عند ربِّهم ، إلا أن مثل هذه الأفكار الدِّينية لا تظهر كثيرًا في الشعر ، وقد لا ينص عليها أيضًا ، وربما يرجع ذلك إلى معرفتهم بهذه الأفكار وهم يحاربون ؛ ومن ثمَّ أغناهم ذلك عن ذكرها والتصريح بها في أشعارهم .

ومن ألوان الرِّثاء شاع أيضًا رثاء الأبناء وأفلاذ الأكباد . وإذا كانت الأصوات قد ارتفعت بالعويل والبكاء على موت الإخوة ، فإن فقد الأبناء جعل هذه الأصوات تمتلئ بالغُصَص والآلام ، وتئن وتتوجع و وراء الأنين والبكاء حُرقة الوَجْد وألم الفقد وحرارة التَّفجع . وكثيرًا ما نجد الشعراء يعزون أنفسهم – في مراثيهم – إزاء من يفقدونَ من الأبناء بأن الموت حقٌّ لا مفرَّ منه ، وأن كل نفس ذائقة الموت ، وكل إنسان لا محالة راحل إلى القبر . من ذلك رثاء أبي عامر بن غيلان لولده الَّذي خرج غازيًا ومات من طاعون عمواس [٢٦] :

عيني تَجودُ بِدَمْعِها الهتان	سَحًا وَتَبْكي فارسَ الفرْسانِ
لَوْ أَسْتَطيعُ جَعَلْتُ مِنّي عامرًا	تَحْتَ الضُّلوعِ وَكُلُّ حَيٍّ فانِ

فالشّاعر متأثر بالقرآن الكريم – في البيت الثاني – في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْها فان ﴾ [٢٧] .

وإذا كان الشّاعر هنا يتحلى بالصبر لإيمانه بأن كل حي سيموت ويفنى ، إلا أننا نلاحظ مدى وجده وحزنه وحسرته على فقده لابنه ، حتى إنه تمنى لو استطاع أن يفديه بنفسه ، ويقيه من

الموت ، أو يخفيه بين ضلوعه، حتى لا يدركه الموت، ولكن هيهات أن يهرب الإنسان من الموت؛ لأن كل حي لا بد سيفنى .

ولأبي ذؤيب الهذلي قصيدة تعدّ من روائع شعره ، قالها في رثاء أبنائه الَّذين اشتركوا في فتح مصر ثم ماتوا في طاعون انتشر بها ، يقول فيها [٢٨] :

أ مِنَ المَنونِ وَرَيْبِها تَتَوَجَّعُ	وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ
قالَتْ أميمَةُ ما لِجِسْمِكَ شاحِبًا	مُنْذُ ابتذلتَ وَمِثْلُ مالِكِ يَنْفَعُ
أم ما لِجِسْمِكَ لا يُلائِمُ مَضْجَعًا	إلا أقضَّ عَلَيْكَ ذاك المَضْجَعُ
فَأَجَبْتُها أمّا لِجِسْمي أنَّهُ	أوْدى بَنِيّ مِنَ البِلادِ فَوَدَّعوا
أوْدى بَنِيَّ وَأعْقَبوني غُصَّةً	بَعْدَ الرُّقادِ وَعَبْرَةً لا تُقْلِعُ
سَبَقوا هويً وأعْنَقوا لِهَواهم	فَتُخُرِّموا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
فغبرتُ بَعْدَهُم بِعَيْشٍ ناصِبٍ	وَإخالُ أنّي لاحِقٌ مُسْتَتْبِعُ
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأنْ أدافِعَ عَنْهم	فَإذا المَنِيَّةُ أقْبلتْ لا تُدْفَعُ
وَإذا المَنِيَّةُ أنْشَبَتْ أظْفارَها	ألفَيْتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنْفَعُ
وَالدَّهْرُ لا يُبْقي عَلى حَدَثانِهِ	جَوْنُ السراةِ لَهُ جَدائِدُ أرْبَعُ
وَالدَّهْرُ لا يبقي عَلى حَدَثانِهِ	شبب أفزته الكلاب مروعُ
وَالدَّهْرُ لا يُبْقي عَلى حَدَثانِهِ	مستشعر حلق الحديد مُقنعُ

فالشّاعر يعزي نفسه ويحضّها على الصبر والرِّضا بقدر الله وقضائه ، ولكنه لم يخفِ ألمه وحزنه وبكاءه على أبنائه ، فلا شيء أعز على الأب من أولاده ، لقد كانوا ملء روحه وقلبه ، فتخطّفهم الموت ولم يستطع دفعًا له ولا ردًّا ، فأصبح مسهدًا مؤرقًا شاحب اللون .

والقصيدة طويلة ، نجد فيها كل تَجارب التعاسة والتحسُّر والألم والاستسلام ، فقد ضرب فيها ثلاثة مظاهر للحياة التي تجدي شيئًا أمام الموت ، لجأ فيها إلى التعبير المجازي أو التمثيل بالحمار الوحشي وأتنه ، ثم بالثور الوحشي الذي لم يتمكن من الإفلات بنفسه من القدر ، وأخيرًا بصورة البطل الفارس الكامل السلاح وصراعه مع بطل آخر مثله . وبالرغم من أن الصورتين تبدوان منتميتين إلى عالم الحيوان وصورة واحدة إلى العالم الإنساني ، فالشّاعر يريد بذلك تعميق الإحساس بكارثة الموت وفداحتها . غير أن رثاء أبي ذؤيب لأولاده يعدّ صورة قريبة

من الرّثاء الجاهلي ، فقد ألف شعراء الرثاء - في الجاهلية - أن يندمجوا في الطبيعة بدرجة أكبر ، ربما لأنها أوسع بوتقة تسع أحزانهم ، أو ربما تحزن بقدر ما يحزنون ، وهي في الوقت نفسه المسرح الذي تجري فوقه وقائع القدر أو تتحد ضرباته في شتّى الأشكال (٢٩) . ولا شك أن أبا ذؤيب الّذي عاش صدر شبابه في العصر الجاهلي يعتبر امتدادًا - في هذه القصيدة - للشعر الجاهليّ ، فهو لم يستطع الخروج عن الحدود التي سبقه فيها كثيرٌ من الشعراء إلا بما سمحت له قدرته على التعبير ، ومهارته في استخدام الصور واختيار الألفاظ والمعاني الملائمة للجو الشعريّ الذي يريد أن يعبر عنه .

غير أننا نجد لونًا جديدًا من الرّثاء استحدثته الحياة الإسلامية وما ساد فيها من مفاهيم الدِّين الإسلامي ، فقد كان بعض المجاهدين يرثون ما يفقدون من أعضاء أجسامهم في ساحات القتال أثناء معاركهم ، ويفخرون بما فقدوا وبما أصيبوا من جراحات ، مستهينين بها لأنها في سبيل الله ، ولأنها قد أوقعت بالأعداء قبل فقدها ، وتبدو الشَّجاعة والبسالة والاحتمال والصَّبر في هذا الرّثاء .

وقد ظهرت بدايات هذا الرّثاء أثناء الحروب الَّتي قامت بين المسلمين والكفار زمن الرسول ﷺ ، ففي موقعة بدر قطعت رِجل عبيدة بن الحارث فاحتسبها في سبيل الله ، وعدّها وسيلة لدخول الجنة حيث النعيم الدّائم والسَّعادة الأبدية . يقول عبيدة (٣٠) :

فَإنْ تَقْطَعوا رِجْلي فَإنّي مُسْلِمٌ — أرَجّي بِها عَيْشًا مِنَ اللهِ دانِيا

مَعَ الحورِ أمثالِ التَّماثيل أخْلِصَتْ — مَعَ الجنة العُلْيا لِمَنْ كانَ عالِيا

وَبِعْتُ بِها عَيْشًا تَعَرَّفْتُ صَفْوَهُ — وَعالَجْتُهُ حَتّى فَقَدْتُ الأدانِيا

فأكْرَمني الرَّحْمَنُ مِنْ فَضْلِ مَنِّهِ — بِثَوْبٍ مِنَ الإسلامِ غَطّى المساوِيا

وَما كانَ مَكْروهًا إليَّ قِتالُهُمْ — غَداةَ دَعا الأكْفاءَ مَنْ كانَ داعِيا

وفي فتح بلاد فارس يطعن أحد جنود الفرس علباء بن جحش العجلي في بطنه فتخرج أمعاؤه ، فلا يجزع ولا يتردّد ، ودفع بها إلى بطنه وارتجز وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة قائلاً (٣١) :

أرْجـو مِـنْ رَبِّنا ثَوابـــا — قَدْ كُنْتُ مِمَّنْ أحْسِنُ الضِّرابا

ولما فقد عثمان بن مظعون عينَه من لطمة أودت بها قال (٣٢) :

فَإنْ تَكُ عَيْني في رضا الرَّبِّ نالَها ... يدا مُلْحِدٍ في الدّين لَيْسَ بِمُهْتَدِ
فَقَدْ عوَّض الرَّحْمَنُ عَنْها ثَوابَهُ ... وَمَنْ يرضه الرَّحْمَنُ يا قَوْمُ يَسْعَدِ

وبعد أن قطعت رجل حياض بن قيس القشيري في موقعة اليرموك على يد أحد جنود الروم ، قال يرثيها (٣٣) :

أقدم حزام إنَّها الأساوِرَة ... لا تغرنك رجل نادِرَة
أنا القشيري أخو المهاجرة ... أضربُ بِالسَّيْفِ رءوسَ الكافِرَة

وهذا أخو بني كاهل وقد قطع أحد فرسان العدو رجله فراح يحتسبها عند الله قائلاً (٣٤) :

صبرًا عفاق إنَّها الأساوِرَة ... صَبْرًا ولا تغرّنَّكَ رجل نادرة

ومن تلك الصور المعبرة أيضًا ما صوَّره عبد الله بن سيرة الحرشي عندما قطعت يدُه أثناء مبارزته لأرطبون الروم في يوم « فلطاس » ، نراه يحتسبها عند الله ، ويشيد بما فعلته في سبيل نصرة دين الإسلام ، فقد أطاحت برأس القائد الرومي قبل قطعها ، يقول عبد الله (٣٥) :

ويل أم جار غداة الرَّوْعِ فارَقني ... أهون عَليّ بِهِ إذْ بانَ فَانْقَطَعا
يُمنى يدي عدتْ مِنّي مُفَارقة ... لَمْ أسْتَطِعْ يَوْمَ فلطاس لَها تبعا
وما ضننت عليها أنْ أصاحِبَها ... ولقد حَرَصْتُ عَلى أنْ نَسْتريحَ مَعًا
وقائل غابَ عَن شأني وقائلة ... هَلا اجْتَنَبْتَ عدو الله إذ صرعا
وَكَيْفَ أتْرُكُهُ يسعى بمنصلِهِ ... نَحْوي وأعجزُ عَنْهُ بَعْدَما وقعا
ما كانَ ذَلِكَ يوم الرَّوْعِ مِنْ خُلُقي ... وَلَوْ تَقاربَ مِنّي الموتُ فاكتنعا
يَمْشي إلى مستميت مثله بَطَل ... حَتّى إذا أمكنا سيفيهما قِطعا
فإنْ يَكُنْ أرْطبونُ الرّوم قَطعَها ... فَقَدْ تَرَكْتُ لَها أوصالَهُ قِطَعا
وَإنْ يَكُنْ أرْطبونُ الرّوم قَطعها ... فَإنَّ فيها بِحَمْدِ اللهِ مُنْتَفَعا
بنانتين وجرموزا أقيمُ بها ... صدر القناة إذا ما آنَسوا فَزَعا

فالشّاعر يرثي يده بروح مؤمنة قوية ، وتمنى لو لحقها واستشهد معها ، ولكنه لم يستطع ، ولم يكن هذا جبنًا منه ، فقد قاتل بشجاعة وحرص على الشَّهادة ولكن كتبت له الحياة ، فليس كل ما يتمنى المرء يدرك ، ونراه ينكر ملامة من يلومونه على التعرُّض لهذا البطل الرّومي ، لأنه

شجاع لا يليق ببطل مثله أن يجبن أمام هذا الفارس ، فسعى نحوه بسيفه ، ونال من خصمه ، وأخذ يسقيه كأس الموت حتى آخرها ، وتركه مقطَّع الأوصال صريعًا ، في حين لم يفقد هو إلا يده .

ومن لطف الله عليه أن هذه اليد لم تفسد كلها ، فقد بقي منها ما يمكنه من الجهاد والنضال للدفاع عن الإسلام والمسلمين عندما يتهددهم خطر أو يأنسون أي فزع .

ومن قصائد الرثاء الرائعة الَّتي قيلت خلال فتوح العرب لبلاد الفرس قصيدة رثى فيها كثير بن الغريزة النهشلي شهداءَ المسلمين ممن أصيبوا في معارك الطالقان وجوزجان في عهد عمر بن الخطاب ، وفيها يرثي نفسه أيضًا رثاء رائعًا فيقول (٣٦) :

سَقى مزن السَّحابِ إذا استهلَّت ... مصارعُ فِتْيَـة بالجوزجـانِ
إلى القَصْرَيْن من رستان خرط ... أبادهم هُنـاكَ الأقرعـانِ
ما بِي أنْ أكونَ جزعتُ إلا ... حَنين القَلْبِ لِلبرقِ اليَماني
وَمَحْبور برُؤْيَتِنا يرجي الـــ ... ـلقاءَ وَلَنْ أراهُ وَلَنْ يَراني
وربّ أخٍ أصابَ الموت قَبْلي ... بَكيتُ وَلَوْ نعيتُ لَهُ بَكاني
دعاني دَعْوَةً والخيلُ تردي ... فَما أدْري أ بِاسْمي أم كناني
فَكانَ إجابتـي إيـاه أنّـي ... عطفتُ عَلَيْهِ خواز العنانِ
وَأيّ فَتًى دَعَوْت وَقَدْ تولت ... بِهِنَّ الخَيْل ذات العنظـوانِ
وَأيّ فتًى إذا ما متّ تَدْعو ... يطرفُ عَنْكَ غاشِيَة السنانِ
فَإنْ أهلك فَلَمْ أكُ ذا صدوف ... عَنِ الأقْرانِ في الحربِ العوانِ
ولم أدلج لأطرق عِرْسَ جاري ... وَلَمْ أجْعَلْ عَلى قَوْمي لِساني
وَلَكِنّي إذا مـا هايجونـي ... مَنيعُ الجـارِ مُرْتَفعُ البنـانِ
وَتَكرهني إذا استبسلت قرني ... وَأقْضي واحِدًا ما قَدْ قَضاني
فَلا تستبعدا يَوْمي فَإنـي ... سأوشك مَرَّة أنْ تفقدانـي
ويدركني الَّذي لا بُدَّ مِنْـهُ ... وَإنْ أشفقت مِنْ خَوْفِ الجنانِ
وتبكيني نوائح معـولات ... تَرَكْنَ بدار معترك الزَّمـانِ
حبائس بالعراق منهنهـات ... سواجي الطَّرْفِ كَالبَقَرِ الهجانِ

والشّاعر يبدأ القصيدة بالدعاء لأصحابه باستنزال الغيث ليسقي قبورهم ، ثم يثير في نفسه ذكرياته الماضية ، ويتمنى لو عاد إلى أهله ومرابع صباه ، ثم نراه يحزن ويتألّم على مَنْ قتل مِن هؤلاء الشهداء في هذه البلاد البعيدة عن أوطانهم ، ومما زاد جزعه ، حنينه لموطنه وإلى من تركهم في العراق ؛ إذ ربما لا يلقاهم بعد ذلك ، فما حدث لأصحابه سوف يحدث له ، ومن ثمَّ لا فرق بين أن ينعى إليه أخ أو أن ينعى هو إليه ، وهنا يقرِّر الشّاعر أنه لا فائدة من الخوف والجزع لأنه قام بواجبه بشجاعة وثبات . ويؤبِّن الشّاعر نفسه بذكر بعض صفاته الَّتي ستخلّد ذكراه ، فهو شجاع لا يجبن عند ملاقاة الأعداء ، وقد لبى نداء أخيه الَّذي استنجد به أثناء القتال وعطف عليه ببسالة فائقة يذود عنه الأعداء ، وهو عفيف لم يدنِّس نفسه بالنَّظر إلى عرس جاره ، ولم يؤذ غيره بلسانه ، وهو منيع الجار ، أبيّ لا يقبل الضَّيْم ، ثم يعبِّر الشاعر عن دنوّ أجله ، وإحساسه بقرب موته ، فالموت لا مفرَّ منه ، وعندئذ سوف تبكي عليه نائحات منهنهات في العراق . وهكذا نجد الشّاعر – وإن كان حزينًا جزعًا على من قتل وعلى نفسه أيضًا – مؤمنًا بحتمية الموت ونهاية الحياة ، ولم لا فقد أدى واجبه في قتال الأعداء وفي سبيل نشر الدّين الإسلامي ؛ ومن ثم لم نجد في هذه المرثية الجزع والوله الَّذي كنا نراه في الرّثاء الجاهلي .

والحنين للوطن وللأهل غرض من أغراض الشعر ، ازدهر أثناء الفتوحات الإسلامية ؛ ذلك لأن تلك الفتوحات قد انتزعت المجاهدين من أوطانهم ومن بين ذويهم وأحبابهم ؛ ومن ثم وجدنا كثيرًا من الشُّعراء يتحدثون عن حنينهم وتشوّقهم للأهل ولمرابع صباهم ، ويشكون ويبكون من الاغتراب والبعد ، بأشعار تتدفَّق فيها حرارة العاطفة وصدق المشاعر . وتذكّرنا هذه الأشعار بالوقوف والبكاء على الأطلال الَّذي شاع في العصر الجاهلي ، وإن كان الحنين في شعر الفتوحات يمتاز بجيشان العاطفة وتدفقها . ومن ذلك قول أحد الشُّعراء (٣٧) :

أحنُّ إلى أرْضِ الحِجازِ وَحاجَتي ... وخيام بنجد دونها الطرف يقصر
وَما نَظري مِنْ نحو نجد بنافع ... أجَلْ لا وَلَكِنّي إلى ذاك أنْظُرُ
أ في كُلِّ يوم نظرة ثم عبرة ... لِعَينك مجرى مائها يتحدر ؟
متى يستريح القلب إما مجاوز ... بحرب وإما نازح يتذكر ؟

وهذا شاعر آخر يبكي على نجد وعلى صاحبته الَّتي بها ويحن إلى ترابها وطيب مناخها ، ويتألّم من غربته ، حيث يعيش بين قوم لا صلة بينه وبينهم ؛ فهم ليسوا من عشيرته ولا يتكلمون لغته ، فيقول (٣٨) :

أ تَبْكي عَلى نَجد وَرَيّا وَلَنْ تَرى بعَيْنِك رَيّا ما حَييتَ وَلا نَجْدا
وَلا مشرفًا ما عشت أقفار وجرة وَلا واطئًا من تربهن ثَرًى جَعدا
وَلا واجِدًا ريحَ الخُزامَى تَسوقُها رِياحُ الصّبا تَعْلو دكادك أو وهدا
تبدلت مِنْ رَيّا وجارات بينها قرى نبطيات يسمينني مـــردا
ألا أيُّها البرق الَّذي باتَ يرتقي وَيَجْلو دجى الظلماء ذَكَّرْتَني نجدا

أما رثاء النفس فقد عَرَفه الشُعراء في الجاهلية ، وكثر الَّذين ناحوا على أنفسهم ، وأوصوا أهلهم بما يفعلون بعد موتهم ، وأرسلوا خيالهم فيما سيكون من أمرهم بعد الموت ، ومن هؤلاء الشُعراء المتلمّس والسموأل والممزق العبدي أو يزيد خذاق والأفوه الأودي والأسود بن يعفر وعبد يغوث بن وقاص (٣٩) .

لم يكن الشّاعر الجاهلي يهتم بإظهار صفاته الَّتي ستخلد ذكراه ، وربما يسوق حِكْمة أو موعظة أو نصيحة ، مؤداها أن الحياة لا تدوم لأحد وأن كل شيء سيفنى لا محالة .

وأما في الفتوحات الإسلامية ، فنجد أن بعض الشُعراء قد رثوا أنفسهم أيضًا قبل موتهم ، من ذلك القصيدة الَّتي تناولناها منذ قليل لكثير بن الغريزة ، ومن ذلك أيضًا أخو بني كاهل الذي يرثي نفسه وينعيها إلى أخيه ، ويدعوه إلى الصبر في لقاء الأعداء ، وكأنه يستخلفه مكانه فيقول :

وَجاشت النفس على التّراق صَبْرًا عفـاق إنـه الفـــراق

بقي أن نتحدث عن لون جديد من الرّثاء ظهر عند بعض الشُعراء في عهد عمر بن الخطاب ، ذلك هو رثاء الخمر والبكاء عليها ، فعندما بلغ عمر أن بعض الجنود في الشام يشربون الخمر ، أمر بإحراق الحانات ، مما جعل الشعراء يتحسَّرون عليها ويبكونها ضائقين بما أمر به عمر . من ذلك قول أبي محجن الَّذي شهد اليرموك (٤٠) :

أ لَمْ تَرَ أنَّ الدَّهْرَ يَعثرُ بِالفَتى وَلَيْسَ عَلى صَرْفِ المنونِ بِقادِرِ
صبرتُ وَلَمْ أجزعْ وَقَدْ ماتَ إخْوَتي وَلَسْتُ عَلى الصَّهْباءِ يَوْمًا بِصابِرِ
رَماهـا أميرُ المؤمنينَ بِحَتْفِهـا فخلانها يَبْكونَ حَوْلَ المعاصِرِ
فَلا تجلدوهُم وَاجْلدوها فَإنَّهـا هِيَ العيش لِلْباقي وَمن في المعاصِرِ

وحزن الشاعر وجزعه على ما أصاب الخمر عظيم لا يدانيه جزعه وحزنه على موت إخوته وفقده لهم ؛ ومن ثم فهو لا يستطيع الصَّبر على فراقها .

ويذكر ابن قتيبة في كتاب الأشربة « أن العرب كانوا يشربون الخمر لتزيدهم جرأة وشجاعة ، ولا نعجب حين نعلم أن بعض الَّذين حاربوا في بدر من المسلمين – على ما رزقوه من شجاعة وحماسة للدين الجديد طلبًا للشهادة – قد اصطحبوا معهم الخمر ليتشجّعوا على القتال . »[٤١] وهذه الإشارة تشير إلى ارتباط شرب الخمر بالفروسية ، على أساس أن الخمر تبدِّد تعب المرء وتبعث في الجسم نشاطًا وقوة لا يجدها صاحبُها حين يكون صاحيًا . وعلى هذا فالشّاعر يحرص على شرب الخمر ، ليزداد قوة وجرأة على مواجهة عدوّ غاشم متربِّص به دائمًا ، ذلك العدو هو الموت كما يتضح من البيت الأول ، وبما أن المعركة مستمرة بينه وبين الموت فهو كثير الشرب .

ولا شك أن هذه نزعات جاهلية لم يستطع الشّاعر التخلُّص منها رغم إسلامه ، ورغم تحريم الخمر ، لكننا نراها تظهر أحيانًا عند بعض الشُّعراء . وقد تاب هذا الشّاعر بعد أن أقام عليه عمر ابن الخطاب الحدّ عدة مرات وبعد أن حبسه سعد بن أبي وقاص بالقادسية ، وقد قال في ذلك[٤٢] :

أَتوبُ إلى اللهِ الرَّحيمِ فَإِنَّهُ ... غَفورٌ لِذَنْبِ المرْءِ ما لَمْ يعاوِدِ
وَلَسْتُ إلى الصَّهْباءِ يَوْمًا بِعائِدٍ ... وَلا تابِعٍ قَوْلَ السَّفيهِ المعانِدِ

رثاء الخلفاء الراشدين

وكما شارك الشُّعراء في الرثاء وقت الحرب ، شاركوا أيضًا فيه وقت السلم ، فقد رثى الشُّعراء الخلفاء الراشدين وغيرهم ممن ماتوا أو قتلوا بأيد أثيمة مثل عمر وعثمان وعلي ، رضي الله عنهم .

وقد تناول الشُّعراء حياةَ هؤلاء الخلفاء ، يؤبنونهم ويذكرون فضائلهم وخصالهم ومناقبهم ، وما سلكوه في حُكْمهم من عدل ، وما أخذوا به أنفسهم من طاعة الله ورسوله والعمل بدعوته ، من ذلك رثاء أبي محجن الثقفي لأبي بكر الصِّديق ، عندما انتقل إلى جوار ربه في السنة الثالثة عشرة للهجرة ، فهو يقول[٤٣] :

وَسُمِّيتَ صِدِّيقًا وَكُلّ مُهاجِرِ سِواكَ يُسَمَّى باسْمِهِ غَيْرَ منكرِ
وَبِالغارِ إذْ سُمِّيتَ بِالغارِ صاحِبًا وَكُنْتَ رَفِيقًا لِلنَّبِيِّ المطهّرِ
سَبقتَ إلى الإسْلامِ وَالله شاهِدٌ وَكُنْتَ جَليسًا بِالعريش المشهرِ

وهذا الشِّعر رغم ضعفه الفني تظهر فيه الروح الإسلامية والتأثّر بالقرآن الكريم ، فهي تتناول قوله تعالى : ﴿ إلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله ، إذْ أخْرَجَهُ الَّذينَ كَفَروا ثانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُما في الغارِ ، إذْ يَقولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنا . ﴾ (٤٤)

ونجد لحسان بن ثابت أبياتًا في رثاء أبي بكر يقول فيها (٤٥) :

إذا تذكرت شجوًا مِنْ أخي ثقة فَاذكُرْ أخاكَ أبا بَكْرٍ بما فَعَلا
خَيْر البَرية أتْقاها وَأرفأها بَعْدَ النَّبِيِّ وَأوْفاها بِما حملا
التّالي الثّاني المحمود سيرته وَأوّل النّاسِ منهم صدق الرُّسلا
وَكان حب رسول الله قَدْ علموا من البرية لَمْ يعدْل بِهِ رَجُلا
عاشَ حَميدًا لأمر اللهِ مُتَّبِعًا بِهَدي صاحِبِهِ الماضي وَما انتقلا

فهو يتحدث عن فضائل أبي بكر الَّتي عرَفها المسلمون ، كالتَّقوى والزهد والعدل ، ويعرض لمنزلته من الرسول ، ويذكر أنه أول من صدّق به وبرسالته ، وهذا الشِّعر بما فيه من ملامح إسلامية يذكِّرنا بشعر حسان في تأبين الرسول ﷺ بعد وفاته ، وإن كانت هذه الأبيات أقل جودة مما رثا به الرسول ؛ إذ يبدو أن حسان كان بعيدًا عن الانفعال بالأحداث التي تلت وفاة الرسول ، وكأن عهد الرسول كان ملْهِمًا له .

ولما قتل الفاروق عمر بن الخطاب بطعنة آثمة غادرة ، بيد أبي لؤلؤة المجوسي ، لم يلبث أن بكاه المسلمون ، ومن ذلك رثاء جزء بن ضرار الغطفاني الَّذي يقول فيه (٤٦) :

جَزَى الله خَيْرًا مِنْ أميرٍ وبارَكَتْ يَدُ الله في ذاكَ الأديمِ المُمَزَّقِ
فَمَنْ يَسْعَ أوْ يَرْكَبْ جَناحي نَعامَةٍ لِيُدْرِك ما حاوَلْتَ بالأمسِ يستبقِ
قَضَيْتَ أمورًا ثُمَّ غادَرْتَ بَعْدَها بَوائِقَ في أكْمامِها لَمْ تُفَتَّقِ
أ بَعْـدَ قَتيلٍ بِالمدينَـةِ أظْلَمَـتْ لَهُ الأرْضُ تَهْتَزُّ العِضاه بأسوقِ
تَظَلُّ الحصانُ البِكْرُ يلْقى جَنينها نثى خبر فَوْقَ المطيِّ معلقِ
وَما كُنْتُ أخْشَى أنْ تَكونَ وَفاتُهُ بِكَفَّيْ سَبَنْتَى أزْرَقِ العَيْنِ مُطْرِقِ

وهذه صورة جديدة من صور الرثاء ، فالشّاعر لم يستمطر السُّحب لتنزل على قبره ، على عادة الجاهليين ، بل دعا الله أن يجزيه أحسن الجزاء ، واستمطر رحمته عليه وتحدّث عن سياسته وعدله . ولا شكَّ أن عمر بن الخطاب كان مثلاً عظيمًا للعدل والتَّقوى ؛ ومن ثم فقد هزَّ موته نفوس ومشاعر وعواطف المسلمين ، ورغم أن الأبيات السّابقة في رثائه تتَّسم بالبساطة والقِلَّة ، فإن الشاعر يرثي في عمر عدلَه ورعايته شئون المسلمين ومصالحهم ؛ ولذلك كانت وفاته مصيبة كبرى للمسلمين .

وقد رثى حسان أيضًا عمر بن الخطاب بأبيات قليلة يظهر فيها أثر القرآن ، فقال [٤٧] :

فَجَّعَنـــا فَيْـــروزُ لا دَرَّ دَرُّهُ ... بِأبْيَضَ يَتْلو المُحْكَماتِ مُنيبِ
رَءوفٍ عَلى الأدْنى غَليظٍ عَلى العِدا ... أخي ثِقَةٍ في النّائباتِ نَجيبِ
مَتى ما يَقُلْ لا يَكْذِبُ القَوْلَ فِعْلُهُ ... سَريعٍ إلى الخَيْراتِ غَيْرِ قَطوبِ
مُطيعٍ لِأمْـرِ اللهِ بِالحَـقِّ عـارِفٍ ... بَعيدُ الأنـامِ عِنْـدَهُ كَقَريـبِ

وهذه الأبيات تخلو من العاطفة والتأثّر ، ولا ترتفع إلى مستوى الفاروق عمر ومكانته الإسلامية و ورعه وزهده وعَدْله .

وعندما قتل عثمان بن عفان على يد الفئة الباغية بعد الفتنة وإثارة الشعب سنة خمس وثلاثين للهجرة هب الشعراء يبكونه ويرثونه ويتوعَّدون القتلة ، ويدعون الناس إلى أن يثوبوا لرشدهم ، وأن يجاهدوا في سبيل الله بدلاً من أن ينصرفوا إلى الفتنة والضلال . يقول حسان بن ثابت [٤٨] :

أ تَرَكْتُم غَزْوَ الدّروبِ وَجِئْتُــم ... لِقِتالِ قَوْمٍ عِنْدَ قَبْرِ مُحَمَّــدِ
فَلَبِئْسَ هَدي الصّالِحينَ هديتم ... وَلَبِئْسَ فعل الجاهِلِ المُتَعَمِّدِ

إلى أن يقول :

وَكأن أصحابَ النَّبيِّ عَشيــة ... بدن تنحر عِنْدَ باب المسْجدِ
فَابْكِ أبا عمرو لِحُسْنِ بَلائِهِ ... أمْسى مُقيمًا في بَقيع الغَرْقَدِ

وهكذا يعود حسان مرة أخرى إلى المشاركة في أحداث عصره ، بعد أن اختفى تقريبًا في عهد أبي بكر وعمر ، فهو يستصرخ المسلمين لأخذ ثأر عثمان ، فيقول [٤٩] :

مَنْ سَرَّهُ الموْتُ صِرْفًا لا مِزاجَ لَهُ فَلْيَأتِ مَأسَدَةً في دارِ عُثْمانا
مُسْتَحْقِبي حَلَقَ الماذِيِّ قد شَفَعَتْ فَوْقَ المخاطِمِ بيض زانَ أبْدانا
شَدّوا السُّيوفَ بِثِنْي في مَناطِقِهِمْ حَتّى يَحينَ بها في المَوْتِ مَنْ حانا
لَعَلَّكُم أنْ تَرَوْا يَوْمًا بِمَغْبَطَةٍ خَليفَةَ اللهِ فيكُم كَالَّذي كانا

إلى أن يقول :

ضَحّوا بأشْمَطَ عُنْوانُ السُّجودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبيحًا وَقُرْآنــــا
لَتَسْمَعُنَّ وَشيكًا في دِيارِهِــــمُ اللهُ أكْبَرُ يا ثــاراتِ عُثْمانـــــا

ويظهر أن حسان كان عثماني الهوى ، فأبو الفرج الأصفهاني يروي « أن حسان بن ثابت والنعمان بن بشير وكعب بن مالك كانوا عثمانية ، وكانوا يقدمون بني أمية على بني هاشم . »(٥٠)
وجاء عن عبد الله بن الحسن قال : « لما قتل عثمان – رضي الله عنه – بايعت الأنصار عليًا إلا نفرًا يسيرًا ، منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت . . كانوا عثمانية . »(٥١)

وقد اتسم رثاء حسان لعثمان رضي الله عنه بصِدْق العاطفة وتأجُّجها ، وغلبة الانفعال والحزن عليه ، على خلاف ما رأينا في رثاء أبي بكر وعمر . يقول حسان في تأبين عثمان وتعديد مناقبه وصفاته(٥٢) :

يا لَلرِّجال لِدَمْعٍ هاجَ بِالسنن أني عجبتُ لِمَنْ يَبْكي عَلى الدّمنِ
إنّي رَأيْتُ أمينَ الله مُضْطَهدًا عثمان رهنًا لَدى الأجْداثِ وَالكفنِ
يا قاتَلَ الله قَوْمًا كانَ شأنهم قَتْلَ الإمام الأمينِ المُسْلِم الفَطِنِ
ما قَاتَلوهُ عَلى ذَنْبٍ ألَمَّ بِهِ إلا الَّذي نَطَقوا بوقًا وَلَمْ يَكُنِ
إذا تَذَكرته فاضت بِأرْبَعَةٍ عَيني بِدَمْعٍ عَلى الخَدَّيْنِ محتتن

فهو يثير في الناس العواطف الدينية من خلال تصوير الظلم الذي لحق بعثمان وانتهى بقتله .

وبكاه أيضًا أيمن بن خريم بقوله(٥٣) :

ضحوا بعُثْمان في الشَّهْرِ الحَرامِ ضحى وَأيّ ذبح حرام لَهم ذَبَحوا
إنَّ الَّذينَ تَوَلَّوْا قَتْلَهُ سَفَهًا لاقوا أثامًا وَخُسْرانًا فَما رَبحوا
ماذا أرادوا أضَلَّ الله سَعْيَهُم بِسَفْحِهِمْ لِلدَّمِ الزّاكي الَّذي سَفَحوا

ويرثيه حميد بن ثور الهلالي بقوله [٥٤] :

إنّي وَرَبِّ الهَدايا في مَشاعِرِها ... وَحَيْثُ يقضي نذورَ النّاسِ والنَّسك
وَرَبِّ كل منيب باتَ مُبْتَهِلاً ... يَتْلو الكِتابَ اجْتِهادًا ليس يترك
لا أنكرن الَّذي أوْلَيْتَني أبَدًا ... حَتّى أعد مَعَ الهَلْكى إذا هَلَكوا

والشّاعر يعتمد في رسم صوره على تكرار القسم لتقرير معانيه وتأكيدها ، وهو في ذلك متأثِّر إلى حَدٍّ كبير بالأفكار والمفاهيم والحياة الإسلامية الجديدة .

كانَ لمقتل عثمان ظلمًا وبهذه الصورة البشعة أثرٌ كبير في نفوس الشُّعراء فكثرت الاتِّهامات ، واحتدم النقاش بين سائر المسلمين حول الخلافة ، فالوليد بن عقبة يحمّل بني هاشم قتل عثمان ، ويرميهم بالغدر فيقول [٥٥] :

بَني هاشِمٍ إنّا وَما كانَ بَيْنَنا ... كصدع الصَّفا ما يومضى الدَّهْر شاعبه
بَني هاشِمٍ كَيْفَ الهوادةُ بَيْنَنا ... وَسَيْف ابْنِ أروى عِنْدَكُم وَحَرائِبه
بَني هاشم رُدّوا سِلاحَ ابْنِ أخْتِكُم ... وَلا تَنْهبوهُ لا تحل مَناهبه
غَدَرْتُم بِهِ كَيْما تَكونوا مَكانَهُ ... كَما غَدَرَتْ يَوْمًا بِكِسْرى مرازِبُه

ويرد بنو هاشم هذه التهمة عنهم ويضعونها في عنق أهل الأمصار ، فهذا شاعرهم الفضل بن العبّاس بن عتبة بن أبي لهب يجيب الوليد بقوله [٥٦] :

فَلا تَسْألونا سَيْفَكم إنَّ سَيْفَكم ... أضيع وَألقاه لَدى الرّوع صاحِبُه
سَلوا أهْلَ مِصْرَ عَنْ سِلاحِ ابْنِ أخْتِنا ... فَهُم سَلَبوهُ سَيْفَهُ وَحَرائِبه
وَكانَ وَليّ الأمْرِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... عَليّ وَفي كُلِّ المواطِنِ صاحِبه
عَلِيّ وَلِيّ اللهِ أظْهَرَ دينَهُ ... وَأنْت مع الأشقين فيما تُحاربه
وَأنْتَ امْرُؤٌ مِنْ أهْلِ صفواء نازح ... فَما لَكَ فينا مِنْ حَميم تُعاتبه
وَقَدْ أنْزَلَ الرَّحْمَنُ أنَّكَ فاسِقٌ ... فَما لَكَ في الإسْلامِ سَهْمٌ تُطالِبه

والفضل يرى أن عليّا كان أحق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ .

وهذه النقيضة – بما فيها من هجاء للوليد – تذكِّرنا بالنقائض التي كانت بين شعراء قريش واليهود من جهة و المسلمين من جهة أخرى ، والتي قيلت أثناء المعارك والغزوات بينهم من أجل

إعلاء كلمة الحق ، ورفع راية الإسلام عالية خفّاقة .

وتتابع الأحداث بسرعة بعد مقتل عثمان ، فيتولى عليّ بن أبي طالب الخلافة ، وينقسم المسلمون شيعًا وأحزابًا ، وتبدأ الحروب بينهم ، وينشط الشِّعر في تلك الفترة مسجلاً أهم الأحداث التي دارت بين عليّ وأعدائه ومعارضيه ، ولم يكتفِ الشعراء بذلك ، بل شاركوا في رثاء الَّذين سقطوا في ميادين القتال وفي رثاء عليّ نفسه بعد اغتياله .

ففي موقعة صفين يسقط عمّار بنِ ياسر صريعًا فيرثيه الحجاج بن غزية الأنصاري بقوله (٥٧) :

يا لَلرِّجالِ لِعَيْنٍ دمعها جاري	قَدْ هاجَ حُزْني أبو اليقظان عمار
أهوى إليه أبو حوا فوارسه	يَدْعو السكون وَلِلْجَيْشَيْنِ إعصار
فاختل صدر أبي اليقظان معترضًا	للرمح ، قَدْ وجبت فينا لَهُ النّار
وَالله عن جمعهم لا شك كانَ عفا	أَتَتْ بِذَلِكَ آيـاتٌ وَآثـار
من ينزع الله غلا مِنْ صُدورِهِم	عَلى الأسرة لَمْ تمسسهم النار
قالَ النَّبِيُّ له تقتلك شِرذمةٌ	سيطت لحومهم بالغي ، فجّار
فاليوم يعرف أهل الشام أنهم	أصحاب تلك وفيها النار والعار

وهو يشير في هذه الأبيات إلى مقولة رسول الله ﷺ بأن عمارًا تقتله الفئة الباغية .

وممن نجد أثر الإسلام واضحًا في شعرهم نهشل بن حريّ الذي رثى أخاه مالكًا بعد أن قتل بصفين ، فقال (٥٨) :

أناس صالحون نَشأت فيهـم	فأودوا بَعْدَ ألف وَاتِّسـاق
أرى الدُّنْيا وَنَحْنُ نَعيشُ فيها	مولية تهيـأ لانطـلاق
أ عاذل قَدْ نعيت بقاء قيـس	وَما حَيّ عَلى الدُّنْيا بِبـاقِ

والشّاعر يعزي نفسه إزاء من فقد مِن أهله وأشراف قبيلته ، وهذا العزاء يقوم على التّسليم بقضاء الله والصَّبر على كارثة الموت ، وتلك سُنَّة الكون ، فالناس راحلون إلى قبورهم ، وكلّ نفس ذائقة الموت .

ورغم أن الفقد والقتل كان وقعهما أليمًا على النفوس ، فقد جاء رثاؤهم معبِّرًا عن وجهة نظرهم فيما يحدث بين المسلمين من قتال ، فهذه امرأة عراقية تندب أولادها الثلاثة كانوا في

جيش عليّ أثناء موقعة صِفّين ، فتقول [٥٩] :

أ عَيْنيَّ جودا بِدَمْعٍ سَـــربٍ   عَلى فِتْيَةٍ مِـنْ خِيـارِ العـربِ
وما ضرهم غير حن النفوس   بأي امرئ من قريش غلـبِ

فهي ترى أن المعركة بين فريقين من قريش على السلطة ، وليست في سبيل مصلحة الإسلام والمسلمين ، وكأنها تسخط وتتذمَّر مما يحدث .

وخرجت امرأةٌ من عبد القيس تطوف في القتلى بعد موقعة الجمل ، فوجدت ابنين لها قد قتلا ، وقد كان قتل زوجها وأخوان لها فيمن قتل ، فأنشأت تقول [٦٠] :

شهدتُ الحروبَ فَشَيَّبْنَني   فَلَمْ أرَ يَوْمًا كَيَوْمِ الجمـلْ
أضرَّ عَلى مؤمن فتنــة   وأقتله لِشُجاعٍ بطــلْ
فَلَيْتَ الظَّعينَةَ في بَيْتِهـا   وَلَيْتَكَ عَسْكر لَمْ تَرْتَحِلْ

فمصيبة هذه المرأة عظيمة ، ولكنها لم ترثِ قتلاها بتعديد صفاتهم ومناقبهم ، وإنما هي حزينة متألمة على ما أصاب المسلمين جميعًا ، وما آلت إليهم حالُهم ، وتمنت لو لم يخرجوا للحرب ، فهي أيضًا ساخطة على ما يحدث بين أبناء الأمة الإسلامية .

وفي هذه الفِتْنة قتلَ عمرو بن جرموز الزبير بن العوام فرثته زوجته عاتكةُ بنت زيد بن عمرو ابن نفيل ، فقالت [٦١] :

غدر ابْن جرموز بِفارسٍ بهمةٍ   يَوْمَ اللِّقاءِ ، وَكانَ غَيْر مسدَّدِ
يا عَمْرو ، لَوْ نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ   لا طائِشًا رعشَ الجنانِ وَلا اليَدِ
هبلْتكَ إن قلـت لمسلمًـا   جلتْ عَلَيْكَ عُقوبَةُ المتعمدِ
ما إنْ رَأيْت وَلا سَمِعْت بِمِثْلِهِ   فيمَنْ مَضى مِمَّنْ يَروحُ وَيَغْتَدي

ورثته أختُه زينب بنت العوام ، وقد حضرت موقعةَ الجمل ، وكان لها دورٌ في التَّحريض على حرب علي ، ورثت معه ولدَها عبد الله بن حكيم بن خزام ، فقالت :

أ عَيْنَيَّ جودا بِالدُّموعِ فأسْرعـا   عَلى رَجُلٍ طَلْقِ اليَدَيْنِ كَريمِ
زُبَيْر وَعَبْدِ الله يُدْعى لِحـادِثٍ   وَذي خِلَّةٍ مِنّا وَحمـل يتيـمِ

وفي موقعة صِفّين تدور رَحَى الحرب بين جيشي عَليّ ومعاوية ، ويسقط كثيرٌ من القتلى ، فيهبُّ الشُّعراءُ لبكائهم وتأبينهم ، من ذلك رثاء نهشل بن حرس التميمي لأخيه مالك الَّذي قُتِل في تلك المعركة ، فهو يقول (٦٣) :

تَطاوَلَ هَذا اللَّيْلُ ما كادَ يَنْجَلي ... كَلَيْلِ التَّمام ما يُريدُ انْصِراما
فَبت لِذِكْرى مالِكٍ بِكآبَةٍ ... أؤرقُ مِنْ بَعْدِ العِشاءِ نياما
أبَى جَزَعي في مالِكٍ غَيْرَ ذِكْرِهِ ... فَلا تَعْذليني أنْ جَزِعتُ أُماما
سَأبْكي أخي ما دام صَوْتُ حَمامَةٍ ... يُؤرقُ مِنْ وادي البطاحِ حَماما
وَأبْعَثُ أنْواحًا عَلَيْهِ بسحرةٍ ... وَتَذْرِفُ عَيْناي الدُّموعَ سجاما
وَأدْعو سراةَ الحَيِّ يبكونَ مالِكًا ... وَأبْعَثُ نوحًا يلتدمن قِياما
يقلْنَ ثَوى رَبُّ السَّماحَةِ وَالنَّدى ... وَذو عِزَّةٍ يأبى بها أنْ يُضاما
وَفارِس خَيْل لا تُسايرُ خيله ... إذا اضْطَرَمَتْ نارُ العَدُوِّ ضراما
وَأحْيا عَنِ الفَحْشاءِ مِنْ ذات كلة ... يَرى ما يَهابُ الصّالِحونَ حَراما

ويرثي كعب بن جعيل التغلبي عبيدَ الله بن عمر بن الخطاب الذي قتل أيضًا أثناء هذا الصراع بقوله (٦٤) :

ألا إنَّما تَبْكي العُيونُ لِفارِسٍ ... بِصِفّينَ أجلت خيلُه وَهوَ واقِفُ
تبدل مِنْ أسْماء أسياف وائِلِ ... وَأيّ فَتًى لَوْ أخْطَأتْهُ المتالِفُ
تركنَ عُبَيْدَ اللهِ بِالقاعِ مسلمًا ... يمج دِماهُ وَالعُروقُ نَـوازِفُ
ينوء وتغشاه شآبيب مِنْ دَمٍ ... كَما لاحَ في جَيْبِ القَميصِ الكفائفُ
دَعاهُنَّ فَاسْتسمعن مِنْ أيْنَ صوته ... وَأقْبَلْنَ شَتّى وَالعُيونُ ذَوارِفُ
وَقَدْ صبرت حَوْلَ ابْنِ عَمٍّ محمد ... لَدى المَوْتِ شهباء المناكِبِ شارِف
فَما بَرحوا حَتّى رَأى الله صبرَهم ... وَحَتّى أتيحَتْ بالأكفِّ المصاحِفُ
جَزَى الله قَتْلانا بِصِفّين خَيْرَ ما ... جَـزاهُ عبـادا غادَرَتْهـا المواقِـفُ

وقد ورد في كتاب « وقعة صِفّين » كثيرٌ من شعر الرِّثاء ، وأسماء من قتل من أصحاب عليٍّ بن أبي طالب في تلك الوَقْعة . ومعظمُ هذا الشعر يدور حول البكاء على القتلى وإظهار الجَزَع عليهم ثم تأبينهم ، كما تظهر فيه المبالغةُ في تصوير الأحزان وعِظَم المصيبة وتعزية النفس (٦٥) .

وانتهت هذه الحروبُ بقتل علي بن أبي طالب على يد عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، فبكاه الشعراءُ معدِّدين مآثره الدينية ومناقبه الإسلامية ، وخِصالَه الخَيِّرة . يقول أبو الأسود الدُّؤَلي (٦٦) :

ألا أبْلِغْ مُعاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ ... فَلا قرَّتْ عُيونُ الشّامِتينا
أ في شَهْرِ الصِّيامِ فجعتمونا ... بِخَيْرِ النّاسِ طُرًّا أجْمَعينا ؟
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا ... وذلَّلها وَمَنْ رَكِبَ السَّفينا
وَمَنْ لبسَ النعالَ وَمَنْ حَذاها ... وَمَنْ قَرأ المثاني والمئينا
إذا استقبلتُ وَجْه أبي حُسَيْنٍ ... رَأيْت النّورَ فَوْقَ النّاظِرينا
لَقَدْ علمتْ قُرَيْشٌ حَيْثُ كانَتْ ... بِأنَّكَ خَيْرُهُم حَسَبًا وَدينا

والمرثية تتحدث عن فضائل الإمام علي بن أبي طالب المعروفة عند المسلمين وعند شيعَتِهِ بوجه خاص ، فهو خير الناس دينًا وحسبًا ، يقيم الحقَّ بالعَدْل ، لا يحيدُ ولا يميل ، وهو الخليفة الَّذي يهدي النّاسَ بنوره ، ولا يخفى حرصُ الشاعر على استخدام الألفاظ الإسلامية مثل شهر الصيام ، والمثاني ، والمبين ، لما لها من دلالة دينية وتاريخية .

ورثى أبو زيد الطائي الإمام « علي » فقال (٦٧) :

إنَّ الكرامَ عَلى ما كانَ من خلق ... رهط امرئ خاره لِلدّينِ مُخْتار
طَبّ بَصير بِأضْغانِ الرِّجالِ وَلَمْ ... يعْدلْ بِحبرِ رَسولِ الله أحْبار
وقطرة قطرت إذْ حانَ مَوْعِدُها ... وكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَقْتُ ومِقدارُ
حتّى تنصلها في مسجد طهر ... على إمام هدى إن معشر جاروا
حمت ليدخل جنات أبو حسن ... وأوجبت بَعْدَهُ لِلْقاتِلِ النّـار

و واضح في الأبيات الإيمان بحتمية الموت وبقضاء الله وقدره ، وما سيناله علي من ثواب وهو الجنة ، في حين يدخل قاتله النار وبئس المصير ؛ جزاء ما اقترفت يداه .

رثاء الشواعر

وقد شاركت المرأة في رثاء تلك الفترة مثلما شاركت في عصر النبوة ، فرثت الابنة أباها ، والزوجة زوجها ، والأخت أخاها ، والأم أبناءها ، بل نجد بعضهن يرثين أيضًا من قتل أثناء

الحرب بين عليّ ومعاوية ، وإن لم تربطهم بهن صلة قرابة أو مصاهرة .

وبرعت المرأة في تصوير مدى حزنها وجزعها على فقيدها ؛ لما تمتاز به من حِسٍّ مرهَف وشعور رقيق ، وأيضًا لأن الرثاء يُبْنى على شدة الجزع . وقد شاع في رثائهن روح الإسلام وتعاليم الدّين ؛ ومن ثم كان لرثائهن وقعٌ على النفس .

ولما كانت لحظة الحزن من اللحظات التي يكون فيها الإنسان صادقًا مع نفسه ، فإن درجة الحزن عند هؤلاء الشَّواعر كانت تعلو وتهبط حسب المكانة الّتي يمثلها الفقيد من نفس الشّاعرة . من ذلك بكاء عائشة على أبيها أبي بكر الصديق (٦٨) :

إنَّ ماءَ الجُفونِ ينزحه الهـم وَتَبْقى الهُمومُ وَالأحْـــزانُ
لَيْسَ يَأسو جَوى المرء مـاءٌ سَفَحَتْهُ الشُّؤونُ وَالأجْفـانُ

ولما حضرت الوفاة والدها قالت تؤبِّنه (٦٩) :

وَأبيض يستسقى الغمام بِوَجه ربيع اليتامى عصمة لِلأرامِلِ

وقالت أيضًا (٧٠) :

لَعَمْرُكَ ما يُغْني الثَّراءُ عَنِ الفَتى إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضاقَ بِها الصَّدْرُ

وهذا الشِّعر الهادئ لا يخرج إلا من نفس مؤمنة ، فقليل من النِّساء يسيطرن على عواطفهن في مثل هذه اللحظات ، حيث إنه في المألوف أن تولول المرأة عند الفقد ، ثم تتحلى بعد ذلك بالصَّبر على مدى الأيام .

ومن ألوان الرثاء أيضًا عندهن رثاء الأزواج ، من ذلك رثاء نائلة بنت الغرامضة لزوجها عثمان بن عفان حيث تقول (٧١) :

ألا إنَّ خَيْرَ النّاسِ بَعْدَ ثَلاثَـةٍ قَتيلُ التجيبي الَّذي جاءَ مِنْ مضَر
وَما لي لا أبْكي وَتَبْكي قَرابَتي وَقَدْ غَيَّبوا عَنّي فُضولَ أبي عُمَـر

فالبكاء واجب على أقارب الميت ، وفاء وتكريمًا له ، مع الإشادة بفضل المرثيّ و ورعه وقوة إيمانه .

وعلى شاكلة ذلك رثاء عاتكة بنت عمر بن نفيل لزوجها الزبير بن العوام ، الَّذي سبق

الحديث عنه ، ومما يلاحظ في رثاء المرأة لزوجها أنها لم تقتصر على رصد الأحزان فحسب ، بل نجدها تصوِّر صفات الرجل العظيم ، وذلك على عادة المرأة دائمًا ، وهذا يعني أن الزوجة لا تختلف عن الأم والأخت في رثائها وإحساس بألم الفقد والموت .

وعندما تفقد الأم ابنها يعلو عويلها وبكاؤها ، وتظهر مدى حزنها وجزعها عليه ، ومهما بلغت درجة إيمانها بالله وبالموت ، فإن الأنين لا يفارقها حتى في حالة الاستسلام والرجوع إلى الله ، ومرجع ذلك هو موقف المرثيّ من نفس الرّاثي ، إنه الابن وهي الأم الَّتي تهون عليها الدنيا بمن فيها ومن عليها على أن تفقده . هذه جويرية بنت قارظ التي قتل لها ولدان تنشد في رثائهما (٧٣) :

يا مَنْ أحس بِابنَيَّ اللَّذَيْنِ هُمـا كَالدُّرَّتَيْنِ تشظى عَنْهُما الصَّـدَف
يا مَنْ أحس بِابْنَيَّ اللَّذَيْنِ هُمـا سَمْعي وَقَلْبي ، فَقَلْبي اليَوْمَ مُخْتَطَف
يا مَنْ أحس بِابْنَيَّ اللَّذَيْنِ هُمـا مخّ العِظامِ ، فَمُخّي اليَوْمَ مُزْدهـف

ومثل هذا التكرار الذي يقع في صدور الأبيات يشكل ضربًا من الولولة أو الندب المثير ، كما سنوضح فيما بعد .

وهذه لبانة بنت الحارث الهلالية ترثي ابنها فتقول (٧٤) :

أنْتَ خَيْرٌ مِنْ ألف ألف مِنَ النّـ ـاسِ إذا ما كبت وجوه الرِّجال
أشجاع فَأنْتَ أشْجَعُ مِنْ لَيْـ ـثِ عَرينٍ جَهْم أبي أشْبـال

وهذا مجرد تأبين لابنها تصفه فيه بالشجاعة والإقدام ، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سمع شعرها قال : « صدقت ، والله » (٧٥) . ولكننا لا نجد فيه مدى وقع الفَقْد على الأم وإحساسها ولوعتها وفجيعتها بمصيبتها .

ومن الشَّواعر اللائي رثين أبناءهن أيضًا أم خالد النَّميرية الَّتي رثت ابنها وقد مات غريبًا في بعض الغزوات فقالت (٧٦) :

إذا ما أَتَتْنا مِنْ نَحْو أرضـه أَتَتْنا بريّاهُ فَطابَ هبوبُهـا
أَتَتْنا بِمِسْكٍ خالَطَ المِسْكَ عَنْبَرٌ وَريح خُزامى باكَرَتْها جنوبُها

وهذه الأم – وإن كان ألمها دَفينًا – تبدو صابرة على ما أصابها ؛ لأنها تعيش دائمًا على ذكراه العطرة ، فهو معها ما دامت الرِّياح تهب من أرضه الَّتي دفن فيها حاملة رائحته الذَّكية ، فتختلط بأنفاسها ، وتطفئ ما في صدرها من نار الوَجْد والفقد والحِرْمان .

أما رثاء الإخوة فيتمثل في قول حبلة بنت منصور الكندري عندما رثت أخاها الأجلح بن منصور الَّذي قتل في موقعة صِفّين ، وكان من أنصار معاوية ، فهي تقول (٧٧) :

ألا فابْكي أخا ثِقَةٍ ... فَقَدْ وَاللهِ أبكينا
لِقَتْلِ الماجِدِ القَمْقا ... م لا مثل لَهُ فينا
أتانا اليَوْمَ مَقْتَلُهُ ... فَقَدْ جُزَّتْ نَواصينا
كَريم ماجِد الجَدَّيْـ ... ـنِ يَشْفي مِنْ أعادينا
وَمِمَّنْ قادَ جَيْشَهم ... عَلِيٌّ وَالْمُضِلّونا
شَفانا اللهُ مِنْ أهْلِ الـ ... ـعِراقِ فَقَدْ أبادونا
أ ما يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ... وَلَمْ يَرْعوا لَهُ دينا

والبكاء والتأبين في هذه الأبيات يدور حول نفس المعاني الَّتي طرقها الشُّعراء من قبل ، كالشَّرف والكرم والشَّجاعة ، وكأنها تريد أن توضِّح فداحة مصابها ، لأنها بفقدها لأخيها فقدت كل هذه الصِّفات ، فكيف يحلو لها العيش من بعده ؟! وتظهر النزعة السِّياسية أيضًا في الأبيات ، فالشّاعرة من أنصار معاوية بن أبي سفيان ومؤيِّديه ، ومن ثم نراها تتهم جيش علي بن أبي طالب بالضَّلال وعدم الخشية من الله وأنهم لم يرعوا دينه .

وإلى جانب رثاء الأهل والأقارب رثت المرأة بعض شهداء المسلمين لما لقتلهم من خطر على الأمة الإسلامية ، وهذا النوع من الرِّثاء يميل إلى التَّأبين والعزاء ، وتشيع فيه المعاني الدينية والنظرة إلى ما صار إليه الميت من جنة ونعيم . ومن ذلك رثاء عاتكة بنت زيد لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث تقول (٧٨) :

مَن لنفس عادَها أحزانُها ... ولِعَين شفَّها طولُ السَّهَـد
جَسد لفّف مِن أكفانِـه ... رحمةُ اللهِ على ذاك الجَسَد

وقالت أيضًا :

مُنِعَ الرُّقادُ فعادَ عيني عود	مما تضمن قلبي المَعْمودُ
يا ليلةً حسبت علي نجومُها	فسهِرتُها والشامتونَ هُجودُ
قد كان يُسهِرني حِذاؤك مرةً	فاليومَ حقٌّ لعينِيَ التَّسهيدُ
أبكي أميرَ المؤمنينَ ودونَهُ	للزّائرينَ صَفائحٌ وصَعيدُ

واختيار الشاعرة للألفاظ : منع الرُّقاد - فسهرتها - الشهيد - أبكي ، يدل على واقعها النفسي وما تختلج به نفسُها من أحاسيس الحزن والألم . وقد تفننت الشاعرة في نظم تلك الألفاظ والتنسيق بينها باستخدام بعض ألوان البديع مثل الجناس والطباق .

ورثت ليلى الأخْيَلية عثمانَ بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقولها (٧٩) :

أ بعدَ عُثمان تَرْجو الخيرَ أمَّتُه	وكان آمَنَ مَنْ يَمشي على ساقِ
خَليفةُ اللهِ أعطاهُم وخَوَّلَهم	ما كانَ مِن ذَهبٍ جَمٍّ وأوراقِ
فلا تكذبْ بوعدِ اللهِ وارْضَ بهِ	ولا توكل على شَيْءٍ بإشْفاقِ
ولا تقولَنَّ لِشَيءٍ سوف أفعلُهُ	قد قدَّر الله ما كلّ امرئٍ لاقِ

والشّاعرة متأمِّلة لما حدث لعثمانَ ، مؤمنة بقضاء الله وقدره ، صابرة ، لأنها تعلم أن كل ما يصيب الإنسان قد كتبه الله عليه ، وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ، فهي مستسلمة لإرادة الله ومشيئته ، وهذا هو الإيمان الصادق القويّ .

وقالت أمُّ سِنان بنت جَشمة في رثاء عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٨٠) :

أما هلكتَ أبا الحُسَينِ فلم تَزَلْ	بالحــقِّ هاديًــا مَهدِيّــا
فاذهَبْ عليك صلاةُ ربِّكَ ما دعَتْ	فوقَ الغصونِ حمامــةٌ قمريّــا
قد كنتَ بعدَ محمَّدٍ خلفًا كما	أوحَى إليكَ بنا فكنتَ وفِيّــا

والملاحَظُ في هذه الأبيات أيضًا قلة حرارة البكاء المعتادة في مثل هذه المناسبات ، فالشّاعرة هادئة النفس وهي تؤبن الإمام عليّ بالصِّفات الَّتي كان عليها .

ومن الشَّواعر اللائي تشيّعن لعلي بن أبي طالب هند بنت زيد الأنصارية ، فكانت ترثي كلَّ من يُقْتَل من أصحابه ، وتحرِّض القوم على اتباع خطة علي . ومن شعرها قولها في رثاء حجر بن عدي ، أحد أنصار علي (٨١) :

تَرفـع أيُّهـا القَبْـرُ المنيـــر تَبَصَّرْ هَلْ تَرى حجرًا يسيـر

يَسيرُ إلى معاوية بْنِ حَـرْبٍ لِيَقْتُلَهُ كَما زَعَمَ الأميــــرُ

تجبرت الجبائر بَعْدَ حجــرٍ وَطابَ لَها الخَوَرْنَقُ وَالسَّديرُ

ورغم أن الأبيات في الرِّثاء ، فإنها تظهر تشيّع الشّاعرة لعليّ رضي الله عنه ، فكل ما تتمناه هو قتل معاوية بن حرب كما أمر الأمير ؛ ومن ثم نجدها قد تخيلت أن حجرًا - برغم موته - ما زال سائرًا لملاقاة معاوية وتنفيذ ما طلب منه ، وكأنها تعبِّر عما كان يتمناه الشِّيعة - أنصار عليّ - في تلك الفترة .

ومن الواضح أن الميول الحزبية والسياسية قد فرضت نفسها على الشِّعر بدرجة كبيرة ، حتى في فن الرِّثاء الذي نتوقَّع أن تعلو فيه عاطفة الحزن ومشاعر الألم على كل ما عداها من عواطف ومشاعر أخرى ، وهذه السِّمة كانت غالبة على الشِّعر بعامة في هذا العصر .

* * *

وإذا كنّا قد تتبعنا فنَّ الرِّثاء في عصر الخلفاء الراشدين بداية بأبي بكر الصِّدّيق رضي الله عنه حتى زمن عليّ بن أبي طالب - كرّم الله وجهه - فإننا نلاحظ أن الشِّعر قد حظي بمنزلة كبيرة في هذا العصر ، وأنه قد تطوّر عمّا كان عليه في عهد رسول الله ﷺ ؛ وذلك لما أصاب الأمة الإسلامية من أمور حتمت على الشعر مسايرتها ومعايشتها والسير في ركابها . فبعد وفاة النبي ﷺ حدثت الرِّدة ، وتلتها الفتوحاتُ الإسلامية لنشر الدَّعوة خارج الجزيرة العربية ، وقد انطلق الشعراء في هذا الجوِّ الجديد يسجِّلون ويصوِّرون انطباعاتهم عما يحدث أمامهم ، فأطلقوا لألسنتهم العِنان في شتّى أغراض الشعر ، ومن هذه الأغراض فن الرِّثاء .

وكما رأينا ، جاء الرِّثاء في هذا العصر في مقطوعات قصيرة ، أو أبيات قليلة لا ترتفع في

كثير من الأحيان إلى مستوى المرثيّ ومكانته الإسلامية ، خاصة إذا كان هذا المرثيّ خليفة رسول الله أو أحد الخلفاء الآخرين . أضف إلى ذلك أن هذا الرثاء لم يخرج عن كونه ثناءً على الميت ، وذكرًا لفضله وخطره ، وهذا واضح في رثاء أبي بكر وعمر ، أما إذا كان موت المرثيّ نتيجة للفتن والثورات الداخلية ، فالمصيبة تكون على النُّفوس شديدة ؛ لأنها لم تحدث نتيجة جهاد ضد الأعداء ، وإنما حدثت نتيجة خلاف بين العرب ، ما كان ينبغي أن يحدث ؛ ولذلك تأثر الشُّعراء وغلب على رثائهم روح الخَطابة والجدل .

الفصل الرابع
الرِّثاء والنَّقائض

إذا كنّا قد تحدَّثنا في الفصلين السّابقين عن شعر الرِّثاء زمني النبوة والخلفاء الراشدين ، فلا بدَّ لنا أن نتحدّث عن لون آخر من ألوان هذا الشِّعر الَّذي ساير الصِّراع بين المشركين والمسلمين ، وهو ما كان على شكل مناقَضات أو مساجَلات شعرية . وهذا الفن في الحقيقة ليس جديدًا ، فقد ظهر في الجاهلية كظاهرة شعرية بسبب حاجة الشُّعراء للردّ على أعدائهم ، وبخاصة أثناء الحروب بينهم ، ولم تكد تتضح معالمه وتستقر أوزانه حتى صار أداة في أفواه الشُّعراء للهجاء والفخر والرِّثاء ، أو أي موضوع آخر يكون مجالاً للمناقشة والمناقضة ، « ومهما يكن من أمر ، فإن النقائض الجاهلية صورةٌ صادقة لعصورها الأولى ، من حيث الموضوعات والمعاني ، والأساليب ، والغايات ، فلما جاء الإسلام وجد هذا الفن كامل الأداة ، فاعتمد عليه شعراؤه في ظل النهضة الجديدة ، وكان معهم امتدادًا لهذا الفن الجاهليّ من حيث أصوله الفنية ، وإن طرأت عليه سمات جديدة بتأثير الحياة الإسلامية . »[1]

والمناقضة في الشِّعر أن يقول الشّاعر قصيدة في غرض من الأغراض من أي بحر وقافية ، فيردّ عليه شاعر الخصوم بقصيدة ينقض فيها معانيه ، ملتزمًا الوزن والقافية عند الشّاعر الأول ، حريصًا على أن يتعلّق به في درجة الفنية أو يتفوّق عليه فيها .

كانت النقائض في زمن النبوَّة حربًا أدبية ، تساير المعارك التي دارت رَحاها بين المسلمين وقريش ، ومما ساعد على استمرار هذا الفن أمران ، الأول : أن الرسول ﷺ طلب من الشعراء أن يردّوا على قريش وينصروه بألسنتهم ، فأجابه حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وتصدى هؤلاء الشُّعراء لنقض ما جاء على ألسنة المشركين ، مهتدين بقوله ﷺ : « قولوا لهم مثلَ ما يقولون لَكُم . »[2] . والأمر الثاني : « أنَّ القبائل الأخرى – غير قُريش والأنصار – أخذ شُعراؤها يَنضمّون إلى قريشٍ ، أو إلى الأنصار ، فأُميّة بن أبي الصّلت الثّقفي وكَعب بن الأشْرف

اليهودي وسواه من شعراء اليهود مع قريش ، والأعشى التميميّ ، ومعبد الخزاعي وسِواهما مع الرَّسول وأنصارِه . ثم قامت النِّساء تشارك الشُّعراءَ في هذه النهضة الشعرية مع الرسول أو عليه ، وكنَّ يحرِّضْنَ على القِتال ، والانتقام ، ويبكِين الموتَى ويَندبن ويشتفين من أعدائهن ، كهند بنت عبد المطلب ، ونعم امرأة شماس بن عثمان في جانب المسلمين . و وجد اليهود - بالمدينة خاصة - أن مكانتهم الدّينية والسِّياسية والاقتصادية ستتعرَّض لشرٍّ كبير ، إذا نجحت الدَّعوة المُحمَّدية ؛ فانضمّوا إلى قريش بمكة وأخذ شعراؤهم يَسيرون في سبيل ضِرار بن الخطاب وعبد الله بن الزِّبَعْرى وأبي سفيان بن الحارث ، ومنهم كان كعب بن الأشرف ، وجبل بن جوال ، وسماك اليهودي (٣) .

غير أن هذه المناقضات والمساجلات الشِّعرية تختلف عن نقائض العصر الأمَوي ؛ إذ إنها كانت نتيجةً حَتمية لِما دار بين مجموعتينِ مِن الشُّعراء اختلفت مَشاربُهم ، فمنهم مؤيَّد بنَصْر اللهِ وتعاليم رسولِه ، ومنهم كافِر مؤمن بسُلطان أصنامه يطلُب النَّصر ، ولكن هَيْهاتَ أن يتحقَّق لهم ذلك ، وشَتانَ بين الفريقين . أما نقائض العصر الأموي فكانت قصائد بين شاعرين أو ثلاثة ، كلٌّ يفخَر بحسبه ونسبه وصِفاته ، ثم يقلل من شَأنِ صاحبه متناولاً الأعراض والمحارم ، ومن ثَمَّ كانت هذه النَّقائض تحتاج إلى أبيات كثيرة تتيح للشاعر التَّعبير من خلالها عن كل ما يريد أن يقول؛ ومن هنا وجدنا قصائدَ طويلةً وكثيرة لأهم شعراء النَّقائض في ذلك العصر وهم : جَرير والفَرزدق والأخْطل .

أما نقائض عصر النُّبوَّة فكانت تدور حول التَّنديد والوعيد والتَّذكير بأحداث معينة ، ولذا كانت مقطوعات قصيرةً ، استطاع المسلمون فيها النَّيل من الكفّار باللِّسان بعد أن نالوا منهم بالسَّيف ، فرد عليهم شُعراء المشركين باللسانِ فقط ، بعد أن أعجَزهم السَّيف والعدَّة الحربية .

وما دمنا نتحدث عن شِعر الرِّثاءِ في تلك الفَترة ، فجَديرٌ بنا أن نعرِض لتلك المُساجَلات والمُناقَضات الشِّعرية التي ارتَبطت بهذا الغَرض زَمَن النُّبوَّة . من هذه النقائض نقيضة بين عبد الله ابن الزِّبَعْرَى وحَسّان بن ثابتٍ ، فابنُ الزِّبَعْرَى يَبكي قتلى بَدر ويعدِّدهُم بأسمائِهم فيقول (٤) :

ماذا على بَدْرٍ وماذا حَولَهُ ... مِنْ فِتْيَةٍ بِيضِ الوُجوهِ كِرام

تَرَكوا نَبيهًا خَلفَهم ومُنَبِّهًا ... وابني رَبيعَةَ خَيْر خَصم فئام

الحارِث الفَياض يَبْرُقُ وَجْهُهُ ... كَالبَدرِ جَلَّى ليلَةَ الإظْلامِ

والعاصِي بن مُنبِّه ذا مرَّة رُمْحًا تميمًا غَير ذي أوْصام
تَنمي به أعراقُه وجُدودُه ومآثِر الأخْوالِ والأعْمامِ
وإذا بَكى باكٍ فأعْولَ شَجْوَهُ فَعلى الرَّئيسِ الماجِدِ ابْنِ هِشَام
حيّا الإلَه أبا الوَليدِ ورَهْطَهُ رَبّ الأنامِ ، وخَصَّهُمْ بِسَلام

وهذه الأبيات تخلو من اللَّوعة والأسى والعاطفة الجياشة التي نجدها في شعر الرِّثاء عادةً ، وهي تعد بمثابة إحصائية لأعلام قَتلى الكفّار الذين ذهَبت بهم سيوفُ المسلمينَ ، والشاعرُ يصفُهم بصِفاتٍ جاهليَّةٍ كانت سائدةً عِندَهُم ، من كَرمٍ وشَجاعَة وسَناء وحَسَب ، ويَخُصُّ كلَّ واحدٍ منهم بما عُرِف عَنه بين قومه من هذه الصِّفات . فأجابه حسان بن ثابت بقوله (٥) :

اِبْكِ بَكَتْ عَيْناكَ ثُمَّ تَبادَرَتْ بِدَمٍ يعلّ غروبها سجامِ
ماذا بَكَيْت بِهِ الَّذينَ تَتابعوا هَلاَّ ذَكَرْتَ مَكارِمَ الأقْوامِ
وَذَكَرْتَ مِنّا ماجِدًا ذا هِمَّةٍ سَمْحَ الخَلائِقِ صادِقَ الإقدامِ
أعْني النَّبيَّ أخا المكارِمِ وَالنَّدى وَأبَرَّ مَنْ يولي عَلى الإقْسامِ
فَلِمِثْلِهِ وَلِمثْلِ ما يَدْعو لَهُ كانَ الممدَّحُ ثَمَّ غير كهامِ

يستنكر حسان على شاعر الكفّار البكاء والعَويل على قتلاهم ، وأنه كان ينبغي عليه - بدلاً من ذلك - أن يذكر محامدَ الرَّسول الكريم ودعوته الإسلامية وهدفها العظيم من نشر العَدْل والأُخوَّة بين الناس ، وهذا تطوُّر جديد في معاني النقائض ؛ نتيجة لأثر الإسلام في شعر الشُّعراء المسلمين .

وهذه مناقضة أخرى بين كعب بن الأشرف اليهودي وحسان بن ثابت أيضًا ، فعندما قُتِل أشراف العرب في بدر خاف كعب على مكانة قومه بالمدينة ، فأتى مكة وأخذ يُنْشِد الأشعار ويبكي أصحابَ القليب مِن قريش ، الذين أصيبوا ببدر ويعدِّد بعضَ مآثرهم من الجاهلية ، فقال (٦) :

طحنتْ رَحى بَدْرٍ لمهلكِ أهْلِهِ وَلِمِثْلِ بَدْر تستهلُّ وتدمعُ
قتلت سراة الناس حَوْلَ حِياضِهِم لا تَبْعَدوا إنَّ الملوكَ تصرعُ
كَمْ قَدْ أصيبَ بِهِ مِنْ أبْيَضَ ماجِدٍ ذي لهجةٍ يَأوي إلَيْهِ الضُّيَّعُ
طَلْق اليَدَيْنِ إذا الكَواكِبُ أخلفت حَمّال أثْقالٍ يسودُ ويربعُ

وَيَقولُ أقْوام أسَرّ بِسخطهِم ... إنَّ ابْنَ الأشْرَفِ ظَلَّ كَعْبًا يَجزَعُ
صَدَقوا فَلَيْتَ الأرْضَ ساعَةَ قتلوا ... ظَلَّتْ تَسوخُ بأهْلِها وَتصدَعُ
صارَ الَّذي أثر الحديث بطعنةٍ ... أوْ عاشَ أعْمى مرعشًا لا يَسْمَعُ
نُبِّئْتُ أنَّ بَني المغيرَةِ كُلَّهم ... خَشعوا لِقَتْلِ أبي الحكيم وَجدّعوا
وَابْنا رَبيعَة عِنْدَهُ وَمُنَبِّه ... ما نالَ مِثْل المهلكين وَتبعُ
نُبِّئْتُ أنَّ الحارِثَ بْنَ هِشامِهِم ... في النّاسِ يَبْني الصّالحاتِ وَيَجْمَعُ
لِيَزورَ يَثْرِبَ بالجموعِ وَإنَّما ... يَحْمي عَلى الحَسَبِ الكريم الأروعُ

فأجابه حسان بقوله (٧) :

أبكى لكعب ثُمَّ عل بِعَبْرَةٍ ... مِنْهُ ، وَعاشَ مُجدَّعًا لا يَسْمَعُ
وَلَقَدْ رَأيت بِبَطْنِ بَدْرٍ مِنْهُم ... قَتْلى تسحُّ لَها العُيونُ وَتَدْمَعُ
فَابْكِ فَقَدْ أبْكَيْت عَبْدًا راضعًا ... شبهَ الكليبِ إلى الكليبةِ يتبعُ
وَلَقَدْ شَفى الرَّحْمنُ مِنّا سَيِّدًا ... وَأهانَ قَوْمًا قاتَلوهُ وَصرعوا
وَنَجا وَأفْلَتَ مِنْهم مَنْ قَلْبُهُ ... شغفٌ يَظلُّ لِخَوْفِهِ يَتَصَدَّعُ

فكعب بن الأشرف يبكي قتلى المشرِكين ، ويؤبِّنهم بالصِّفات الّتي كانت شائعة في رثائهم وقتئذ ، ثم يحرِّض النّاس أن ينقذوا يثربَ من المهاجِرين والأنصار . وهو يقلِّل من قيمة الانتصار الَّذي أحرزه المسلمون في غزوة بدر ، فعمد إلى بناء الأفعال للمجهول ولم ينسب القتلَ والإصابة لهم . ويسترسل كعبُ بن الأشرف محاولاً الدفاع عن قريش بقوله : لا تستهجنوا أن يقتل سراة قريش ، فإن كثيرًا من الملوك قد لقوا حتفهم وهم يدافعون عن الدِّيار ، وكأنه أراد أن يظهر المسلمين في صورة المعتدي على أناس مسالمين ثابتين في أراضيهم ، ولذا استحق هؤلاء الناسُ البكاء والرثاء .

ويسخر منه حسان ، ويهجوه ، رغم أن الرسولَ نهى عن الهِجاء ، ولكنه على أية حال هجاء لا يُقاس بهجاء الجاهلية الممتلئ بالفُحْش والإسفاف وجَرح الأعراض . وليس وراء حزن كعب الشديد - حين علم بما حدث لقريش - وإصراره على بُكاء قتلاهم ، إلا العداوة التي جمعت بين قلبه وقلوبهم ، وهو لم يعبِّر عن مشاعره فحسب ، وإنما عبر عن عَدواة اليهود للإسلام ورسوله وأتباعه ، « فقد جاهر اليهود منذ وقت مبكِّر بعدائهم للدين الإسلاميِّ ، ورفعوا رايةَ العُدْوان ضد

المسلمين ، وانضمّوا إلى قريش في حربهم ، يشاركونهم ويحرِّضونهم ، ويبكون قتلاهم في بدر من أصحاب القليب ، ثم شهروا بعد ذلك سيوفهم ليقاتلوا المسلمين . »[٨]

وفي غزوة أحد يستشهد كثير من المسلمين وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب - عَمّ الرسول - ويؤدي الشِّعرُ دورَه في العزاء والتأبين . وكما كانت هناك مناقضات شعرية بين شعراء المسلمين وشعراء الكفّار في غزوة بدر ، كان هناك أيضًا مثيل لها في غزوة أحد ، وكلّها تدور حول افتخار واشتفاء عدو انتصر انتصارًا مؤقتًا ، وهجاء ومناهضة من جانب المسلمين . والملاحظ أن أكثر ما جاء من هجاء شعراء المشركين في المسلمين يأخذ طابَعًا شخصيًا لادينيًا ، بمعنى أنهم لم يجادلوا المسلمين في دينهم ولم يدحضوا هذا الدين ، وإنما كان هجاءً شخصيًا على غرار الهجاء الجاهلي . ومما قيل من مناقضات في غزوة أحد قول أبي سفيان[٩] :

فَبكّي وَلا تَرْعَيْ مَقالَةَ عاذِلٍ ... وَلا تَسأمي مِنْ عَبْرَةٍ وَنَحيبِ
أباكِ وَإخْوانًا لَهُ قَدْ تَتابَعوا ... وَحُقَّ لَهُمْ مِنْ عَبْرَةٍ بِنَصيبِ
وَسَلي الَّذي كانَ في النَّفْسِ أنَّني ... قَتَلْتُ مِنَ النّجارِ كُلَّ نَجيبِ
وَمِن هاشِمٍ قَرْمًا كَريمًا وَمُصْعَبًا ... وَكانَ لَدى الهَيْجاءِ غَيْرَ هَيوبِ
وَلَوْ أنَّني لَمْ أشفِ نَفْسي مِنْهم ... لَكانَتْ شَجًا في القَلْبِ ذات نُدوبِ
فَآبوا وَقَدْ أودى الجَلابيبُ مِنْهم ... بِهِم خدبٌ مِنْ معطبٍ وَكَئيبِ
أصابَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِدمائِهِم ... كفاءٌ وَلا في خطة بِضَريبِ

فأجابه حسان بن ثابت بقوله[١٠] :

ذَكَرْتَ القُرومَ الصيدَ مِنْ آلِ هاشِمٍ ... وَلَسْتَ لزورٍ قُلْتَهُ بِمُصيبِ
أ تَعْجَبُ أنْ أقصدت حَمْزَةَ مِنْهُم ... نَجيبًا وَقَدْ سَمَّيْتَهُ بِنَجيبِ
أ لَمْ يَقْتُلوا عَمْرًا عُتْبَةَ وَابْنَهُ ... وَشَيْبَةَ وَالحَجّاجَ وَابْنَ حَبيبِ
غَداةَ دَعا العاصي عَلِيًا فَراعَهُ ... بِضَرْبَةِ عضب بَلَّهُ بِخَضيبِ

فالفخر واضح من حديث أبي سفيان ، وكذلك التَّشفي بمن قتل من بني النجار أخوال النبي ﷺ . ويردُّ عليه حسّان بأن المسلمين قد قتلوا في بدر كثيرًا من عظماء قريش ؛ ومن ثم فلم يضع دم حمزة هدرًا ، وهذه كلها معان جاهلية .

وهناك مناقضة أخرى حول غزوة أحد ، بين كعب بن مالك وضرار بن الخطاب ، تصوِّر موقف الفريقين من نتيجة هذه المعركة ، وتشرّب شعر كعب لروح الإسلام ومعانيه . يقول كعب في رثاء حمزة وقتلى أحد من المسلمين (١١) :

نَشَجْتَ وَهَلْ لَكَ مِنْ مَنْشَجِ ... وَكُنْتَ مَتى تَذَّكَرْ تَلْجَجِ
تَذَكُّرَ قَوْمٍ أتاني لهم ... أحاديث في الزَّمَنِ الأعوجِ
فَقَلْبُكَ مِنْ ذِكْرِهِمْ خافِقٌ ... مِنَ الشَّوْقِ وَالحُزْنِ ، المُنْضِج
وَقَتْلاهُم في جِنانِ النَّعيمِ ... كِرامُ المداخِلِ والمَخْرَجِ
بما صَبَروا تَحْتَ ظِلِّ اللِّواء ... لِواء الرَّسولِ بذي الأضوُجِ
غَداة أجابَتْ بِأسْيافِها ... جَميعًا بَنو الأوْسِ وَالخَزْرَجِ
وَأشْياعُ أحْمَد إذْ شايَعوا ... عَلى الحَقِّ ذي النّورِ وَالمَنْهَجِ
فَما بَرِحوا يَضْرِبونَ الكُماةَ ... وَيَمْضونَ في القَسْطَلِ المرْهَجِ
كَذَلك حَتّى دَعاهُمْ مَليكٌ ... إلى جَنَّةٍ دَوْحَةِ المولِجِ
فَكُلُّهُمْ ماتَ حُرَّ البَلاء ... عَلى مِلَّةِ اللهِ لَمْ يَحْرجِ
كَحَمْزَةَ لَمّا وَفى صادِقًا ... بذي هَبَّةٍ صارِمٍ سَلْجَجِ
فَلاقاهُ عَبْدُ بَني نَوْفَلٍ ... يُبَرْبِرُ كَالجَمَلِ الأدْعَجِ
فَأوْجَرَهُ حَرْبَةً كَالشّهابِ ... تَلَهَّبَ في اللَّهَبِ الموهَجِ
ونُعْمان أوفى بِميثاقه ... وَحَنْظلة الخَيْر لَمْ يُحْنَجِ
عَنِ الحَقِّ حَتّى غَدَتْ روحُهُ ... إلى مَنْزِلٍ فاخِرِ الزِّبْرَجِ
أولئك لا مَنْ ثَوى مِنْكُمْ ... مِنَ النّارِ في الدَّرَكِ المرْتَجِ

وأجابه ضرار بن الخطاب فقال (١٢) :

أ يَجْزَعُ كَعْبٌ لأشياعِـــهِ ... وَيَبْكي مِنَ الزَّمَنِ الأعْوَجِ
عَجيجَ المذَكِّي رَأى إلفَهُ ... تَرَوَّحَ في صادِرٍ مُحْنَجِ
فَراحَ الرَّوايا وَغادَرْنَهُ ... يُعَجْعِج قَسْرًا وَلَمْ يُحْدَجِ
فَقولا لِكَعْبٍ يُثَنّي البُكا ... وَلِلنِّيءِ مِنْ لَحْمِهِ يَنْضَجِ
لمصرَعِ إخْوانه مِنْ مَكرٍّ ... مِنَ الخَيْلِ ذي قَسْطل مُرْهَجِ

فَيا لَيْت عَمْرًا وَأشْياعَهُ	وَعُتْبَةَ في جَمْعِنا السَّوْرَجِ
فَيَشْفوا النُّفوسَ بِأوْتارِها	بِقَتْلى أصيبتْ مِنَ الخَزْرَجِ
وَقَتْلى مِنَ الأوْسِ في مَعْرَكٍ	أصيبوا جَميعًا بِذي الأضوُجِ
وَمَقْتَل حمزة تَحْتَ اللِّواءِ	بِمُطَّرِدٍ ، مارِنٍ ، مُخْلَجِ
وَحَيْثُ انْثَنى مُصعب ثاوِيًا	بِضَرْبَةِ ذي هبة سَلْجَجِ
بأحُدٍ وأسْيافُنا فيهِمْ	تَلَهَّب كاللَّهَب الموهَجِ
غَداةَ لَقيناكُمْ في الحَديدِ	كأسْد البَراح فَلَمْ نُعْنَجِ
بِكُلِّ مُجَلَّحَة كَالعُقابِ	وَأجْرد ذي مَيْعَة مُسْرَجِ
فَدُسْناهم ثُمَّ حَتّى انْثَنَوْا	سوى زاهِق النَّفْسِ أو مُحْرَجِ

والجانب الإيماني الإسلامي واضح في الأبيات ، فهو يبكي قتلى المسلمين في أحد ، ولكنه بكاء المؤمن بقضاء الله وقدره ؛ لأنهم لبوا نداء ربهم فهبوا لقتال المشركين صابرين مضحّين بأنفسهم تحت لواء الرسول ، واستشهدوا وهم على ملة الله ودينه ، فهم في رحاب الله ينعمون بجناته الوارفة الظلال ، أما قتلى الكفّار فهم في الدَّرَك الأسفل من النار ؛ لشركهم بالله وعدم طاعة رسوله .

أما ضرار فيسخر من كعب على جزعه وبكائه قتلى المسلمين ، ويفخر بانتصار قومه ، ثم يعيِّره بالهزيمة وقتلهم حمزة ، وكيف أنهم شفوا أنفسهم ، وأدركوا ثأرهم بما قتلوا من الأوس والخزرج ، ويتطرَّق بعد ذلك إلى الحديث عن شجاعة قومه وقوتهم ، وحِدَّة سيوفهم ، وسرعة خيلهم ، وانتصارهم على عدوهم .

ومن الملاحظ أن ضرارًا قد أفاد من ألفاظ ومعاني كعب فاستخدمها كما هي للرد عليه في قوله : « بضربة ذي هبة سلجج » وقوله : « تلهب كاللهب الموهج » وكان هذا شائعًا في النَّقائض ؛ فالشُّعراء كانوا يأخذ بعضهم من بعض الألفاظ والمعاني الَّتي وردت في أشعارهم ، إما لاستحسانها ، وإما لملاءمتها مقتضى الحال .

وهناك مناقضة أخرى بين عبد الله بن الزِّبَعْرى وحسان بن ثابت حول غزوة أحد ، فقد بكى ابن الزِّبَعْرى قتلى المشركين في يوم أحد فقال [١٣] :

ألا ذَرَفت مِنْ مُقْلَتَيْكَ دُموعُ ... وَقَدْ بانَ مِنْ حَبْلِ الشَّبابِ قُطوعُ

وَشَطَّ بِمَنْ تَهْوى المزارُ وَفرّقَتْ ... نَوى الحَيِّ دارٌ بالحَبيبِ فَجوعُ

وَلَيْسَ لِما وَلّى عَلى ذي حَرارَةٍ ... وَإنْ طالَ تَذْرافُ الدَّموعِ رُجوعُ

فذرِ ذا وَلَكِنْ هَلْ أتى أمّ مالِكٍ ... أحاديثُ قَوْمي وَالحَديثُ يَشيعُ

وَمُجْنَبُنا جُرْدًا إلى أهْلِ يَثْرِبٍ ... عَناجيجَ مِنْها مُتْلَد وَنَزيعُ

عَشِيَّةَ سِرْنا في لُهام يَقودُنا ... ضرور الأعادي لِلصَّديقِ نَفوعُ

تشُدّ عَلَيْنا كُل زَغْف كَأَنَّهـا ... غَديرٌ بضوج الواديين نَقيعُ

فَلَمّا رأونا خالَطَتْهم مَهابَـةٌ ... وَعايَنهم أمْرٌ هُناكَ فَظيعُ

وَ وَدّوا لَوْ أنَّ الْأرْضَ يَنْشَقُّ ظَهْرُها ... بِهِم وَصَبورُ القَوْمِ ثَمَّ جَزوعُ

وَقَدْ عُرِّيت بيضٌ كَأنَّ وَميضَها ... حَريق تَرَقّى في الأباء سَريعُ

بأيمانِنا نَعْلو بهـا كُلَّ هامَـةٍ ... وَمِنْها سِمام لِلْعَدُوِّ ذَريعُ

فَغادَرْنَ قَتْلى الأوْسِ عاصِبَةً بِهِم ... ضِباعٌ وَطيْرٌ يَعْتَفينَ وُقوعُ

وَجَمْع بني النَّجّار في كُلِّ تَلْعةٍ ... بِأبدانِهِم مِنْ وَقْعِهِنَّ نجيعُ

وَلَوْلا عُلُوّ الشِّعْب غادَرْنَ أحْمَدًا ... وَلَكن علا وَالسَّمْهَرِيُّ شَروعُ

كَما غادرتْ في الكَرِّ حَمْزَةَ ثاوِيًا ... وَفي صَدْرِهِ ماضي الشَّباة وَقيعُ

ونعمان قَدْ غادَرنَ تَحْتَ لِوائِهِ ... عَلى لَحْمِهِ طَيْرٌ يَجفنَ وقوعُ

بِأحد وَأرْماح الكُماةِ يردنهم ... كَما غالَ أشطانَ الدِّلاء نزوعُ

والشّاعر في هذه الأبيات يبكي ويتحسَّر ويجزع على قتلاه في يوم أحد ، وبما أنه يعرف أنه « ليس لما ولى رجوع » – وهذا إيمان منه بحتمية الموت الّتي آمن بها الجاهليون كذلك – فليترك البكاءَ وليتحدَّث عما يخلد ذِكْرى هؤلاء القَتْلَى ، فيذكر بطولتهم وشجاعتهم ، وأنهم قد أعدوا لأعدائهم في هذه المعركة جيشًا كثير العَدَد والعُدَّة ، وأنهم قتلوا كثيرًا من الأوس وبني النجار ، وتركوهم في ساحة المعركة طعامًا للضباع والطيور . ثم يذكر قتلهم لحمزة والنعمان ، وكيف كانوا حريصين على قتل الرّسول الكريم ، لولا وعورة الطريق وصعوبة الوصول إليه . والصُّور كلها جاهلية تعبِّر عن التعصُّب القَبَلي والعداوة الشديدة لأهل المدينة والتَّشفي في قتلى المسلمين ، وكأنه يكرِّر ما قاله ضرارُ بن الخَطّاب في المناقَضَة السّابقة .

وأجابه حسان بن ثابت ، فقال [١٤] :

أ شاقَكَ مِنْ أمِّ الوَليدِ ربوعُ بلاقع ما مِنْ أهْلِهِنَّ جميعُ
عفاهُنَّ صَيْفي الرّياح و واكِفٌ مِنَ الدلوِ رجافُ السَّحابِ هموعُ
فَلَمْ يبْق إلا تَوَقُّد النّارِ حَوْلَهُ رواكد أمْثال الحمامِ كنوعُ
فَدَعْ ذِكْرَ دارِ بددت بَيْنَ أهْلِها نوى لمتينات الحبالِ قطوعُ
وَقُلْ إنْ يَكُنْ يَوْم بأحد يعدهُ سَفيهٌ فَإنَّ الحَقَّ سَوْفَ يشيعُ
فَقَدْ صابَرَتْ فيهِ بَنو الأوْس كُلُّهم وَكانَ لَهُمْ ذِكْرٌ هُناكَ رَفيعُ
وَحامى بَنو النَّجّارِ فيهِ وَصابَروا وَما كانَ مِنْهُمْ في اللِّقاءِ جَزوعُ
أمامَ رَسولِ اللهِ لا يخذلونَهُ لَهُمْ ناصِرٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَشَفيعُ
وَفوا إذ كَفَرْتُمْ يا سَخينَ بِرَبِّكُم وَلا يَسْتَوي عَبْدٌ وَفى وَمُضيعُ
بِأيديهِم بيض إذا حمشَ الوَغَى فَلا بُدَّ أن يَرْدَى لَهُنَّ صَريعُ
كَما غادرت في النَّقْعِ عُتْبَةَ ثاوِيًا وَسَعْدًا صَريعًا والوشيج شروعُ
وَقَدْ غادَرت تَحْتَ العجاجةِ مسندًا أبيّا وَقَدْ بَلَّ القَميصَ نَجيعُ
بكفِّ رَسول الله حَيْثُ تَنصبت عَلى القَوْمِ مِمّا قَدْ يثرن نقوعُ
أولَئِكَ قَوْمٌ سادَةٌ مِنْ فُروعِكُم وَفي كُلِّ قَوْمٍ سادَةٌ وَفُروعُ
بِهِنَّ نُعِزُّ اللهَ حَتّى يعزَّنا وَإنْ كانَ أمرٌ يا سَخينَ فَظيعُ
فَلا تَذْكُروا قَتْلى وَحَمْزَة فيهم قَتيلٌ ثَوى للهِ وَهوَ مُطيعُ
فَإنَّ جِنانَ الخُلْدِ مَنْزِلَةٌ لَهُ وَأمْرُ الَّذي يَقْضي الأمورَ سَريعُ
وَقَتْلاكُم في النّارِ أفْضَل رِزْقهم حَميم مَعًا في جَوْفِها وَضَريعُ

وحسان في ردِّه على ابن الزِّبَعْرَى يعتمد على المعاني والأفكار الدينية والآيات القرآنية ، في مثل قوله : لهم ناصر وشفيع – لا يخذلون رسول الله – لا يستوي عبد مؤمن وعبد كافر – جنان الخلد منزلة – يعزنا الله ، ثم يشير إلى طعام أهل الناس ، ويفيد من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلا مِنْ ضَريع ، لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِنْ جوع ﴾ [١٥] .

وقد شارك شعراءُ اليهود أيضًا في هذه المعارَضات و وقفوا بجانب شعراء المشركين ، يُدافعون عنهم ويردّون كلَّ اتهام يوجَّه إليهم ، وقد لمسنا ذلك في موقف حسان بن ثابت من كعب بن

الأشرف أحد سادات اليهود في ذلك الوقت .

وثمة مناقضةٌ أخرى بين كعب بن مالك وسمّاك اليهودي ، يتحدث فيها كعب عن إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف أحد أحبار اليهود ، ويتهم اليهود بالكفر ، لأنهم أهل كتاب ، وكان أوْلَى بهم أن يسارعوا إلى الإيمان بالإسلام ، وبمحمد رسولاً ، فيقول (١٦) :

لَقَدْ خزيَتْ بِغدرتِها الحبورُ ... كَذاكَ الدَّهْرُ ذو صرفٍ يَدورُ
وَذَلِكَ أَنَّهُم كَفَروا بِرَبٍّ ... عَزيزٍ أَمْرُهُ أَمْـرٌ كَبيرُ
وَقَدْ أوتوا مَعًا فَهْمًا وَعِلْمًا ... وَجاءَهُمْ مِنَ اللهِ النَّذيـرُ
نَذير صادِق أدّى كِتابًا ... وَآيـات مُبينَـة تُنيـرُ
فَقالوا ما أتيتَ بِأمْر صِدْقٍ ... وَأَنْتَ بِمُنْكرٍ مِنّـا جَديـرُ
فَقالَ بَلى لَقَدْ أَدَّيْتُ حَقًّا ... يصدقني بِهِ الفهمُ الخَبيرُ
فَمَنْ يتبعه يُهْدَ لِكُلِّ رشدٍ ... وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يُجزَ الكَفورُ
فَلَمّا أشربوا غَدْرًا وَكُفْرًا ... وَحادَ بِهِمْ عَنِ الحَقِّ النفورُ
أرى الله النَّبيَّ بِرأي صدقٍ ... وَكانَ الله يَحْكُمُ لا يَجورُ
فأَيَّـدَهُ وَسَلَّطَـهُ عَلَيْهِـمْ ... وَكانَ نَصيرُهُ نِعْمَ النَّصيرُ
فَغودِرَ مِنهم كَعْبٌ صَريعًا ... فَذَلَّتْ بَعْدَ مَصْرَعِهِ النَّضيرُ
عَلى الكَفَّيْنِ ثَمَّ وَقَدْ عَلَتْهُ ... بأيدينـا مشهـرة ذُكـورُ
بِأمرِ مُحَمَّدٍ إذْ دسَّ لَيْلاً ... إلى كَعْبٍ أخا كعبٍ يَسيرُ
فَماكرهُ فأنْزَلَـهُ بِمَكْـرٍ ... وَمَحْمود أخو ثِقَةٍ جَسورُ
فَتِلْكَ بَنو النَّضيرِ بِدارِ سوءٍ ... أبارَهُمْ بِما اجْتَرَموا المبيرُ
غَداةَ أتاهُمْ في الزَّحْفِ رَهْوًا ... رَسولُ اللهِ وَهوَ بِهِمْ بَصيرُ
وَغسان الحماةِ مُـوازروهُ ... عَلى الأعْداءِ وَهوَ لَهُمْ وَزيرُ
فَقالَ السِّلْم وَيْحَكُم فَصَدّوا ... وَحالَفَ أمرهم كَذبٌ وَزورُ
فَذاقوا غِبَّ أمْرِهِمْ وَبالاً ... لِكُلِّ ثَلاثَةٍ مِنهُم بَعيرُ
وَأجلوا عامِدينَ لِقَيْنقـاعَ ... وَغودِرَ مِنْهُمْ نَخْلٌ وَدورُ

والقصيدة تسرد الأحداث التي مرت بيهود بني النضير ، وكيف أنهم هجروا ديارهم صاغرين

مرغَمين نتيجة عنادهم وغدرهم وعدم إيمانهم ، وكأن كعب بن مالك كان يتمثل قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذي أخْرَجَ الَّذينَ كَفَروا مِنْ أهْلِ الكِتاب مِنْ دِيارِهِمْ لأول الحَشرِ ما ظننتُم أن يَخْرُجُوا وَظَنّوا أنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأتاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لم يَحْتسبوا وَقَذَفَ في قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخَرِّبونَ بُيوتَهُمْ بِأيْديهِمْ وَأيْدي المؤمنين فَاعْتَبروا يا أولي الأبْصار . وَلَوْلا أنْ كَتَبَ الله عَلَيْهِمِ الجلاءَ لَعَذَّبَهُمْ في الدُّنْيا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابُ النّار . ذَلِكَ بِأنَّهُمْ شاقُّوا الله وَرَسولَهُ وَمَنْ يُشاقِّ الله فإنَّ الله شَديدُ العِقاب ﴾ (١٧) .

ويرد عليه سمّاك اليهودي – أحد شعراء اليهود – بمقطوعة مصوِّرة للألم والمعاناة الَّتي تختلج في نفوس اليهود ، فهو يبكي قتلاهم ، ويصوِّر ما حلَّ ببني النضير من بلاء ، ويؤبِّن كعبًا بن الأشرف بأنه كان كريمًا ، مجيرًا لمن يطلب منه الأمان ، كما يصوِّر الطريقة التي قتل بها كعب مهددًا ومتوعِّدًا ، فيقول (١٨) :

أرقتُ وَضافَني هَمٌّ كَبيرُ	بِليل غَيْرُهُ لَيْلٌ قَصيرُ
أرى الأحْبارَ تُنْكِرُهُ جَميعًا	وَكُلُّهُمْ لَهُ علْمٌ خَبيرُ
وَكانوا الدّارسينَ لِكُلِّ عِلْمِ	بِهِ التَّوْراةُ تَنْطِقُ وَالزَّبورُ
قَتَلْتُم سَيِّدَ الأحْبارِ كَعْبًا	وَقِدْمًا كانَ يَأمن مَنْ يُجيرُ
تَدَلّى نَحْوَ مَحْمودٍ أخيهِ	وَمَحْمودٌ سَريرَتُهُ الفجورُ
فَغادَرَهُ كَأنَّ دَمًا نَجيعًا	يَسيلُ عَلى مَدارِعِهِ عَبيرُ
فَقَدْ وَأبيكُمْ وَأبي جميعًا	أصيبَتْ إذ أصيبَ بِهِ النَّضير
فَإنْ نَسْلَمْ لَكُمْ نترك رِجالاً	بِكَعْبٍ حَوْلَهُمْ طَيْرٌ تَدورُ
كَأنَّهمْ عَتائِرُ يَوْمَ عيدٍ	تُذْبَحُ وَهِيَ لَيْسَ لَها نَكيرُ
ببيض لا تليقُ لَهُنَّ عَظمًا	صوافي الحَدِّ أكْثَرُها ذُكورُ
كَما لاقَيْتُمْ مِنْ بَأسِ صَخْرٍ	بِأحُدٍ حَيْثُ لَيْسَ لَكُم نَصيرُ

ومن الملاحظ أن سمّاكًا استخدم الألوان كوسيلة معبِّرة لحالته النفسية لتشيع في أفكاره الحياة ، ولتعاون الحواس أيضًا في رصدها واستيعابها ، مع ما لها من وقع على النفس والقلب . فاللون الأسود يغلب على البيت الأول بتكرار كلمة « ليل » ليبرز الهموم ، ويجسِّد الأحزان ، ثم نجده يضفي على صورته لونًا آخر هو اللون الأحمر ، باستخدام كلمتي : « الدم » و « الذبح » ، والدم

سبب من أسباب الحياة فإذا أريق هذا الدَّم ذهبت الحياة . ولعل الظُّروف القاسية الَّتي مرَّت باليهود في تلك الحقبة ، والتي أدَّت إلى المعارك وإسالة الدماء هي التَّي جعلت الشّاعر يحرص على ذكر الدم والذبح والقتل .

ولحسان بن ثابت شعر في بني قريظة يصوِّر فيه مدى ما أصابهم من تفرقة على يد المسلمين ، حتى أصبحوا لا نصيرَ لهم في المدينة واتهمهم بالكفر على الرغم من أن القرآن قد أشير إليه في الزَّبور ، ولذلك حق عليهم العقاب والهلاك . يقول حسان (١٩) :

تَفاقَدَ مَعْشَرٌ نَصَروا قُرَيْشًا ... وَلَيْسَ لَهُمْ بِبَلْدَتِهِم نَصيرُ

هُمْ أوتوا الكِتابَ فَضَيَّعوه ... وَهُم عُمْيٌ مِنَ التَّوْراة بورُ

كَفَرْتُم بِالقُرْآنِ وَقَدْ أتيتُمْ ... بِتَصْديقِ الَّذي قالَ النَّذيرُ

فَهانَ عَلى سراةِ بَني لُؤَيٍّ ... حَريقٌ بِالبُويرة مُسْتَطيرُ

ويرد عليه جبل بن جوال الثعلبي أحد شعراء اليهود ، وهو يبكي النضير وقريظة فيقول (٢٠) :

ألا يا سَعْدَ سَعْدَ بَني مُعاذٍ ... لِما لَقِيَتْ قُرَيْظَةُ وَالنَّضيرُ

لَعَمْرُكَ إنَّ سَعْدَ بَني معاذ ... غَداةَ تَحَمَّلوا لَهُوَ الصَّبورُ

فَأمّا الخَزْرَجِيُّ أبو حُبابٍ ... فَقالَ لِقَيْنُقاعٍ لا تَسيروا

وَبُدِّلَتِ الموالي مِنْ حُضَيْرٍ ... أسيدًا وَالدَّوائِرُ قدْ تدورَ

وأقفرت البُوَيْرَةُ مِنْ سلامٍ ... وَسَعْيَة وَابنِ أخْطَب فَهي بورُ

وَقَدْ كانوا بِبَلْدَتِهِمْ ثِقالاً ... كَما ثَقُلَتْ بِمَيْطانَ الصّخورُ

فَإنْ يَهْلِكْ أبو حكم سَلامٌ ... فَلا رَثُّ السِّلاحِ وَلا دَثورُ

وَكُلُّ الكاهِنينَ وَكانَ فيهم ... مَعَ اللّينِ الخضارمة الصُّقورُ

وَجَدْنا المَجْدَ قَدْ ثَبتوا عَلَيْهِ ... بِمَجْد لا تُغَيِّبُهُ البُدورُ

أقيموا يا سراةَ الأوْسِ فيها ... كَأنَّكُم مِنَ المَخْزاة عورُ

تَرَكْتُم قِدْرَكم لا شَيءَ فيها ... وَقِدْرُ القَوْمِ حامِيَة تَفورُ

والشّاعر حزين متألِّم لما حدث لأهله وقومه ، ويذكر زعماءهم ويعدِّد مآثرهم ويشيد بمجدهم ، ثم يعيب على الأوس تخاذلهم وتأخّرهم عن حماية جيرانهم من اليهود ،

وخضوعهم للخزرج وقريش .

و واضح من هذه المناقضات الشِّعرية التي حدثت بين المسلمين واليهود أن كلا الفريقين يحاول أن يعرض وجهة نظر قومه ، ويدافع عنها ، ويرد على كل اتهام يوجَّه إليهم . وقد لمسنا ذلك في موقف حسان وكعب بن مالك وميمونة الَّذين دافعوا عن الإسلام والمسلمين ، وتهجَّموا على كعب بن الأشرف الذي كان يعتبر شاعر اليهود الناطق باسمهم ، وسيداً من ساداتهم ، وحَبْراً من أحبارهم ، وكذلك على سمّاك اليهودي الشّاعر لما كانا يضمران من روح الحقد والعداء للمسلمين .

ومن الملاحظ أن الصِّور الَّتي حَرَص على تصويرها ورسم تفاصيلها شعراء اليهود في تلك الحقبة لم تختلف عن صور الشِّعر الجاهليّ ، بكل مقوّماتها و وسائل التعبير الفني فيها ، فاشتملت على عناصر أعانت الشُّعراء على تشخيص مظاهر الحياة العامة . لقد اعتمدوا على التشبيهات بشتّى أنواعها ، وهذا واضح في الأبيات الَّتي مرَّت بنا على لسان سمّاك اليهودي .

لم يقتصر فن النقائض على الرجال ، وإنما شارك فيه النساء أيضًا ، وكانت أول مناقضة بعد موقعة أحد بين هند بنت عتبة ، وهند بنت أثاثة . فبعد انتصار المسلمين في هذه الموقعة واستشهاد حمزة بن عبد المطلب ، صعدت هند على صخرة مرتفعة وصرخت بأعلى صوتها قائلة (٢١) :

نَحْنُ جَزَيْناكم بِيَوْمِ بَدرِ ... وَالحَرْبُ بَعْدَ الحرب ذاتُ سُعْرِ
ما كانَ عن عُتْبة لي مِنْ صَبْرِ ... وَلا أخي وَعَمّه وَبكْري
شَفيتُ نَفْسي وَقَضَيْتُ نَذْري ... شَفَيْتَ وَحْشيّ غَليلَ صَدْري
فَشُكْر وَحْشِيٍّ عَلَيَّ عمري ... حَتّى ترمَّ أعْظُمي في قَبْري

فأجابتها إحدى شواعر المسلمين ، وهي هند بنت أثاثة بن عباد بقولها (٢٢) :

خَزيتِ في بَدْرٍ وَبَعْدَ بَدْرِ ... يا بِنْتَ وَقّاعٍ عَظيمِ الكُفْرِ
صَبَّحَكِ الله غَداةَ الفَجْرِ ... مِلْهاشِمِيّين الطّوال الزُّهْرِ
بِكُلِّ قَطّاعٍ حُسامٍ يَفْري ... حَمْزَةُ لَيْثي وَعَلِيّ صَقري
إذْ رامَ شَيْبٌ وَأبوكِ غَدْري ... فَخَضَّبا مِنْهُ ضَواحي النَّحْرِ

ونَذْرُكِ السّوءَ فَشرُّ نَذْرِ

فهند بنت عتبة تتشفّى بمصاب المسلمين ، كما أصابها في يوم بدر ، فالشّاعرة متدفِّقة منطلقة على سجيتها ، مليئة بالحماس والعاطفة ، لقد أخذ وحشيّ بثأرها وقتل حمزة ، فذهب ألمها الجاسم على صدرها ، فحق لها أن تشكره على صنعه .

وأما بنت أثاثة فتسب أباها الذي قُتل في بدر بأنه كافر عنيد ، وتدعو لها بالخزي والعار ، أما حمزة فتصفه بالشجاعة ، وأن قومه عمّا قريب قادمون للأخذ بثأره .

ومهما يكن من شيء ، فقد بلغ من اشتهار المرأة بالرِّثاء وافتخارها بفضائل من ترثيهم ، أن فاخرت غيرها بعِظَم مصيبتها ، هكذا فعلت الخنساء أمام هند بنت عتبة ، ودار فخرهما حول الطَّريف والتَّليد . يروى أنها حضرت « الموسم في عكاظ فكانت تعاظم العرب بمصيبتها بأبيها وأخويها وتقول : أنا أعظم العرب مصيبة . فعَرَفَت لها العرب ذلك ، إلى أن قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . فأقبلت هند بنت عتبة وقد بلغها ذلك فقالت : أنا أعظم العرب مصيبة ، وأمرت بمحملها أن يقرن بمحمل الخنساء بسوق عكاظ . فلما تقابلتا قالت هند للخنساء : بلغني أنك تعاظمين العرب بمصيبتك ، فبم تعاظمينهم ؟ قالت الخنساء : بأبي عمرو بن الشريد وأخوي صخر ومعاوية . ثم سألتها الخنساء : فبم تعاظمينهم أنت ؟ قالت : بأبي عتبة وعمي شيبة بن ربيعة وأخي الوليد .

ثم أنشدت هند تقول (٢٣) :

أبكي عَميدَ الأبطحين كِلَيْهِما ... وَمانعها مِنْ كُلِّ باغٍ يُريدُها
إلى عتبة الخيرات وَيْحَك فَاعْلَمي ... وَشَيْبَة وَالحامي الذّمار وَليدها
أولئك آل المجْدِ مِنْ آلِ غالِبٍ ... وَفي العِزِّ مِنْها حينَ ينمى عَديدُها

وتحرّكت الخنساء في الدائرة نفسها ، فحدّدت رزيتها ، فإذا هي أعظم . قالت (٢٤) :

أبْكي أبي عمرًا بِعَيْنٍ غَزيرَةٍ ... قليل إذا نامَ الخَليّ هجودها
وصنوي لا أنسى مُعاوِيَةَ الَّذي ... لَهُ مِنْ سراة الحرتين وفودها
وَصَخْرًا وَمَنْ مِثْلُ صخر إذا غَدا ... بِساحَتِهِ الآطال قرم يَقودُها
فَذَلِكَ يا هِنْدُ الرَّزِيَّة فَاعْلَمي ... ونيران حرب حين شب وقودها

وهناك شاعرة أخرى تدعى ميمونة بنت عبد الله ، أجابت كَعْبَ بن الأشرف حينما رثى

أصحاب القليب من قريش بقصيدته التي مطلعها (٢٥) :

طَحَنَتْ رَحا بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أهْلِهِ وَلِمِثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وَتَدْمَعُ

وقد أجابه حسان بن ثابت – كما سبق أن أوضحت – بقصيدة مطلعها (٢٦) :

ا بكِ لِكَعْبٍ ثُمَّ عُلَّ بِعَبْرَةٍ مِنْهُ وَعاشَ مُجَدَّعًا لا يَسْمع ؟

وردت عليه ميمونة أيضًا بقولها (٢٧) :

تَحَنَّنَ هَذا العَبْدُ كُلَّ تَحَنُّن يَبْكي عَلى قَتْلى وَلَيْسَ بِناصِبِ
بَكَتْ عَيْنُ مَنْ يَبْكي لبدر وَأهْله وَعُلَّتْ بِمِثْلَيْها لُؤَيّ بْن غالِبِ
فَلَيْتَ الَّذينَ خَرَجوا بِدِمائِهِمْ يَرى ما بِهِمْ مَنْ كانَ بَيْنَ الأخاشب
فَيَعْلَم حقًّا عَنْ يَقينٍ وَيُبْصِروا مَجَرَّهُمْ فَوْقَ اللِّحَى وَالحَواجِبِ

فأجابها كعب بقوله (٢٨) :

ألا فَازْجُروا مِنْكُم سَفيهًا لِتَسْلَموا عَنِ القَوْلِ يأتي مِنْهُ غَيْرَ مُقارِبِ
أ تَشْتُمني أنْ كنتُ أبْكي بِعَبْرَةٍ لِقَوْمٍ أتاني ودُّهم غَيْرُ كاذِبِ
فَإنّي لِبَاكٍ ما بقيتُ وَذاكر مَآثِرَ قَوْمٍ مَجْدُهم بِالحباجِبِ
لَعَمْري لَقَدْ كانَتْ مُرَيْدٌ بِمَعْزِلٍ عَنِ الشَّرِّ فَاحْتالَتْ وجُوهُ الثَّعالِبِ
فَحُقَّ مُرَيْدٌ أنْ تُجَدّ أنوفُهُمْ بِشَتْمِهِمْ حَيّي لؤيّ بْن غالِبِ
وَهَبْتُ نَصيبي مِن مُرَيْد لِجَعْدَر وَفاءً وَبَيْتُ اللهِ بَيْنَ الأخاشِبِ

ودور المرأة منذ بداية الدعوة الإسلامية واضح في الأحداث السياسية وفي الوقائع الحربية ، كما سبق أن أوضحت ، فقد كان منهن المناصرات للإسلام والمسلمين ، ومنهن من وقفن في وجهه يهجون المسلمين .

وهكذا كان الصِّراعُ بين المسلمين والمشركين ذا أثر فعّال في تطوُّر فن النقائض وفنّ الرثاء ؛ فقد كانت النَّقائض زمنَ النُّبوَّة حربًا كلامية احتفظ فيها الشُّعراء بطبعهم الأصيل مع « اختلاف أو اضطراب ما بين قوة جاهلية ، وسهولة أو هلهلة إسلامية ، خضوعًا للتجديد أو السرعة ، أو تغيّر الموضوع ومفاجأته ، وقد ظهر ذلك عند حسان خاصة . » (٢٩)

دارت النَّقائض بين فريقين من الشُّعراء اختلفت مشاربهم ومذاهبهم ، فريق مؤمن بالله ورسوله ، وفريق كافر معاند مع من والاه من شعراء اليهود . وتعتبر هذه النَّقائض سجلا حافلاً لأحداث ذلك العصر ، فكل فريق يفنِّد ما سمعه من الفريق الآخر ، ويزيد عليه من خياله أو مما حفظه و ورثة من أحداث وأفكار وأخبار .

وظهر أثر الإسلام في شعر الفريق الأول لصحبتهم لرسول الله ﷺ وقربهم منه ، فقد مزج الشُّعراء رثاء شهدائهم بالثَّواب في الآخرة والنَّعيم في الجنة والحياة الخالدة بعد الموت ، واتهموا غيرهم بالكفر وعدم الإيمان ، في حين لم يظهر شيء من ذلك في رثاء المشركين لقتلاهم ، وإنما ظهر الجزع والبكاء على قتلاهم وتعديد صفاتهم من كرم وشجاعة . . ولا يكادون يختلفون عن رثائهم في الجاهلية كما سبق أن أوضحت ، غير أن أثر الإسلام في الشعر بوجه عام في تلك الفترة لم يكن بالصورة المرجوة ؛ إذ « إن المعاني الدينية في القصيدة كانت مقتصرة على بيت أو أبيات ، ويأتي المعنى الديني مقتضبًا مجملاً ، من غير توسّع ولا عمق ولا استرسال أو تفصيل . »[٣٠] ، ويمكن تفسير ذلك بأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام وتعاليمه ؛ فلم يلموا بكل ما جاء به من معان وأفكار وأساليب . ولكن كلما تعمق بنا الزَّمن في الإسلام وجدنا الأثر أكثر وضوحًا ، فالشُّعراء يستشهدون ببعض الآيات القرآنية ويفيدون من بعض أساليب القرآن ومعانيه .

الفصل الخامس
قَضايا فَنِّيَّة

الرُّؤْية والواقع

كثر شعر الرِّثاء في عصر رسول الله ﷺ ولم يختلف كثيرًا عما كان في العصر الجاهلي ، فالمعارك بين المسلمين والمشركين كانت كثيرة ، والقتلى يتساقطون في كل معركة ، وكان شعراء المعسكرين - الإسلامي والقرشي - يصوِّرون أهوالَهم وجَزَعهم على قتلاهم وعلى فقدهم الفرسان الأبطال فيذكرون بطولاتهم ، ويعدِّدون مآثرهم ، ويبكون شجاعتهم ، وهنا يظهر أثر الإسلام في شعر شعراء المسلمين ، حيث يمتزج رثاؤهم بذكر ثواب الآخرة ، والنعيم في الجنة ، والاستشهاد في سبيل الله الَّذي هو أسمى غاية يسعى إليها المسلم .

وقد امتاز الشعر بعامة في تلك الفترة بالوضوح والسُّهولة الَّتي عابها بعض النُّقاد ، واعتبروها من المآخذ على شعر الشُّعراء المسلمين. ولا شك أن هذا الوضوح وهذه السهولة لهما ما يبرِّرهما .

لقد فضَّل القدماء شعر حسان بن ثابت الجاهلي على شعره الإسلامي ، و وصفوا شعره في الفترة الأخيرة من حياته باللين والهرم والركاكة ، قال الأصمعي : « الشِّعر نَكد بابه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ، وهذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره . »(1)

وهكذا كان فهم القدماء لجودة الشِّعر ، فإذا كان الشّاعر قريبًا من أساليب الشِّعر الجاهلي ، كوصف الدِّيار ورحلة الظَّعن والتَّشبيب بالنِّساء و وصف الخمر والنّاقة والصَّحراء والحيوانات ، جاد شعره ، وإذا بعد عنها ضعف ولان وهرم .

ويبدو أن الذين اتهموا شعر حسان باللين قد نسوا أنه شاعر مطبوع في الإسلام كما كان في الجاهلية ، وأنه لا بد أن يتأثر بالقرآن الكريم في بلاغته وفصاحته و وضوح طريقته وسهولة ألفاظه . وظهر هذا التأثيرُ واضحًا في شعره وفي رِقَّة ألفاظه ، وبُعْده عن الغرابة والخشونة في

الأداء ، وفي سُموِّ معانيه . أضف إلى ذلك أن الشعراء قد طرحوا ما لا يتناسب وتلك الحياة الجديدة من أغراض ألِفوها في جاهليتهم؛ لأنها لم تعد تتفق مع مبادئ المجتمع الإسلاميِّ الجديد، ولأنها كانت تقوم « على الكَذِب والاستمالة الممتعة ، والنُّعوت الخارجة عن العادات ، والألفاظ الكاذبة من قذف المحْصَنات ، وشهادة الزور ، وقول البُهتان . » (٢)

وثمة عاملٌ آخر أثر في شاعريَّة هؤلاء الشعراء المسلمين الذين عاشوا في الجاهلية وفي صَدْر الإسلام ؛ ذلك أنهم كانوا وسطًا بين طرفين يجذبهم كل طرف إليه، فما ورثوه عن الجاهلية ونشأوا فيه وألِفوه وصاروا جزءًا منه كان يجذبهم إلى تلك الفترة بكل ما فيها من فكر وفن وعادات وتقاليد وأساطير . والعامل الجديد – وهو الإسلام – يجذبهم أيضًا نحوه فتتغير حياتهم وسلوكهم رويدًا رويدًا لأنه واقع ، يعايشونه ويمارسون حاجاته الجديدة ، ويحاولون التكيُّف معها . وبدأ الماضي يبعد والحاضر يتغلغل في وجدَانهم وكِيانهم حتى أصبح جزءًا من حياتهم الجديدة ، فلما تم لهم التأثُّر بالإسلام تعدلت أساليبهم ، وسهل نظمهم ، و وضحت معانيهم . وحاول الشُّعراءُ التوفيقَ بين هذين التيارين ، إذ لم يكن من اليسير أن ينتزعوا أنفسهم من ماضيهم العريق ويتناسوا كل ما ورثوه ، وأن يعيشوا في عُزلة عن موروثاتهم وثقافاتهم ، ومن هنا ظهر الصِّراعُ بين الجديد والقديم .

ويتأثر شعر هؤلاء الشُّعراء الذين دخلوا الإسلام بهذا التطوُّر ، فلم يصبح شعرهم شعرًا جاهليًا خالصًا أيضًا ، ولا شعرًا إسلاميًا خالصًا أيضًا ، ولكن شعرًا متأرجحًا بين هذا وذاك ، يحمل من الأفكار الجاهلية مثل ما يحمل من الأفكار الإسلامية ، وربما ظهر هذا التأرجحُ واضحًا عند شاعر كحسان بن ثابت ، الذي عاش الجانب الأكبر من حياته في الجاهلية ، وغيره من الشُّعراء الذين شاركوه في الدفاع عن الإسلام وقتئذ . من ذلك قصيدته الَّتي يرثي فيها قَتْلَى المسلمين في موقعة مؤتة ، والَّتي مطلعها (٣) :

تَأوَّبني بِيَثْرِب أعْسر ... وَهَمّ إذا ما نوم النّاسُ مسهرُ
لِذِكْرى حَبيبٍ لي عَبْرَة ... سفوحًا وَأسْباب البُكاءِ التذكُّر
بَلاء وَفقْدان الحَبيبِ بَليَّة ... وَكَمْ مِنْ كَريمٍ يُبْتَلى ثُمَّ يَصبرُ

فتراه يبدؤها بمطلع عاطفي شأنه في ذلك شأن المطالع الجاهلية ، ولولا الإشارات الإسلامية العابرة التَّي وردت فيها لما فطنا إلى أنها من شعره الإسلامي . ولعل الرَّبط بين هذه المقدِّمة

العاطفية وما بها من رمز ، وموضوع الرثاء واضحة لما فيها من هَمّ وحزن وفقد .

ولو نظرنا إلى أول قصيدة قالها حسان في الإسلام لوجدناها خالية من أية مَسْحة إسلامية ، أو لفظة تشعر بأنها نظمت في ظلال الدّين الجديد . وبمرور الأيام وتوالي نزول القرآن الكريم ودوام تِلاوته ، بدأت ألفاظٌ جديدة تتسلل إلى أشعارهم وتتردد على شفاههم . ولكن هذه الألفاظ كانت ما تزال طريَّة لينة ، لم يتعود النّاسُ على كثرة استعمالها أو سماعها . وبدأ الشُّعراء – الذين ورثوا ألفاظًا ومصطلحات تختلف تمامًا عن تلك الألفاظ والمصطلحات الجديدة – يحاولون تحرير أشعارهم مما كان يثقل الشِّعر الجاهلي من التَّعقيد والخشونة والصعوبة ، ومالوا نحو السُّهولة والوضوح ، مترسِّمين منهجَ القرآن الكريم كما سبق أن أوضحت .

وهذه ظاهرة طبيعية تحدث في مثل هذه المراحل الَّتي تكون بين عهدين مختلفين ، والَّتي يمكن تسميتها بفترة الانتقال ، تلك الفترة الَّتي فاجأت الشُّعراء بتجارِب جديدة ليس في الشِّعر العربي رصيد سابق في التعبير عنها يمكن أن ينتفعوا به ؛ ولذلك عندما سئل حسان يومًا : « لماذا لان – أو هرم – شعرك في الإسلام ؟ أجاب : يا ابن أخي إن الإسلام يحجب الكذب ، وإن الشعر يزينه . »[٤]

بقي أن أقول إن شعر حسان بن ثابت وما وصل إلينا من شعر تلك الفترة قليل من كثير ، وإن هذا الشعر على قِلَّته قد دخله الوضع والنحل ، فنسبت قصائد ومقطوعات لبعض الشعراء ، وخاصة حسان بن ثابت ، أثرت على المستوى الفني لشعره . وهذا ما أكده الدكتور شوقي ضيف بقوله : « إن شعره الإسلامي كثر الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأنه شعره لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . »[٥] ويؤكد الدكتور عبد القادر القط ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف فيقول : « فإذا جئنا إلى شعر حسان الإسلامي صادفنا قصائد تبدو بلا شك دون مستوى شعره في الجاهلية بكثير ؛ مما يدعونا إلى أن نرتاب في صِحَّة نسبتها إلى حسان . وهذه المقطوعات أقرب أن تكون من نَظْم بعض الشعراء في عصور متأخرة ، بعد أن طال تأثّر الأدباء بأساليب القرآن ، وشاعت على أقلامهم – في المجال الديني – ألفاظ وعبارات خاصة . »[٦]

وقضية الشَّك في شعر تلك الفترة ليست جديدة ؛ فقد فطن إليها النُّقاد القدامى ، أمثال : ابن سلام الجمحي وابن هشام وابن النديم وغيرهم ، وقد نبَّهوا إلى ذلك وأوضحوا أن أهل الدِّراية

والعلم لم يكونوا غافلين عما زاده الرواة وعما وضعه المولدون ؛ ومن ثم فعلينا أن نقبل منهم كلَّ ما ارتضوه ، ونرفض كل ما رفضوه . يقول ابن سلام في ذلك : « وفي الشعر المسموع مفتَعَل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حُجَّة في عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخدم ، ولا مثل يُضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف ، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، ولم يأخذوه من أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد - إذا أجمع أهل العلم والرِّواية الصحيحة على إبطال شيء منه - أن يقبل من صحيفة ، ولا يروي عن صحفي . وقد اختلفت العلماء في بعض الشِّعر كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرجَ عليه . » (٧)

وهكذا نرى أن الوضع قد كثر في شعر حسان وفي شعر غيره من شعراء تلك الفترة ، لأسباب تختلف بواعثها بين دينية وسياسية واجتماعية ، ولكن هل كثرة الوضع في شعر حسان وغيره يجعلنا نصف شعرهم بالرّكاكة والضعف ؟

ولقد أجاب عن هذا التساؤل الدكتور عبد القادر القط من خلال حديثه عن حسان ؛ فقد تناول بالتحليل قصيدة رثائه للنبي ﷺ ، ورأى أن بعض أبياتها في مستوى شعر حسان والبعض الآخر ركيك مشكوك في نسبته إلى الشّاعر . يقول الدكتور القط : « ومن أمثلة ذلك قصيدته في رثاء النبي ، فنحن نرى أن بعض أبياتها في مستوى شعره وبعضها ركيك ، يردد تلك العبارات الدّينية الَّتي شاعت في عصور متأخرة . فالأبيات الثلاثة الأولى في القصيدة يمكن أن تنسب لحسان :

ما بالُ عَيْنِكَ لا تَنامُ كَأَنَّمـــا ... كحلت مآقيها بِكُحْلِ الأرْمَـــدِ
جَزَعًا عَلى المهديّ أصْبَحَ ثاوِيًـا ... يا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الحَصى لا تَبْعدِ
جنبي يَقيك التُّرْبَ ، لهفي ، لَيْتَني ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ في بَقيعِ الغَرْقَـــدِ

ثم نجد بعد ذلك أبياتًا لا يمكن أن تكون من صنع من هم في مثل شاعرية حسان :

بِأبي وَأمّي مَنْ شهدتُ وفاتَهُ ... يَوْمَ الاثْنَيْنِ ، النَّبيّ المهْتَـــدي
فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفاتِهِ مُتَبَلِّـــدًا ... يا لَهْفَ نَفْسي ، لَيْتَني لَمْ أولَدِ
يا رَبِّ فَاجْمَعْنا مَعًـا وَنَبِيَّنـا ... في جَنَّةٍ تَثْني عُيونَ الحُسَّـــدِ
في جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ وَاكْتُبْها لَنا ... ياذا الجَلالِ وَذا العُلا وَالسؤددِ

صَلّى الإلَهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ   وَالطَّيِّبونَ عَلى المبارَكِ أحْمَـدِ

ولا شك أن قوله : « يارب فاجمعنا معًا ونبينا . . . في جنة الفردوس واكتبها لنا . . . ياذا الجلال . . من صنيع النظم المعروفة في كتب الأذكار والأدعية في العصور المتأخرة . »[٨]

فحسان – إذن – كان شاعرًا مطبوعًا ولم تخب شاعريته في إسلامه ، ولم يلن شعره ، وإنما كثرة الوضع والنحل جعلت شعره هابط المستوى أحيانًا ، قال الأصمعي : « حسان أحد فحول الشعراء . فقال له أبو حاتم : تأتي له أشعار لينة . قال : تنسب إليه أشياء لا تصح عنه . »[٩]

وما قيل عن حسان يقال عن كعب بن مالك ؛ فقد كان من الشعراء المعروفين في الجاهلية وصدر الإسلام الذين عبَّروا عن أحداث عصرهم ، وشاركوا فيها ، فظهرت في شعره آثار اللقاء بين القديم والجديد .

كان كعب أسبق من حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة في الإسلام ، وكان يلازم النبي ﷺ أكثر منهما . وقد أكسبته مصاحبته هذه للرسول لين الجانب ، وهيأته ليكون سهلاً في كل شيء ، وانعكس ذلك على شعره ؛ ومن ثم اتهمه بعض النقاد أيضًا – كما اتهموا شعر حسان – بالضَّعف واللين .

شارك كعب في الغزوات بسيفه ولسانه ، ويعتبر شعره في الرثاء نابعًا من تجارِب حقيقية واقعية صادقة عايشها ؛ فقد رافق من رثاهم ، وزاملهم في كفاح الحرب وحمل السلاح ، وتحدّث عما جالَ في خاطره من أثر عميق نحوهم وعن مواقفهم البطولية . وضمن رثاءه معاني جديدة استمدها من الإسلام – شأنه في ذلك شأن شعراء المسلمين – كالشِّهادة في سبيل الله والجنات التي تجري من تحتها الأنهار ثوابًا لهؤلاء الشُّهداء ؛ مما كان يخفِّف الألم عن ذويهم ، ولم تكن هذه المعاني والأفكار مألوفة في الجاهلية .

لقد ترك الدّين الجديد – إذن – أثرًا واضحًا في شعر هؤلاء الشُّعراء ، فاستطاعوا أن يردّدوا ما أفادوا من معان وأفكار جديدة في أشعارهم ، وأن يباهوا بفضل هذا الدين وعظمة رسول الله ﷺ ، وأن يدافعوا عنه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، « ومع ذلك يظل شعر حسان وغيره من شعراء المسلمين أدنى مرتبة من أن يعبِّر عن تلك الوقائع الجسام الَّتي كانت تحمل دلالات حضارية ضخمة ، لم يستطع هؤلاء الشُّعراء أن يرتقوا بشعرهم إلى مستواها ، والَّتي كانت تحفل بكثير من

المواقف الدرامية ، وبخاصة في موقعتي بدر وأحد - كان يمكن أن توحي بأنماط جديدة من الشِّعر أو مستويات أعلى من النّاحية الفنية على الأقل . »[١٠]

لكنني ألتمس لهؤلاء الشُّعراء العذر إذا عَرَفنا أن نضوجهم الفني والعقلي كان في الجاهلية ، وأنه استمر فترة طويلة قبل الإسلام ، وأن معظمهم أدرك الإسلام كبيرًا ، فعذرهم - إذن - أنهم كانوا حديثي عهد بالدّين الجديد ، وأن الصّورة لم تتضح ملامحها كلّ الوضوح بعد ؛ ومن ثم لم يتعمق فَهْمهم لمبادئ ونظم الإسلام إلا بعد عدة سنوات .

كانت معاني الإسلام جديدة عليهم ؛ فهي ليست تلك المعاني التي ألفوها في الجاهلية ، ودرجوا عليها وسمعوا كثيرًا من نماذجها في شعر فحولها ، أضف إلى ذلك « أن أثر الحركات الدينية والفكرية ، وكذلك الثورات ، لا يظهر أثرها واضحًا كاملاً في وقت مبكِّر ، بل لا بد أن تمرَّ فترة كافية تستقر فيها النُّفوس والأذهان ، وقد كان رسول الله ﷺ يعوض ما فات على الشُّعراء ، فيوجّههم ويسدِّد خطاهم ، ويدفعهم في سبيل الدّين ، فتهيأ لهم بذلك أن يقوموا بمهمتهم الشِّعرية طيلة السنوات الثماني التي كانت بين الهجرة والفتح ، أما بعد الفتح ، فقد انضم إلى هؤلاء الشُّعراء - باستثناء عبد الله بن رواحة ، الَّذي استشهد في نفس سنة ثمان - شعراء جدد منهم عباس بن مرداس وبجير بن زهير وأخوه كعب بن زهير . »[١١]

بقي أن أقول إنه لم يكن من السهل على هؤلاء الشُّعراء الَّذين دخلوا الإسلام أن يعيشوا بذوقين وبأسلوبين ، فنحن نلاحظ حين نقرأ شعرهم لأول وهلة أنهم كانوا يعبِّرون عن ذوق جيل قديم ، فإذا ما أطلق هؤلاء الشُّعراء لأنفسهم أن يعبِّروا عن ذوقهم وجدناهم يندفعون للتعبير بحرية ودون تقيّد ، كأنهم يعبرون عن ذوق جيل جديد يتفق معهم في مشاعرهم وعقيدتهم وأفكارهم ، وهكذا نجدهم قد وضعوا ملامح ذوق جديد لعصر جديد .

مُقَوِّمات فَنِّيَّة

لا شك أننا إذا رحنا نتتبّع ما قيل في المصادر من شعر الرِّثاء في صدر الإسلام - عصري النُّبوَّة والخلفاء الراشدين - لوجدنا كمّا كبيرًا من الشِّعر الحزين المتفجِّع الذي يدور حول التعزية والدعوة إلى الصبر على البلاء والموت ، وكذلك تأبين الميت بصفاته ومناقبه ؛ ذلك لأن الأحداث الَّتي امتلأت بها هذه الفترة من تاريخ الأمة الإسلامية - على كثرتها وأهميتها - قد حركت مشاعر

الشُعراء ليبكوا من تتابع سقوطه من القتلى والشهداء خلالها .

ولقد اكتفينا بما أوردنا من أشعار لتوضيح ما حدث لهذا الفن من تطوّر وازدهار خلال تلك الفترة ؛ ذلك لأن تشابك تلك الأحداث وسرعة جريانها قد صبغها بصِبْغة واحدة ، فجعلها متشابهة في خصائصها ومعانيها ، ومن ثم رأينا أن مقطوعة واحدة أو قصيدة تكفي للدلالة على ما نريد أن نوضِّحه ونتحدث عنه .

وبعد أن عرضنا لشعر الرِّثاء بالشرح والتحليل ، فلا بد من وقفة سريعة لرصد بعض الجوانب الفنية التي امتاز بها هذا الشِّعر ، والَّتي أكسبته خصائصَ جديدة نتيجة لعوامل التطوّر التي مرَّ بها .

بادئ ذي بَدء نقول إن شعر الرثاء في تلك الفترة التي ندرسها قد امتاز بالسهولة والوضوح ، ولا شكّ أن هناك أسبابًا أدت إلى ذلك ، وقد تحدّثنا عنها من قبل بالتفصيل ، وما نريد أن نؤكده مرة أخرى هنا أن الشُعراء كانوا أداة تعبيرية صادقة لمشاعرهم وصدق إيمانهم .

وإذا كانت هذه السُهولةُ وهذا الوضوح قد جعلا الشِّعر يبدو أحيانًا ضعيفًا ركيكًا ، فإن الأمرَ لم يخلُ في كثير من الأحيان من رصانة في البناء ، وقوّة في اللَّفظ ، ومتانة في الحبْك .

كان الشعر في أوائل ظهور الإسلام خاليًا من أية مَسْحة دينية أو أية لفظة تشعرنا بأنها قد نظمت في ظلال الدين الجديد ، وهذا واضح في شعر حسان بن ثابت ، وهذا أمر طبيعيّ ؛ لأن حياة المسلمين لم تكن قد اكتملت بعد في تلك الأيام ، ومن ثم لم يستطع هؤلاء الشُعراء استيعابها ، وفهمها فهمًا جيدًا حتى يتناولوها في أشعارهم . وبمرور الزمن وانتشار الإسلام وتوالي نزول القرآن ودوام تلاوته ، بدأت ألفاظ جديدة تتسلل إلى أشعار هؤلاء الشُعراء ، وتتردّد على شفاههم ، محاولين تحرير تلك الأشعار من الخشونة والتعقيد اللَّفظي مما دَرَجوا عليه في العصر الجاهليّ . يقول ابن فارس : « كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم ، في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله – جل ثناؤه – بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللُّغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى ، بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت ، فعفى الآخر الأول . »[١٢]

ومن تلك الألفاظ رثاء حسان لحمزة بن عبد المطلب[١٣] :

فالشَّهيد بَيْنَ أرْماحِكم　　　شَلّتْ يَدا وَحْشيّ مِنْ قاتِلِ

وفي قوله في رثاء الرسول ﷺ [١٤] :

وَما فَقَدَ الماضونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ　　وَلا مثله حَتّى القِيامَة يفقد

وفي قول أبي بكر الصديق وهو يرثي الرسول أيضًا [١٥] :

لَيْتَ القِيامَةَ قامَتْ بَعْدَ مهلكهِ　　وَلا نرى بَعْدَهُ مالاً وَلا وَلَدا

وفي قول أبي زيد الطائي وهو يرثي عثمان بن عفان [١٦] :

حتّى تنصلها في مسجد طهر　　على إمام هدى إن معشر جاروا

وفي قول صفية بنت عبد المطلب في رثاء النبي ﷺ [١٧] :

فَلَوْ أنَّ رَبَّ النّاسِ أبْقى نَبِيَّنا　　سعدنا وَلكن أمرهُ كانَ ماضِيـــا

عَلَيْكَ مِنَ اللهِ السَّلام وتحية　　وَأدخلت جَنّات مِنَ العدنِ راضِيا

وفي قولها ترثي حمزة [١٨] :

دَعاهُ اللهُ الحَقُّ ذو العَرْشِ دَعْوَةً　　إلى جَنَّةٍ يَحْيا بها وَسُـــرورِ

فَذَلِكَ ما كُنّا نُرَجّي وَنَرْتَجـــي　　لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْر مَصيرِ

وهكذا ازدهرت هذه الألفاظ والمصطلحات الإسلامية ، الّتي لم تكن سائدة قبل الإسلام ، وكان من الطبيعي أن يحفل بها كثير من الشُّعراء الذين اعتنقوا الإسلام . ومن تلك الألفاظ التي تكررت كثيرًا في شعر تلك الفترة : القرآن والنُّبوَّة والرسالة والجنة والنّار والتقوى والحلال والجهاد والقيامة ويوم الحشر والشهادة ، كما ظهرت ألفاظ حضارية أخرى أوجبتها الحياةُ الإسلامية الجديدة ، مثل : أمير المؤمنين ، والخليفة ، والإمام ، كقول كعب بن مالك يرثي عثمان [١٩] :

يا قاتَلَ الله قَوْمًا كانَ أمْرُهُم　　قَتْلَ الإمامِ الزَّكِيِّ الطّاهِرِ الرّدن

وكقول حسان في رثاء عثمان أيضًا [٢٠] :

يا قاتَلَ الله قَوْمًا كانَ شأنهم　　قَتْلَ الإمامِ الأمينِ المسلمِ الفَطن

وكقول أبي الأسود الدؤلي في رثاء علي بن أبي طالب [٢١] :

ألا يا عَين وَيْحَكِ أسعدينا ألا تبكي أميرَ المؤمنيـــنَ

ولم يكتف الشُّعراء باستخدام تلك الألفاظ الجديدة ، وإنما لجأوا إلى الاقتباس أيضًا من القرآن الكريم والحديث النَّبوي « وليس المقصود بالاقتباس من القرآن تقليده في طريقة معالجته لموضوعاته ، فالغرض الديني واضح ، والأصل في القرآن هو الَّذي يحكم موضوعاته وتوجيهاته وتعبيراته ، ولكنه – مع وفائه بالغرض الديني كاملاً – يحمل خصائص فنية تصل إلى حد الإبداع والإعجاز . وذلك إلى جانب المفاهيم التي يعرضها عن الكون والحياة والإنسان . وحين نحاول الإفادة من القرآن في مجال الفن ، فسنلجأ إلى النّاحيتين معًا ، المفاهيم وطرق الأداء ، ولكن لا لتقليدهما ، وإنما لالتقاط التوجيه الذي تحمله ، والنسج على منواله فيما ننشئ من فنون . » (٢٢)

من ذلك قول عمار بن ياسر (٢٣) :

أنهم عِنْدَ رَبِّهم في جِنــــانٍ يَشْرَبونَ الرَّحيقَ وَالسَّلْسَبيلا

مِنْ شَرابِ الأبْرارِ خَلَطَهُ المِسْكُ وَكَأسًا مِزاجُها زَنْجَبيـــلا

فقد اقتبس ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فيها كَأسًا كانَ مِزاجُها زَنْجَبيلا ، عَيْنًا فيها تُسَمّى سَلْسَبيلا ﴾ (٢٤) .

وقول حسان بن ثابت (٢٥) :

صَلّى الإلَهُ وَمَنْ يحفُّ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبونَ عَلى المبارَكِ أحْمَدِ

فقد اقتبس هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله وَمَلائِكَتَهُ يُصَلّونَ عَلى النَّبيِّ ، يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا صَلّوا عَلَيْهِ وَسَلِّموا تَسْليما ﴾ (٢٦) .

وكقوله أيضًا (٢٧) :

فَلا يبعدن الله قتلى تَتَابَعوا بِمؤتة مِنْهم ذو الجَناحَيْنِ جَعْفَر

وهذا المعنى مقتبس من قول الرسول ﷺ : « إن الله جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم ، يطير بهما مع الملائكة . » (٢٨)

ويقول أحد أبناء سعد بن معاذ (٢٩) :

وَما اهْتَزَّ عَرْشُ اللهِ مِنْ مَوْتِ هالِكٍ　　سَمِعْنا بِهِ إلا سَعْد أبي عمــــرو

وهو يشير إلى قوله ﷺ : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ . »[٣٠] ولا أريد أن أكرِّر هنا ما سبق أن أوردناه من شعر للتدليل والاستشهاد على أثر الإسلام في ألفاظ شعر الرِّثاء ؛ فقد أسهبنا في الحديث عن ذلك في ثنايا هذا الكتاب .

وكما طرأ على الشِّعر ألفاظ جديدة ، فإن ثمة ألفاظًا أخرى لم يعد لها وجود في شعر الرثاء أيضًا مثل ذكر الخمر وشق الجيوب وخمش الوجوه ، ففي الجاهلية نجد أحد الشُّعراء يرثي صديقيه بقوله[٣١] :

أقيم عَلى قَبْرَيْكُما لَسْتُ بارِحًا　　طَوالَ اللّيَالي أو يُجيبُ صَداكُما

أصبُّ عَلى قَبْرَيْكُما مِنْ مُدامَةٍ　　فَإنْ لَمْ تَذوقاها أبلّ ثَراكُمـــــا

وكقول الأفوه الأودي عندما رثى نفسه[٣٢] :

وَمِنْهُنَّ مَنْ قَدْ شقق الخمشُ وَجْهَها　　مسلبة مِنْ مَسِّ أحْشاءها العبــر

وقول أم البنين بنت عتبة بن الحارث[٣٣] :

عَلى مِثْل ابن مَيَّة فانعياه　　تشقّ نَواعم البشر الجُيوبا

وقد نهى الإسلام عن ذلك ، فهذا لبيد – في الإسلام – ينهى ابنتيه أن تأتيا أعمال الجاهلية في النواح عليه بعد الموت بقوله[٣٤] :

فَقوما فَقولا بِالَّذي قَدْ عَلِمْتُما　　وَلا تَخْمشا وَجْهًا وَلا تَحْلقا شعر

وإذا كانت عناصر الأدب هي الفكرة أو المعنى والعاطفة والخيال والألفاظ ، فإن اللَّفظة « تعتبر السبب الأساسي لكل نقد يوجَّه إلى اللُّغة ، ولا غرابةَ في ذلك ؛ فاللَّفظة هي أصغر الوحدات ذات المعنى في الكلام المتصل . »[٣٥]

وفي هذه الدائرة يقول الدكتور شوقي ضيف : « أول ما يلقانا في نصوص الشعر ألفاظه ، وهي ليست ألفاظًا محدَّدة الدَّلالة ، يدلّ بها الشُّعراء على أشياء حسية من واقعهم الخارجي ؛ فإنهم لا يعبِّرون عن هذا الواقع ومسمّياته الحقيقية ، وإنما يعبِّرون عن واقعهم النفسي ، وما تختلج به نفوسهم من مشاعر وأحاسيس . »[٣٦] ، وهذا يعني أن الفكر : « لما كان موجهًا دائمًا

إلى الخارج ، فإن تجسيده يكون في اللُّغة أو الألفاظ ، وهذه اللغة ليست رداءً للفكر أو قالبًا له وإناء يحتويه ، وإنما هي الفكر نفسه مجسدًا في ألفاظ لُغوية . . »[٣٧]

وعلى ذلك يكون لكل شاعر هدف واحد في قصيدته ، هو رصد الكلمات وبناء الجمل بها ، بطريقة تضمن لها الانسجام .

وكما كان للثقافة الإسلامية أثرُها البارز في اللُّغة والألفاظ ، فإننا نجد أن هذه اللُّغة قد تأثرت أيضًا بطبيعة الموضوع الَّذي تعالجه .

فإذا كان هذا الموضوع هو الرِّثاء فلا بد أن تعطي الألفاظ بعدًا انفعاليًا وعاطفيًا ، يتناسب ونفسية الشّاعر في هذا الموقف الحزين المؤلم . تقول عاتكة بنت زيد وهي ترثي عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٣٨] :

منع الرقاد فعاد عيني عود	مِمّا تضمن قلبي المعمود
يا ليلة حسبت عَلَيَّ نجومها	فَسهرتُها وَالشّامِتون هجودُ
قَدْ كانَ يسهرني حذارك مَرَّةً	فَاليَوْمَ حقّ لِعَيْني التَّسهيد
أبكي أميرَ المؤْمِنينَ وَدونَهُ	لِلزّائِرينَ صَفائح وصعيد

فألفاظ الشّاعرة : منع الرقاد – قلبي المعمود – فسهرتها – التَّسهيد – أبكي . . تمتاز بالوضوح لبعدها عن الغرابة أو الابتذال ، وهي في نفس الوقت تعطي إيحاء معبِّرًا عما يختلج في نفسها من أحاسيس الحزن ومشاعر الألم ، وقد تفنّنت في نظم ألفاظها بإدخال بعض ألوان البديع اللفظي كالجناس النّاقص بين عاد وعود وبين عادوا وعمود ، والطباق بين السهر والهجود ، كذلك اهتمت الشّاعرة بالنغمات الصوتية التي تعطي نغمات معينة أثناء ترديد هذه الأبيات ، مما يضفي على أسلوبها جوًّا موسيقيًا واضحًا. فهي تعتمد على حرف العين خمس مرات في البيت الأول، وهذا الحرف حَلْقي احتكاكي مجهور صعب النطق[٣٩] ؛ مما أنتج نَغْمة أشاعت جوًّا من الحزن ، وكشفت عن حالة الشاعرة الصوتية وهي الاختناق أثناء البكاء .

وفي البيتين التاليين تخفّ حِدَّة الصدمة عند الشّاعرة بما أضفاه صوت الصفير من تكرار السين بطريقة منتظمة فيهما ؛ ذلك لأن صوت الصفير يؤدي إلى نعومة الصوت[٤٠] ، مما أحدث نقلة معينة من التهدّج والبكاء إلى الهدوء . أما في البيت الأخير فالشّاعرة تعترف صراحة بالبكاء ،

بعد أن تأكدت من حتمية الموت ، وما صار إليه أمير المؤمنين .

وإذا كان الشُّعراء يلجأون إلى تكرار بعض الحروف لما لها من دَلالة صوتية أو نفسية ، فإن بعضهم لجأ إلى تَكرار بعض التراكيب كميزة من ميزات الأسلوب الرّثائي ، بجانب كونها ضربًا من الولولة والندب ، وأيضًا لارتباطها بظروف الشّاعر النَّفسية وشدة انفعاله وتأثّره . من ذلك قول حسان بن ثابت يرثي النبي ﷺ [٤١] :

فبورِكْتَ مَوْلودًا وَبورِكْتَ ناشِئًا　　وبورِكْتَ عِنْدَ الشَّيْبِ ، إذْ أنْتَ شائِبُ

وَبورِكَ قَبْرٌ أنْتَ فيهِ وَبورِكَـتْ　　بِهِ وَلَهُ ، أهْلُ لِذَلِكَ ، يَثْـرِبُ

و واضح ما في البيتين من تكرار كلمة « بورك » خمس مرات .

وكقول جويرية بنت قارظ في رثاء ابنيها القتيلين [٤٢] :

يا مَنْ أحسّ بِابْنَيَّ اللَّذَيْنِ هُما　　كَالدُّرَّتَيْنِ تشظى عَنْهُما الصدف

يا مَنْ أحَسَّ بِابْنَيَّ اللَّذَيْنِ هُما　　سَمْعي وَقَلْبي ، فَقَلْبي اليَوْمَ مُخْتَطفُ

يا مَنْ أحَسّ بِابْنَيَّ اللَّذَيْنِ هُما　　مُخّ العِظامِ ، فَمُخّي اليَوْمَ مزدهف

ويبدو أن الشُّعراء إنما كانوا يريدون من هذا التَّكرار أن يسلطوا الضوء على نقطة حسّاسة في التَّعبير تكشف عن مدى حسرتهم على من فقدوه ، أو قد يريدون أن يشعروا السّامعين بمدى الخسارة الَّتي حلت بهم بسبب هذا الفقد .

وهكذا يصبح التكرار بمثابة الضوء الذي يسلِّطه الشّاعر على الأعماق كي يسهل الاطلاع على خباياها وعلى اللا شعور الكامن فيها ، فهو تكرار لا شعوري . ويصح القول بأنه « يجيء في سياق شعوري كثيف يبلغ أحيانًا درجة المأساة ؛ ومن ثم فإن العبارة المكررة تؤدي إلى رفع مستوى الشعور في القصيدة إلى درجة غير عادية . واستناد الشّاعر إلى هذا التكرار يستغني عن عناء الإفصاح المباشر وإخبار القارئ بالألفاظ عن مدى كثافة الذروة العاطفية . » [٤٣]

وقد يميل الشّاعر إلى التكرار من أجل أن يربط بين بيتين ، فيزيد من وحدة أجزاء الصّورة ، ويؤكد أيضًا حدة الشُّعور . يقول أبو ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه [٤٤] :

فَأَجَبْتُها أن ما لِجِسْمي أنَّـهُ		أَوْدى بَنِيَّ مِنَ البِلادِ فَوَدَّعوا
أَوْدى بَنِيَّ وَأَعْقَبوني غصَّةً		بَعْدَ الرُّقادِ وَعَبْرَةً لا تقلـعُ

ونجد الظاهرة نفسها في قصيدة متمِّم بن نويرة الَّتي يرثي فيها أخاه مالكًا ، فهو يقول (٤٥) :

لَقَدْ لامَني عِنْدَ القُبورِ عَلى البُكا		رَفيقي لِتَذْرافِ الدُّموعِ السَّوافِكِ
فَقالَ : أ تَبْكي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ		لِقَبْرٍ ثَوى بَيْنَ اللِّوى وَالدَّكادِكِ ؟
أ مِنْ أجْلِ قَبْرٍ في المَلا أنْتَ نائحٌ		عَلى كُلِّ قَبْرٍ أوْ عَلى هالِكِ !
فَقُلْتُ لَهُ : إنَّ الشَّجَى يَبْعَثُ الشَّجَى		فَدَعْني ، فَهَذا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ

فبالتكرار وجد الشّاعر ما يكشف عنه لنا ، وما يؤثّر فينا أو ما يشي بصدق الشاعر ، وقوله : « إن الشَّجى يبعث الشَّجى » في غاية التوفيق ، بالإضافة إلى أن تكرار كلمة « قبر » يخلق المشاعر التي يلتقي فيها الفقد بالامتلاء ! كذلك اختيار الشاعر الكسرة لقافيته يشعر بالرقة والانكسار وهذا ما يتناسب مع ما هو فيه من حزن (٤٦) .

ومن الأساليب الجديدة التي استحدثها الشعراء في أشعارهم : القسم ، وقد كانوا متأثرين في ذلك أيضًا بالحياة الإسلامية التي عاشوها وشاركوا فيها ، والتي اغترفوا منها كثيرًا من المعاني والأفكار . من ذلك رثاء حميد بن ثور الهلالي لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، فهو يقول (٤٧) :

إنّي وَرَبِّ الهدايا في مَشاعِرِها		وَحَيْثُ يقضى نذور النّاسِ والنسك
وَرَبِّ كل منيب باتَ مُبْتَهِلاً		يَتْلو الكِتابَ اجْتِهادًا لَيْسَ يترك
لا أنكرن الَّذي أوليتني أبَدًا		حَتّى أعد مَعَ الهلكى إذا هلكوا

فقد اتخذ الشّاعر من تعدّد القسم في هذه الأبيات وسيلة لرسم صور ومشاهد متتابعة لتقرير ما يقصد من المعاني ، وهذا من قبيل الإبداع الفني .

ومن السّمات الواضحة كذلك في شعر الرّثاء في تلك الفترة استخدام الأسلوب التقريري واللهجة الخطَابية ، خاصة في شعر النقائض بين المشركين واليهود من جهة والمسلمين من جهة أخرى ، مما أدى إلى ضعف الخيال وقِلّة الصُّور الشّعرية المتكاملة . أما من ناحية الأفكار والمعاني

التّي تناولها الشُّعراء من خلال رثائهم للموتى والقتلى فنلاحظ أنها كانت في بداية صدر الإسلام على غرار النمط الجاهلي ، فظهرت الرّوح القبلية ، وخاصة فيما كان بينهم من نقائض شعرية ، غير أن الإسلام بمرور الزمن هذّب من نفوس هؤلاء الشُّعراء . وإن لم يكن من السَّهل أن يتخلّصوا مما ألفوه في الجاهلية ، وقد ظهر أثر ذلك واضحًا في شعرهم . وقد ارتبط شعر الرِّثاء بالأحداث الهامة في تلك الفترة واتسم بالإيجاز وقوّة التعبير و وضوح المعاني ، والوضوح هنا ليس ضعفًا ، وإنما كانت له أسباب ومبرّرات قد تحدثنا عنها من قبل ، ونوجزها في أثر الدين الجديد على نفوس هؤلاء الشُّعراء ، فقد كانوا يعيشون حياة جديدة تتسم بالوضوح والسهولة ، وقد انعكس ذلك على شعرهم ، أضف إلى ذلك كثرة ما وضع من أشعار ركيكة نسبها الرواة إلى تلك الفترة .

ومن الأساليب التي بقيت في شعر الرِّثاء بعد الإسلام الدُّعاء بالسقيا لقبر الميت ، كما رأينا عند متمم بن نويرة أثناء رثائه لأخيه مالك بقوله (٤٨) :

سَقى الله أرْضًا حَلَّها قَبْرُ مالِكٍ   ذهابَ الغوادي المدجنات فأمرعا

وبقوله أيضًا (٤٩) :

فَوَاللهِ ما أسْقي البِلادَ لِحُبِّها   وَلَكِنَّني أسْقي الحَبيبَ المودعا

وهذا الدعاء كان نمطًا أسلوبيًا يتصل بطقوس دفن الموتى وما يتبع مواراة الجسد ترابه ونثر الماء فوقه . والشّاعر عادة - وفي مقام الرِّثاء خاصة - يعتز بتمسكه بمثل الدّعاء بالسقيا .

ويبدو أن شعراء الرِّثاء بعد ظهور الإسلام - فيما أحدثوه من تغييرات في أساليب الشِّعر - قد تخلّصوا من كثير من الإيحاءات الأسطورية ، ولكنهم أبقوا على بعضها ، ومن ذلك الدعاء بالسقيا ، حتى لقد ظلَّ من أهم ما يحفِل به القاموس الشعري ، ولم يكن ليتعارض قطّ مع الأسلوب الخاص لكل شاعر .

ولقد عُني الشُّعراء بترتيب المعاني وتسلسل الأفكار وترابطها ، فالشّاعر ما دام يفكِّر وينفعل ويتأثر بالأحداث التي تدور من حوله ، فما من شك في أن شعره يصبح متنفسًا للتعبير عن كل

هذه الانفعالات والأحاسيس المكبوتة في داخله . والرثاء إحساس بالحزن والألم ومرارة الفقد ، فالتجربة حقيقية ؛ ومن ثم تصبح العاطفةُ صادقة قوية تفيض بالمعاني والأفكار التي يتجلى فيها الاتجاه الوجدانيّ والدّيني ، ولنأخذ على ذلك مثالاً - والأمثلة كثيرة ومتنوعة - رثاء فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ لأبيها بعد وفاته فهي تقول (٥٠) :

اِغْبَرّ آفاقُ السَّماء وَكُوِّرَتْ	شَمْسُ النّهارِ وأَظْلَمَ العَصْرانِ
فَالأرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَئِيبَةٌ	أسَفًا عَلَيْهِ كَثيرَة الرَّجَفانِ
فَلْيَبْكِهِ شَرْقُ البِلادِ وَغَرْبُها	وَلْيَبْكِهِ مُضَرٌ وَكُلُّ يَماني
ولْيَبْكِهِ الطَّوْدُ المُعَظَّمُ جَوُّهُ	وَالبَيْتُ ذو الأسْتارِ وَالأرْكانِ
يا خاتَمَ الرُّسُلِ المبارك صنوه	صَلّى عَلَيْكَ مُنَزِّلُ القُرآنِ

والفقيد هنا أب ونبي أيضًا ، وإذا كان فقد الأب يعتبر من المصائب العظيمة في حياة الابنة ، فما بالنا والفقيد رسول الله ، وسيد الخلق وأفضلهم قاطبة ؟ كان الخطبُ جلَلاً والمصيبة عظيمة ؛ ومن ثم نقلت لنا الشّاعرة صورًا تتناسب وحالتها النفسية وما تعانيه من حزن ومرارة وألم ، ولوَّنت تلك الصُّور بالسواد والشحوب ، بعد أن تغيَّر لون السماء ، وجعلت الأرض تشارك أيضًا في التعبير عن حزنها باضطرابها وكثرة رجفاتها ، ثم أوجبت على الناس جميعًا البكاء حزنًا على فقدهم لخاتم الرُّسل .

وهكذا يتضح لنا ترابط الأفكار وترتيبها ، فهي بعد أن عرضت للمصائب الَّتي حلت بالكون بسبب موت النبي ﷺ ، رتبت على ذلك وجوب البكاء عليه ، مستخدمة حرف الفاء للعطف في البيت الثالث ، وهو حرف يفيد الترتيب والتعقيب . ثم نراها تستخدم بعد ذلك حرفًا للعطف ، وهو الواو في البيت الرابع ، فعطفت به وأوجبت البكاء على باقي الموجودات التي شهدت وجوده ﷺ . واستخدام الواو يفيد استغراق مرحلة زمنية أطول من الَّتي تستخدم فيها الفاء .

لا شك أن فقد النبي في نظر المسلمين جميعًا مصيبة ليست بعدها مصيبة ، وهذا إحساس ديني وعاطفي ، لكننا نستطيع أن نلاحظ عاطفة من نوع آخر ، تلك هي عاطفة الأمومة . والأم إذا

فقدت ابنها ، فإنها تحس عاطفيًا بقيمة هذا الفقيد ، وكأنها بفقده فقدت جزءًا من جسدها أو عضوًا من أعضائها . يتضح ذلك من رثاء أعرابية قتل خالد بن الوليد ابنها فقالت ترثيه (٥١) :

يا فَرْحَةَ القَلْبِ وَالأحْشاءِ وَالكبد ... يا لَيْتَ أمَّكَ لَمْ تَحْبل وَلَمْ تَلِدِ
لَمّا رَأيْتُكَ قَدْ أدْرِجْتَ في كَفَنٍ ... مطيبًا لِلْمَنايـا آخـر الأبَـدِ
أيْقَنْتُ بَعْدَكَ أنّي غَيْرُ باقِيَةٍ ... وَكَيْفَ يَبْقى ذِراعٌ زالَ عَنْ عَضُدِ

كانت الأم تعيش من أجله ، لكنها بعد أن فقدته فلا طعم للحياة من بعده ، وكأن حياتها انتهت بموته ، فهي تشعر بأن جزءًا منها واراه القبر ، وأنها لا يمكن أن تصل إليه مهما بكت ونحبت .

وإذا كان « الشّاعر العظيم هو الَّذي يوفق في فنه إلى المعادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال والأسلوب والوزن . » (٥٢) ، فإن ذلك قد توفر عند الشّاعرة ، فالأبيات ناتجة عن قوة العاطفة وصدق الشعور وعمق المعاني ، وإن قلت نسبة الخيال عندها لاعتمادها على الخيال الحسي الَّذي يعتمد على الوضوح في الصورة – ورغم ذلك ، فالأبيات لم تفقد روعتها في التعبير عن حزن الشّاعرة وحرارتها وألمها .

وتتضح قوة العاطفة والصدق الفني كذلك عند كعب بن مالك ، وهو يرثي شهداء يوم اليمامة بقوله (٥٣) :

نامَ العُيونُ وَدَمْعُ عَيْنِك يَنْهملُ ... سَحّا كَما وَكَفَ الطَّبابُ المُخْضَلُ
في لَيْلَةٍ وَرَدَتْ عَلَيَّ هُمومُها ... طَوْرًا أحِنُّ وَتارَةً أتَمَلْمَلُ
وَاعْتادَني حُزْنٌ فَبِتُّ كَأنَّني ... بِبَناتِ نَعْشٍ وَالسِّماكِ مُوَكَّلُ
وَكَأنَّ ما بَيْنَ الجَوانِحِ وَالحَشا ... مِمّا تأوبَني شِهابٌ مُدْخَلُ
وَجْدًا عَلى النَّفَرِ الَّذينَ تَتابَعوا ... يَوْمًا بِمُؤْتة أسْنِدوا لَمْ يُنْقَلوا

فالوجد والحزن يظهران على هؤلاء الشهداء . ولما كانت عاطفة الشاعر قوية والشعور دفاقًا فقد جاءت صوره متتابعة خلال عناصر فنية كالتشبيه والاستعارة والكناية .

ومعيار القيمة في عاطفة الشّاعر هو صدقها ، « أي قدرتها على أن تجعل العمل الفني يشق طريقه وسط زحمة الموجودات ليبرز بدلالة ويلوح برسالة . والصدق هنا ليس هو الصدق العِلْمي ولا الصدق الأخلاقي ، لكنه الصدق الذي ينم على أن العمل الأدبي يخبر بشيء يتوافق مع الحياة ومع المحصلات الوجدانية ، دون أن يكون له أي أثر من شأنه أن يؤدي إلى النفور أو الشذوذ . إنه الصدق الفني الَّذي ينبع من منطق العمل الأدبي ، أو من موضوعيته بكل أبعادها وتفصيلاتها . » (٥٤)



الهوامش

المقدمة :

(١) مصطفى الشورى : شعر الرثاء في العصر الجاهلي ؛ دراسة فنية . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ، ١٩٩٥ .

الفصل الأول :

(١) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر . القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٧٤ . ص ١٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون . القاهرة ، دار الشعب . ص ٥٤٧ .

(٣) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ١٩٦ .

(٤) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، ص ١٠ ، وابن رشيق : العمدة ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد . ط ٢ ، ١٩٥٥ . جـ ١ ، ص ٩ .

(٥) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، ص ٢١٧ .

(٦) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤ – ٢٢٧ .

(٧) أبو هلال العسكري : الصناعتين . ليدن ، ١٣٢١ هـ . ص ١٣٢ .

(٨) النعمان القاضي : شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص ١٧١ .

(٩) ابن رشيق : العمدة . جـ ١ ، ص ١٦ .

(١٠) ابن هشام : السيرة النبوية . القاهرة ، طبعة الحلبي ، ١٩٥٥ . جـ ٢ ، ص ٦٣٦ ، وابن رشيق : العمدة . جـ ١ ، ص ٢٣ ، و ابن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، دار المعارف . جـ ٣ ، ص ٥٩ .

(١١) ابن رشيق : العمدة . جـ ١ ، ص ٣١ .

(١٢) السيوطي : صحيح الجامع الصغير . بيروت ، منشورات المكتب الإسلامي . جـ ٢ ، ص ٢٠٩ ، ٣٣٩ .

(١٣) الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، ١٩٤٨ . جـ ١ ، ص ٢٧٣ .

(١٤) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . القاهرة ، دار الكتب المصرية . جـ١٦ ، ص ٢٣٢ .

(١٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ . جـ٦ ، ص ١٥٤ .

(١٦) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . جـ٣٠ ، ص ٧ .

(١٧) ابن هشام : السيرة النبوية . جـ٣ ، ص ٤٢ .

(١٨) ابن رشيق : العمدة . جـ١ ، ص ٩ .

(١٩) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . جـ١٩ ، ص ٩ .

(٢٠) النعمان القاضي : شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص ١٧٢ .

(٢١) ابن رشيق : العمدة . جـ١ ، ص ١٠ .

(٢٢) ابن هشام : السيرة . جـ٢ ، ص ٢٩ .

(٢٣) المرجع السابق . جـ ٢ ، ص ٢٥٧ ، والأحقاب : الدهور – الكنيف : الحظيرة – الأطناب : الحبال التي تشد بها بيوت العرب – ويريد بمقعدها : الأوتاد التي تربط بها – الأتراب : جمع ترب ، وهن المتساويات في السن – اليباب : القفر .

(٢٤) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ١٥٧ ، والصوب : المطر – المسبل : السائل – الهاطل : الكثير السيلان .

(٢٥) المرجع السابق . جـ٢ ، ص ١٥٧ ، ومسهد قليل النوم – سلخ : أزيل – الأغيد : الناعم – ضمرية : نسبة إلى ضُمرة ، وهي قبيلة – غوري : نسبة إلى الغور ، وهو المنخفض من الأرض .

(٢٦) ابن هشام : السيرة . جـ٢ ، ص ١٨٨ .

(٢٧) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق سيد حنفي حسنين . القاهرة ، ١٩٧٤ . ص ٧٦ .

(٢٨) ديوان كعب بن مالك ، تحقيق سامي مكي العاني . بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٦٥ . ص ٢٥٥ .

(٢٩) ديوان حسان بن ثابت ، ص ١٤٣ .

(٣٠) سورة التوبة ، آية ١١١ .

(٣١) ديوان حسان بن ثابت ، ص ١٦٨ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٣٣) ابن هشام : السيرة . جـ٢ ، ص ٣٧٤ – ذات فرع : ذات سعة – الزبد : رغوة الدم – مجهزة : سريعة القتل .

(٣٤) ابن هشام : السيرة . جـ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٣٥) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية ، تحقيق مصطفى الشويمي . بيروت ، مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ . ص ٧٨ .

(٣٦) السيوطي : الإتقان . جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٣٧) انظر تفسير الألوسي . جـ ١٤ ، ص ١٥٢ ، والتامك : السنام - القرد : المتراكم - النبعة : شجر يتخذ منه القسي - السفن : المبرد .

(٣٨) ابن رشيق : العمدة . جـ ٢ ، ص ٢٨ .

(٣٩) شرح المعلقات السبع الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ . ٣٧٤ .

(٤٠) ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق علي الجندي . القاهرة ، ١٩٥٨ . ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٤١) شرح ديوان عنترة ، تحقيق سعيد مولوي . بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٧٠ . ص ٢٦٧ .

(٤٢) ديوان سلامة بن جندل ، تحقيق فخر الدين قباوة . حلب ، ١٩٦٨ . ص ٢٠٠ .

(٤٣) مصطفى الشورى : شعر الرثاء في العصر الجاهلي ؛ دراسة فنية . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٥ . ص ١٧ وما بعدها .

(٤٤) المفضل الضبي : المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف . ص ٢١٦ .

(٤٥) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر . القاهرة ، دار التراث ، ١٩٧٣ . ص ١٢٧ .

(٤٦) ديوان أوس بن حجر ، ص ١٠٦ .

(٤٧) شعر الأسود بن يعفر (ملحق بديوان الأعشى الكبير) ، ص ٢٩٨ .

(٤٨) ديوان طرفة ، ص ٥٢ ، والهامة : طائر يخرج من رأس القتيل الذي لم يؤخذ بثأره ويقول اسقوني حتى يقتل قاتله ، فيسكن ، (الأمالي . جـ ١ ، ص ١٢٩) والصدى طائر يخرج من رأس القتيل إذا بلي . ويقول الجاحظ : إن الصدى طائر يخرج من قبر الميت فينعى إليه ضعف وليه وعجزه (القاموس المحيط ، مادة « صدى » ، والبيان والتبيين . جـ ١ ، ص ٢٣٢) .

(٤٩) ديوان امرئ القيس ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٥٠) انظر ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٥٧ ، ١٢٦ ، وشرح ديوان زهير ، ص ١٨ ، وديوان لبيد ، ص ٢٥٤ .

(٥١) سورة النمل ، الآيتان ٦٧ ، ٦٨ .

(٥٢) الطبري : جامع البيان ، ص ٦٢٠ .

(٥٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ ٦ ، ص ٧١٢ .

(٥٤) مصطفى الشورى : شعر الرثاء في العصر الجاهلي ؛ دراسة فنية . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٥ . ص ١٣ وما بعدها .

(٥٥) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٩٦٥ . جـ ٣ ، ص ٤٧٥ .

(٥٦) الجاحظ : الحيوان . جـ ٣ ، ص ٤٧٥ .

(٥٧) الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، ١٩٦٨ . جـ ٣ ، ص ٨١ .

(٥٨) سورة الحديد : الآية ٢٠ .

(٥٩) سورة يونس : الآيتان ٧ - ٨ .

(٦٠) سورة النازعات : الآيات ٣٧ - ٤١ .

(٦١) سورة الأعلى : الآيات ١٤ - ١٧ .

(٦٢) الغزالي : إحياء علوم الدين . القاهرة ، طبعة دار الشعب . جـ ٤ ، ص ١٧٠ .

(٦٣) المرجع السابق ، ص ١٧٠٤ .

(٦٤) سورة النساء : الآية ٧٤ .

(٦٥) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٦٦) ديوان حسان . بيروت ، دار صادر . ص ١٥١ .

(٦٧) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٦٨) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٦٩) ديوان حسان ، ص ١٠٥ .

(٧٠) سيرة ابن هشام . جـ ٣ ، ص ٤٢٨ .

(٧١) المرجع السابق . جـ ٣ ، ص ٤٣٥ .

(٧٢) سورة البقرة : الآيات ١٥٥ - ١٥٧ .

الفصل الثاني :

(١) البلاذري : أنساب الأشراف . جـ ١ ، ص ٤٩ ، والسيرة لابن هشام . جـ ٢ ، ص ١٤٨ ، وتاريخ الطبري . جـ ٢ ، ص ٤٦٤ .

(٢) هذا البيت والذي يليه بهما إقواء .

(٣) السيرة . جـ ٢ ، ص ٣٠ ، والأيك : الملتف - الجوانح : الموائل - المعولات : الرافعات الصوت بالبكاء .

(٤) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٣ ، والمسبلات : الدموع السائلة - الدفعة : الحرب - خانة : جمع خائن - خدعة : جمع خادع - القمعة : السنام - القزعة : سحاب متفرق .

(٥) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٥ - ١٦ ، فئام : جماعات من الناس - المرة : القوة - التميم : الطويل - أوصام : عيوب - الشجو : الحزن .

(٦) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧ - تنسجم : تنصبّ - الندي : المجلس - أشجى : أحزن - لم يرم : لم يزل .

(٧) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ٢٨ . الجفر : البئر القديمة التي لا بناء لها - المحيل : القديم المتغيرة - غير فيل : غير فاسد الرأي - درج المسيل : موطن الذل والقهر - العقد : العزم والرأي .

(٨) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦٦ . النأي : البعد - لا تصرف : لا ترد ، ويريد التحية - يصرف : يغلق فيسمع له صوت .

(٩) ديوان الهذليين . جـ ٢ ، ص ١٤٨ والسيرة لابن هشام . جـ ٢ ، ص ٤٧٢ . عجف : أضعف - الفجر : الجود وكرم - الجيدر : القصير - الشمائل : ريح الشمال الباردة ومعها القحط - أذلقته : أمحلته - الضريك : الفقير - الدريسان : الثوبان الخلقان ، يريد رداءه وإزاره - العائل : الفقير - المقرور : الذي أصابه البرد - الحدب : تراكم الريح في هبوبها - تحته : تسوقه بسرعة - يوائل : يطلب ملجأ - اللوذعي : البيِّن اللسان - الحلاحل : السيد .

(١٠) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ٥٢ ، وابن سلام الجمحي : طبقات الشعراء ، ص ٢٣٨ .

(١١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ ، أرقت : امتنع النوم عني - ضافني : نزل بي - النجيع : الدم الطري - المدارع : جمع مدرعة وهو ثوب يلبس - العبير : الزعفران - العتائر : جمع عتيرة وهي الذبيحة - لا تليق : لا تبقي - صخر : هو أبو سفيان بن حرب .

(١٢) انظر السيرة ، ص ٥٧ ، ٨٤ ، ١٣٨ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٦٦٥ .

(١٣) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٥٧ - بنات الجوف : القلب وما اتصل به من كبد وأمعاء - حراء : جبل - الكوم : الإبل العظيمة السنام - الجلاد : القوية - الكمي : الشجاع - مجدلاً : مطروحًا على الأرض - يتقصد : يتكسر - ذو لبدة : يعني أسدًا - شثن : غليظ - البرائن : الأصابع - الأربد : الأغبر يخالطه سواد - معلمًا : مشهرًا نفسه بعلامة يعرف بها في الحرب .

(١٤) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ، وأبو يعلى : كنية حمزة ، رضي الله عنه - الماجد : الشريف - الواله : الفاقدة - العبرى : الكثيرة الدمع - الهبول : الفاقدة .

(١٥) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ ، والنائل : العطاء - الشيزى : جفان من خشب - أعصفت : اشتدت - الشيم : الماء البارد ، ويريد بذي الشيم : زمن اشتداد البرد والقحط - الماحل : من المحل وهو الجدب - القرن : المنازل في القتال - ذو الخرص : الرمح - الذابل : الرقيق - ذا تدرأ : ذا مدافعة .

(١٦) المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٧٧ ، وانظر قصة خبيب وأصحابه في السيرة . جـ ٢ ، ص ١٦٩ « يوم الرجيع » . وقد ذكر ابن هشام بعض المقطوعات الأخرى في رثاء خبيب وكلها تدور حول المعاني والصور التي تناولها في الأبيات التي عرضنا لها هنا . القلق : المتحرك الساقط - الفشل : الجبان الضعيف القوة - النزق : السيئ الخلق - الرفق ، بضم الراء والفاء : جمع رفيق ، والرفق (بفتح الفاء) : جمع رفقة ، (بضم الراء وكسرها) - أوعث : اشتد فساده .

(١٧) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ - ألبوا : جمعوا - أرصد : أعد - بضعوا : قطعوا - ياس : لغة في يئس - الشلو : البقية - الممزع : المقطع - هملت : سال دمعها - الجحم : الملتهب المتقد - ملفع : مشتمل عام - أرجو : أخاف - التخشع : التذلّل .

(١٨) مصطفى الشورى : شعر الرثاء في العصر الجاهلي ؛ دراسة فنية . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٥ . ص ١٢١-١٢٢ .

(١٩) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ١٨٩ . السح : الصب - النزر : القليل - تخون : تنقض - أعنق : أسرع - سر القوم : خيرهم وخالصهم .

(٢٠) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤ - لا تنزري : أي لا تقللي من الدمع - شاكي السلاح : أي حاد السلاح - النثا : ما يتحدث به عن الرجل من خير وشر - طيب المكسر : أصله خالصًا - المبتر : السيف .

(٢١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ . همل الدمع : سال - سحّا : صبّا - وكف : قطر - الخضل : السائل الندي - بنات نعش : بات يرعى النجوم طول ليله من طول السهاد - مدخل : النافذ إلى الداخل - تغمدت من يجهل : سترت جهل الجاهليين - إطلاق الحبوة : كناية عن النهضة للنجدة - الممحِل : الشديد القحط - المسبل : الممطر - ينكبوا : يرجعون هائبين لعدوهم .

(٢٢) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٨٧ - المنزور : القليل - التغوير : الإسراع إلى الفرار - الضريك : الفقير - الخزرجي : هو عبد الله بن رواحة - النزور : القليل العطاء .

(٢٣) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧٠ . حم : قدر - تهافتت : سقطت بسرعة - بنات الحشى : القلب وما اتصل به - الصبابة : رقة الشرق - بلاقع : قفار خالية - نكلوا : رجعوا هائبين - بلاؤنا : اختيارنا - ناقع : ثابت .

(٢٤) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٦٩ - ٢٧٠ . المآقي : مجاري الدموع من العين - متلدد : متحيّر -

صبحت : سقيت صباحًا – الأسود : نوع من الحيات – الضرائب : الطبائع – المحتد : الأصل – تثني : تصرف وتدفع – الله أسمع : وأي لا أسمع – الأرمد : الذي يشتكي وجع العين – بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة . سواء الملحد : وسط القبر .

(٢٥) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٦٦ . تعفو : تدرس وتتغير – تهمد : تبلى – الآيات : العلامات .

(٢٦) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٦٧ – ٦٦٨ – النهج : الطريق المبين – الكنف : الجانب والناحية – مقصد : مصيب – المرسلات : الملائكة .

(٢٧) سورة التوبة : آية ١٢٨ .

(٢٧–أ) سابغ : كثير تام – يغمد : يستر – لا ينكد : لا يكدر – الطريف : المال المستحدث – التالد : المال القديم الموروث – ضن : بخل – يتلد : يكتسب قديمًا . الصيت : الذكر الحسن – الأبطحيّ : المنسوب إلى أبطح مكة وهو موضع سهل متسع .

(٢٨) ابن هشام : السيرة النبوية : جـ ٢ ، ص ٦٧١ ، برا : أصله برأ أي خلق – البرية : الخلق – الذمة : العهد – المباذل : الثياب التي يبتذل فيها – الصادي : العطش .

(٢٩) ابن سعد : الطبقات الكبرى . ليدن ، مطبعة بريل ، ١٣٢٢ هـ . جـ ٢ ، ص ٩٢ – ٩٣ .

(٣٠) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٩ .

(٣١) السهيلي : الروض الأنف . القاهرة ، مطبعة الجمالية ، ١٩١٤ . جـ ٢ ، ص ٧٨ . والاستيعاب لابن عبد البر . القاهرة ، ١٩٣٩ . ص ٦٦٦ .

(٣٢) الحماسة البصرية ، تحقيق عادل جمال سليمان – رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ، ١٩٧٠ ، تحت رقم ٨٥٣ بالمكتبة العامة ، حماسية رقم ٤٤١ ، وتبير وفارع : جبلان .

(٣٣) المرجع السابق ، حماسية رقم ٤٤٢ .

(٣٤) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام . بغداد ، طبعة المجمع العلمي ، ١٩٥٥ . جـ ٥ ، ص ٢٨٢ .

(٣٥) المرجع السابق . جـ ٥ ، ص ٢٨٥ .

(٣٦) صحيح البخاري . جـ ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٣٧) صحيح مسلم . جـ ١ ، ص ٧٠ .

(٣٨) ديوان لبيد ، تحقيق إحسان عباس . الكويت ، ١٩٦٢ . ص ٢١٣ .

(٣٩) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ٣٨ ، جميل المرآة : أرادت مرآة العين – بُرَيّ : هو رجل اسمه البراء ، فصغرته .

(٤٠) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٠ – المسغبة : الجوع الشديد – حربة : حزينة ، مستلبة : مأخوذة العقل

- منثعبة : سائلة بسرعة - الخيول المقربة : التي تقرب من البيوت لكرمها - السلهبة : الفرس الطويلة .

(٤١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٩ .

(٤٢) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . القاهرة ، دار الكتب . جـ ٤ ، ص ٢١٠ .

(٤٣) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ٤٠ - القذا : ما يقع في العين - العائر : وجع العين - حد النهار : الفصل الذي بين الليل والنهار - قرن الشمس : أعلاها .

(٤٤) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤١ ، وقان : أحمر - الغرب : الدلو العظيمة - الدالج - الذي يمشي بدلوه بين البئر والبستان - الغريف : مكان الأسد وهو الأجمة - غرثان : جائع - ذكران أي سيف طبع من مذكر الحديد - مزبد : أي له رغوة - آن : حام .

(٤٥) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ - الأثيل : موضع قرب المدينة - مظنة : أي موضع إيقاع الظن - النجائب : الإبل الكريمة - تخفق : تسرع - الواكف : السائل - الضنء : الأصل - معرق : الكريم - المحنق : الشديد الغيظ - تنوشه : تتناوله - تشقق : تقطع .

(٤٦) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤١ - ٤٢ ، والصفراء : مكان بين مكة والمدينة - الأشعث : المتغبر - الجذل : أصل الشجرة ، تصفه بالثبات والقوة - المحل : القحط - الزفزف : الشديدة السريعة - التشبيب : إيقاد النار تحت القدر - الجزل : الغليظ .

(٤٧) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦٧ . الأعجم : الذي لا يفصح - الصبا : ريح شرقية - مسيري : غيابي - المدره : الذي يدافع عن الناس - يذود : يمنع - الشلو : البقية - تعتادني : تتعاهدني - النعي : بالرفع ، الذي يأتي بخبر الميت .

(٤٨) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦٨ - الإبساس : مسح ضرع الناقة لتدر اللبن - الأباس : الشديد الذي يغلب غيره - البديهة : أول الرأي والأمر - ميمون النقيبة : مسعود الفعال - أودى : هلك .

(٤٩) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦٨ . اقني حياءك : الزمي حياءك - يوم الروع : يوم الفزع - الباس : القتال .

(٥٠) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٥١) ابن عبد البر : الاستيعاب . جـ ١ ، ص ٤٩ ، و أنساب الأشراف . جـ ١ ، ص ٥٩٤ .

(٥٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى . جـ ٢ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٥٣) ابن رشيق القيرواني : العمدة . القاهرة ، ١٩٢٥ . جـ ٢ ، ص ١٢٣ ، ولها مقطوعات أخرى في رثاء النبي ، وانظر العمدة أيضًا . جـ ٢ ، ص ١٤٥ ، و توفيق أبو علم : فاطمة الزهراء . ط ٣ ، القاهرة ، دار المعارف . ص ١٨٢ .

(٥٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى . جـ ٢ ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، و ابن رشيق : العمدة ، تحقيق محمد

محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مطبعة صبيح ، ١٩٣٤ . جـ ٢ ، ص ١٤٥ – ١٤٦ . و النويري : نهاية الأرب . القاهرة ، دار الكتب المصرية . جـ ١٨ ، ص ٤٠٣ . و أبو إسحاق الحصري : زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٩٦٩ . جـ ١ ، ص ٣٢ .

(٥٥) ابن رشيق : العمدة . جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

الفصل الثالث :

(١) يحيى الجبوري : شعر المخضرمين . بغداد ، مكتبة النهضة ، ١٩٦٤ . ص ٣١٠ ، ٣١٤ .

(٢) انظر القصة بالتفصيل في المفضليات للضبي . ص ٢٦٣ – ٢٦٤ .

(٣) انظر القصة بالتفصيل في المفضليات للضبي . ص ٢٦٣ – ٢٦٤ – أقرن : يريد قرنيها وهما حائطان أو خشبتان تعلق عليهما البكرة – الديار : سواق تكون في أصل النخل – الكلى : رقاع تكون عند أذن الدلو – الواهي : المتخرق – تنبيه : تبعده – العبر : الشط – الزوراء من الآبار – التي في جوانبها عوج – هدء : أول الليل – تالي النجوم : آخر الليل .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٢ – صيف : المطر الذي يجيء في الصيف – الربيع : المطر يجيء في الربيع – اللقاح : النوق المدرة للبن – جدب : مهازيل تزوي الوجوه : تجمعها وتقبضها من شدتها – سفوع : تضرب الوجه .

(٥) المرجع السابق (هامش) ٢٦٣ .

(٦) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، تحقيق إبراهيم الإبياري . القاهرة ، مطبعة دار الشعب – ١٥ : ٣١١ . وفي البيت الثاني إقواء ، وهو من عيوب القافية .

(٧) المفضل الضبي : المفضليات ٢٦٥ – ٢٧٠ . المنهالي : هو ابن عصمة الرياحي الذي كفن مالكًا في ثوبيه – غير مبطان العشيات : لا يعجل بالعشاء انتظارًا للضيفان . البرم : الذي لا يلعب الميسر – تهدي النساء : ليس ممن تعطي النساء زوجه لحما في شدة الشتاء – القشع : بيت من جلد – الخصيب : الرحب الفناء – أوضع : أسرع – ذو قاذورة : لسوء خلقه – المتزبع : سيئ الخلق الذي يؤذي الناس .

(٨) الندمان : النديم ، وهما مالك وعقيل ابنا فارج بن كعب ، نادمًا جذيمة الأبرش دهرًا ثم قتلهما – الرباب : السحاب يرى دون السحاب – الجون : الأسود – تريع : تردد بعد أن يصبح كثيرا – الذهاب : المطر الغزير .

(٩) مصطفى الشورى : شعر الرثاء في العصر الجاهلي . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ، ١٩٩٥ . ص ١٥٩ .

(١٠) ، (١١) المفضل الضبي : المفضليات ، ص ٢٦٥ – ٢٧٠ .

(١٢) كارل نلينو : تاريخ آداب اللغة العربية ، ترجمة إبراهيم الكيلاني . دمشق ، الجامعة السورية ،

١٩٥٦ . ص ٩٣ .

(١٣) صلاح الدين الهادي : الأدب في عصر النبوة والراشدين . ط ٢ ، ١٩٨٠ . ص ٣١٥ .

(١٤) شوقي ضيف : العصر الإسلامي . ط ٧ القاهرة ، دار المعارف ، ص ٥٥ .

(١٥) النعمان القاضي : شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥ . ص ٢٢٩ - ٢٣٤ .

(١٦) زينب فواز : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور . ط ٢ بيروت ، دار المعرفة . ص ١٨٣ .

(١٧) ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة . القاهرة ، المطبعة الشرقية ، ١٣٢٥ هـ . جـ ٢ ، ص ١٨١ .

(١٨) ياقوت الحموي : معجم البلدان . ليبزج ، ١٨٩٩ . جـ ٤ ، ص ٥٣٩ .

(١٩) البلاذري : فتوح البلدان . ليدن ، ١٨٦٦ . ص ٢٥١ ، و أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . (ساسي) جـ ٢١ ، ص ١٤١ .

(٢٠) ياقوت الحموي : معجم البلدان . ليبزج ، ١٨٩٩ . جـ ٢ ، ص ٨٢ .

(٢١) نصرت عبد الرحمن : الصورة الفنية في الشعر الجاهلي . عمان ، مكتبة الأقصى ، ١٩٧٦ . ص١٤٦ . ومثال ذلك قصيدة دريد بن الصمة في رثاء أخيه ، والتي مطلعها :

أرَثَّ جَديدُ الحَبْلِ مِنْ أمِّ مَعْبَدِ   لِعاقِبَة أمْ أخلفت كُلَّ مَوْعِدِ

(٢٢) أمالي اليزيدي ، ص ٣٢ .

(٢٣) النعمان القاضي : شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص ٢٤٩ .

(٢٤) المسعودي : مروج الذهب . جـ ٢ ، ص ٢٠٦ .

(٢٥) التبريزي : شرح ديوان الحماسة . جـ ١ ، ص ٨٠ .

(٢٦) ابن حجر العسقلاني : الإصابة . جـ ٣ ، ص ١٤ .

(٢٧) سورة الرحمن : آية ٢٦ .

(٢٨) ديوان الهذليين . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ . جـ ١ ، ص ١ - ٢١ ، و المنون : الدهر : أودى: هلك - تقلع : تكف - هوي : هواي - أعنقوا : أسرعوا - تخرموا : ماتوا واحداً بعد واحد - غبرت : بقيت .

(٢٩) مصطفى الشورى : شعر الرثاء في العصر الجاهلي ؛ دراسة فنية . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٥ . ص ١٨٢ .

(٣٠) ابن هشام : السيرة . ج ٢ ، ص ٢٤ - أخلصت : أحكم صنعها - تعرقت : مزجت .

(٣١) ابن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ، المطبعة الحسينية . جـ ٥ ، ص ٢٣١ .

(٣٢) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ . جـ ١ ، ص ١٠٤ .

(٣٣) ابن حجر العسقلاني : الإصابة . جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(٣٤) تاريخ الطبري . جـ ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٣٥) ابن حجر العسقلاني : الإصابة . جـ ٥ ، ص ٦٠ . جار : يريد كفه .

(٣٦) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، دار الكتب . جـ ١١ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ . الأقرعان : الأقرع بن حابس التميمي الذي بعثه عمر بن الخطاب مع أخيه على جيش إلى الطلقان وجوزجان .

(٣٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان . طبعة ليبزج ، ١٨٦٦ . جـ ٤ ، ص ٤٤٧ .

(٣٨) المرجع السابق . جـ ٤ ، ص ٩٠٦ .

(٣٩) مصطفى الشورى : شعر الرثاء في العصر الجاهلي ؛ دراسة فنية . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٥ . ص ١١٧-١٢٣ .

(٤٠) ديوان أبي محجن الثقفي ، بريل ، ١٨٨٧ . ص ١٥ .

(٤١) ابن قتيبة الدينوري : كتاب الأشربة ، تحقيق محمد كرد علي . دمشق ، ١٩٤٧ م . ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٤٢) ديوان أبي محجن الثقفي ، ص ١٢ .

(٤٣) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . جـ ٢١ ، ص ١٤٣ .

(٤٤) سورة التوبة : آية ٤٠ .

(٤٥) الجاحظ : البيان والتبيين . جـ ٣ ، ص ٣٦٢ ، ديوان حسان بن ثابت ؛ تحقيق سيد حنفي حسنين . القاهرة ، ص ١٩٧٤ . ص ٤١١ .

(٤٦) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . جـ ٩ ، ص ١٥٩ ، والجاحظ : البيان والتبيين . جـ ٣ ، ص ٣٦٤. الأديم : الجلد - البوائق : الدواهي - تفتق : تنشق عن ثمرها - العضاه : شجر ضخم - نثى خبر : شاع الخبر - السبنتى : النمر الخبيث .

(٤٧) ديوان حسان ، شرح البرقوقي ، ١٣٤٨ هـ . ص ٣٨ - ٤٠ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٤٩) ديوان حسان بن ثابت ، ١٠٢ .

(٥٠) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني « ساسي » . جـ ١٥ ، ص ٢٩ .

(٥١) تاريخ الطبري . جـ ٥ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٥٢) الديوان ، شرح البرقوقي ، ص ٤١١١ . السنن : مجرى الدموع - بوقًا : باطلاً وكذبًا - محتتن : متتابع .

(٥٣) ابن عبد البر : الاستيعاب . القاهرة ، المطبعة الشرقية . ص ٤٩٣ .

(٥٤) ديوان حميد بن ثور الهلالي ، تحقيق عبد العزيز الميمني . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٧١ هـ . ص ١١٤ .

(٥٥) المسعودي : مروج الذهب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . بيروت ، المكتبة الإسلامية . جـ ٢ ، ص ٣٥٦ .

(٥٦) المسعودي : مروج الذهب . جـ ٢ ، ص ٣٥٧ .

(٥٧) المسعودي : مروج الذهب . جـ ٢ ، ص ٣٩٢ .

(٥٨) أمالي المرتضى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، الحلبي ، ١٩٥٤ . جـ ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٥٩) المسعودي : مروج الذهب . جـ ٢ ، ص ٤٠٥ .

(٦٠) المرجع السابق . جـ ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٦١) المرجع السابق . جـ ٢ ، ص ٣٧٣ .

(٦٢) النويري : نسب قريش . ط ٢ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٦ . ص ٢٣٢ .

(٦٣) نصر بن مزاحم المنقري : وقعة صفين ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ . وكانت تميم قد شاركت في حروب معاوية وعلي وقتل منهم الكثير .

(٦٤) المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٦٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٥٥٨ .

(٦٦) المسعودي : مروج الذهب . جـ ٢ ، ص ٤٢٨ ، وفي شذرات الذهب لابن العماد - مصر ، ١٣٥٠ هـ . جـ ١ ، ص ٥١ ورد الشعر مخاطبًا الخوارج مع اختلاف في بعض الأبيات :

ألا قُلْ لِلْخَوارجِ أَجْمَعينا   فَلا قَرَّتْ عُيونُ الشّامِتينا

(٦٧) المبرد : الكامل في اللغة والأدب ، طبعة دار العهد الجديد بالخرنفش . جـ ٢ ، ص ١٢٩ .

(٦٨) ياقوت الحموي : معجم البلدان . جـ ٢ ، ص ٢١٤ .

(٦٩) المرجع السابق . جـ ٣ ، ص ٢٣٢ .

(٧٠) المرجع السابق . جـ ٣ ، ص ٢٣٢ .

(٧١) المسعودي : مروج الذهب . جـ ٢ ، ص ٣٥٥ .

(٧٢) المرجع السابق . جـ ٢ ، ص ٣٧٣ .

(٧٣) عمر رضا كحالة : معجم أعلام النساء . ط ٣ بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٧ . جـ ١ ، ص ٢٨٣ .

(٧٤) المرجع السابق . جـ ٤ ، ص ٢٧١ .

(٧٥) المرجع السابق . جـ ٤ ، ص ٢٧١ .

(٧٦) الدر المنثور ، ص ٥٧ ، وأعلام النساء . جـ ١ ، ص ٣١٤ .

(٧٧) نصر بن مزاحم المنقري : وقعة صفين ، تحقيق عبد السلام هارون . ط ٢ القاهرة ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر ، ١٣٨٢ هـ . ص ١٧٨ .

(٧٨) الدر المنثور ، ص٣٢٠ . وانظر تاريخ الطبري . دار المعارف ، ١٩٧٧ . جـ ٤ : ٢١٩ . وقد أخذ على الشاعرة في القطعة الثانية اختلاف الروي في البيتين الأولين عنه فيما تلاهما ، وهذا ما سماه العروضيون بالإجازة ، وانظر : القافية في العروض والأدب للدكتور حسين نصار . دار المعارف ، ١٩٨٠ . ص ٨٧ .

(٧٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ٣-٢٨ .

(٨٠) المبرد : الكامل ٣ : ٢٤٤ ، وعمر رضا كحالة : معجم أعلام النساء : ٣ : ٢٦١ .

(٨١) المسعودي : مروج الذهب . جـ ٣ ، ص ١٢ . والدر المنثور ، ص ٥٣٦ ، و عمر رضا كحالة : معجم أعلام النساء . جـ ٥ ، ص ٢٣٤ .

الفصل الرابع

(١) أحمد الشايب : النقائض ، ص ١٢٥ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٦ ، ص ١٥٤ .

(٣) أحمد الشايب : النقائض ، ص ١٢٩ .

(٤) السيرة جـ ٢ ، ص ١٥ ، وذكر ابن هشام أن هذه الأبيات تروى للأعشى بن زرارة بن النباس . الفئام : الجماعات من الناس – المرة : القوة والشدة – التميم : الطويل – الأوصام : العيوب – الشجو : الحزن .

(٥) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦ ، تعل : تكرر ، مأخوذة من العلل ، وهو الشرب بعد الشرب – الغروب : جمع غرب ، وهو مجرى الدمع – السجام : السائل – تتابعوا : ألقوا بنفسهم في التهلكة – يولي : يحلف – الكهام : الضعيف .

(٦) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٢ ، أخلفت : لم يكن مطر - يربع : يأخذ الربع ، أي أنه كان رئيسًا ؛ لأن الرئيس في الجاهلية كان يأخذ ربع الغنيمة - جدعوا : ذهب عزهم - تبع : ملك من ملوك اليمن - الأروع : الذي يروعك بحسنه وجماله .

(٧) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٣ ، وهذه الأبيات رواية ابن إسحاق ، وقد قال ابن هشام : أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان ، ولكنني وجدتها في مغازي الواقدي . جـ ١ ، ص ١٤٥ ، وقد اعتمد عليها أيضًا محقق الديوان الدكتور وليد عرفات فذكرها في ديوان حسان . جـ ١ ، ص ٤٢٦ . بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٤ .

(٨) يحيى الجبوري : شعر المخضرمين . بغداد ، مكتبة النهضة ، ١٩٦٤ . ص ١٩٣ .

(٩) ابن هشام : السيرة ، جـ ٢ ، ص ٧٦ - القرم : الفحل الكريم من الإبل ، ويريد حمزة ﷺ - الهيجاء : الحرب - الشجا : الحزن - الندوب : آثار الجروح - الجلابيب : كان مشركو مكة يسمّون من أسلم مع النبي ﷺ : الجلابيب ، جمع جلباب أي الإزار الخشن - أودى : هلك - الخدب : الطعن النافذ إلى الجوف - المعطب : الذي يسيل دمه - الكثيب : الحزين - الخطة : الخصلة الرفيعة - الضريب : الشبيه .

(١٠) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٧٦ . أقصده : رماه فأصابه - العضب : السيف القاطع - بخضيب : أي خضيب الدم .

(١١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، نشجت : بكيت - تلجج : اللجج هو الإقامة على الشيء والتمادي فيه - الأضوج : مكان - شايعوا : تابعوا - القسطل : الغبار - المرهج : الذي علا في الجو - المولج : المدخل - حر البلاء : خالص الاختبار - ذي هبة : السيف وقوعه بالعظم - سلجج : مرهف - عبد بني نوفل : هو وحشي قاتل حمزة - يبربر : يصيح - الأدعج : الأسود - أوجره : طعنه في صدره - لم يحنج : لم يصرف عن وجهه الذي أراده من الحق - الزبرج : الوشي - الدرك : ما كان إلى أسفل . والدرج : ما كان إلى أعلى .

(١٢) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ، العجيج : الصياح - المذكي : المسن من الإبل - الصادر : الجماعة الصادرة عن الماء - محنج : مصروف عن وجهه - الروايا : الإبل التي تحمل الماء ، يعجعج : يصوت - لم يحدج : لم يجعل عليه الحدج وهو موكب للنساء - السورج : المتقد - الأوتار : جمع وتر ، وهو طلب الثأر - المطرد - الرمح الذي يهتز - المارن : اللين - المخلج : الذي يطعن بسرعة - البراح : المتسع من الأرض - لم تعنج : لم تكف ولم تصرف - المجلحة : الماضية المتقدمة ، ويعني بها فرسًا - الأجرد : الفرس الأصيل - الميعة : النشاط - المحرج : المضيق عليه .

(١٣) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤١ - ١٤٢ . شط : بعد - النوى : البعد والفرقة - مجنبنا : جنبت الخيل ، إذا قدتها ولم تركبها - العناجيج : الطوال الحسان - المتلد : الذي ولد عندك = النزيع : الغريب - اللهام : الجيش الكثير - الزغف : الدروع اللينة - الضوج : جانب الوادي - نقيع : مملوء بالماء - الأباء : الأجمة الملتفة الأغصان - الذريع : الذي يقتل سريعًا - عاصبة : لاصقة - يعتفين : يطلبن رزقًا - النجيع :

الدم – الشعب : الطريق في الجبل – السمهري : الرماح – شباة كل شيء : حده – وقيع : محدد – يجفن : يدخلن جوفه – الكماة : الشجعان – غال : أهلك – الأشطان : الحبال .

(١٤) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ – ١٤٣ . البلقع : القَفْر الخالي – عفاهن : غيرهن – الدلو : برج في السماء – رجاف : متحرك – هموع : سائل – الرواكد : الثوابت من الأثافي – كنوع : لاصقة بالأرض – المتينات : الغليظات الشديدات – يا سخين : كانت قريش في الجاهلية تلقب سخينة لمداومتهم على أكل السخينة ، وهي دقيق أغلظ من الحساء ، كان يؤكل وقت الجَدْب والشدة – عتبة : هو عثمان بن أبي طلحة قتله يوم أحد حمزة بن عبد المطلب – الوشيج : الرماح – العجاجة : الغبرة – نقوع : جمع نقع وهو التراب – الضريع : نبات أخضر يرميه البحر .

(١٥) سورة الغاشية : الآيتان ٦ – ٧ .

(١٦) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ – مشهرة ذكور : سيوف قوية قاطعة – أبارهم : أهلكم – احترموا : اكتسبوا – الرهو : مشي في سكون – حالف : صاحب – الوبال : النكال – عامدين : قاصدين .

(١٧) سورة الحشر : الآيات ٢ – ٤ .

(١٨) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ٢٠٠ . ضافني : نزل بي – النجيع : الدم الطري – المدارع : الثياب – العبير : الزعفران – العتائر : الذبائح – لا تليق : لا تبقي – صخر : هو أبو سفيان بن حرب .

(١٩) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ . تفاقد : فقد بعضهم بعضًا – بور : ضلال أو هلكى – سراة القوم : خيارهم – البويرة : موضع بني قريظة .

(٢٠) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ . الموالي : الحلفاء – حضير و أسيد : قبيلتان – قيطان : جبل من جبال المدينة – الدثور : الدارس المتغير – الكاهنان : حيان – الخضارمة : الأجواد الكرماء – البدور : الشهور والأيام – عور : جمع أعور .

(٢١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٩١ . السعر : الالتهاب – الغليل : العطش أو حرارة الجوف . ترم : تبلى .

(٢٢) المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٩١ – ٩٢ . الوقاع : الكثير الوقوع في الدنايا . . ملهاشميين : من الهاشميين – الزهر : البيض – يفري : يقطع – شيب : المراد شيبة عم هند – ضواحي النحر : ما أظهر من الصدر .

(٢٣) الأغاني . جـ ٤ ، ص ٢١١ ، وانظر شرح ديوان الخنساء ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢٤) ابن الأثير : الكامل . جـ ٢ ، ص ٥٨٥ – ٥٨٦ ، وشرح ديوان الخنساء ، ص ١٥٠ .

(٢٥) ، (٢٦) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ٥٢ – ٥٣ .

(٢٧) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٣ ، وضربوا : لطخوا - الأخاشب : الأخشبان وهما جبلان بمكة .

(٢٨) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٤ ، والسفيه : يقصد ميمونة - الحباحب : منازل مكة - احتالت : تغيرت - بني مريد : قوم ميمونة ، ويقال لهم الجعادرة .

(٢٩) أحمد الشايب : تاريخ النقائض والشعر العربي ، ص ١٧٦ .

(٣٠) يحيى الجبوري : شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، ص ١١٧ .

الفصل الخامس :

(١) المرزباني : الموشح . القاهرة ، طبعة السلفية ، ١٩٢٩ . ص ٦٤ - ٦٥ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء . طبعة ليدن ، ١٩٠٢ . ص ١٧١ .

(٢) أبو هلال العسكري : الصناعتين . القاهرة ، المطبعة التجارية ، ١٩٥٢ . ص ١٠٣ .

(٣) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ٣٨٤ .

(٤) ابن عبد البر : الاستيعاب . حيدر آباد ، ١٣١٨ - ١٣١٩ هـ . جـ ١٢ ، ص ٣٤٦ .

(٥) شوقي ضيف : العصر الإسلامي . القاهرة ، دار المعارف . ص ٨١ .

(٦) عبد القادر القط : في الشعر الإسلامي والأموي . بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ . ص ٣٩ - ٤٠ .

(٧) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ . جـ ١ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٨) عبد القادر القط : في الشعر الإسلامي والأموي ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٩) المرزباني : الموشح ، ص ٦٤ - ٦٥ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء . جـ ٢ ، ص ١٧٠ .

(١٠) عبد القادر القط : الشعر الإسلامي والأموي ، ص ٣٢ .

(١١) يحيى الجبوري : شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، ص ٩٥ - ٩٦ .

(١٢) أحمد بن فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية ، تحقيق مصطفى الشويمي . بيروت ، مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ . ص ٧٨٠ .

(١٣) ديوان حسان ، ص ٢٢٠ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

(١٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى . ليدن ، ١٣٢١ هـ . جـ ٢ ، ص ٣٢٠ .

(١٦) شعر أبي زيد الطائي ، ص ٦٤ .

(١٧) الدر المنثور ، ص ٢٦٢ .

(١٨) ابن هشام : السيرة . جـ ٣ ، ص ١٢٣ .

(١٩) ديوان كعب بن زهير ، ص ٢٨٢ .

(٢٠) ديوان حسان ، ص ٢٦٩ .

(٢١) ديوان أبي الأسود الدؤلي ، ص ٣٢ .

(٢٢) محمد قطب : منهج الفن الإسلامي . القاهرة ، دار القلم . ص ٢٠٩ .

(٢٣) وقعة صفين ، ص ٣٦٢ .

(٢٤) سورة الإنسان : الآيتان ١٧ – ١٨ .

(٢٥) ديوان حسان ، ص ٢٠٩ . وانظر : ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ٦٧٠ .

(٢٦) سورة الأحزاب ، آية ٥٦ .

(٢٧) ديوان حسان ، تحقيق سيد حنفي حسنين ، ص ٢٢٣ .

(٢٨) السيوطي : صحيح الجامع الصغير . بيروت ، منشورات المكتب الإسلامي . جـ ٢ ، ص ١٢٠ .

(٢٩) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب . القاهرة ، المطبعة الشرقية . جـ ٢ ، ص ٢٩ .

(٣٠) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، جمع محمد فؤاد عبد الباقي . الكويت ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، ١٩٧٧ . ص ٦٦٦ .

(٣١) المرزوقي : شرح الحماسة ، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ . جـ ٢ ، ص ٨٧٧ ، ٨٧٨ .

(٣٢) الطرائف الأدبية ، ص ١٥ .

(٣٣) تاج العروس . جـ ٩ ، ص ٣٧٤ ، ولسان العرب ، مادة : لاه . جـ ١٧ ، ص ٦٣ .

(٣٤) ديوان لبيد ، تحقيق إحسان عباس . الكويت ، ١٩٦٢ . ص ٢١٣ .

(٣٥) مراد كامل : دلالة الألفاظ العربية وتطورها . القاهرة ، نهضة مصر ، ١٩٦٣ . ص ١٣٥ .

(٣٦) شوقي ضيف : في النقد الأدبي . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ . ص ٢٩ .

(٣٧) رجاء عيد : دراسات في لغة الشعر . الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٩ . ص ٤٨ .

(٣٨) الدر المنثور ، ص ٣٢٠ .

(٣٩) كمال بشر : علم اللغة العام . ط ٥ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ . ص ١٢١ .

(٤٠) محمد علي رزق الخفاجي : علم الفصاحة العربية . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ . ص ٢٦٠ .

(٤١) ديوان حسان ، تحقيق سيد حنفي حسنين ، ص ٢١ .

(٤٢) المسعودي : مروج الذهب . جـ ٣ ، ص ٣١ .

(٤٣) نازك الملائكة : قضايا الشعر . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٨ . ص ٢٨٧ .

(٤٤) ديوان الهذليين . القاهرة ، دار الكتب المصرية . ص ٣١١ .

(٤٥) أبو علي القالي : الأمالي . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ . جـ ٢ ، ص ١١ .

(٤٦) حسين نصار : القافية في العروض والأدب . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ . ص ٨٣ .

(٤٧) ديوان حميد بن ثور الهلالي ، تحقيق عبد العزيز الميمني . القاهرة ، دار الكتب المصرية . ص ١١٤ .

(٤٨ ، ٤٩) المفضل الضبي : المفضليات ، ص ٢٦٥ - ٢٧٠ .

(٥٠) ابن رشيق : العمدة . القاهرة ، أمين هندية ، ١٩٢٥ . جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

(٥١) ابن عبد ربه : العقد الفريد . جـ ٣ ، ص ٢٥٩ .

(٥٢) محمد مندور : قضايا جديدة في أدبنا الحديث . بيروت ، دار الآداب ، ١٩٥٨ . ص ١٠٩ .

(٥٣) ابن هشام : السيرة . جـ ٢ ، ص ٣٨٥ .

(٥٤) أحمد كمال زكي : دراسات في النقد الأدبي الحديث . ط ٢ القاهرة ، ١٩٨٠ . ص ٩٣ .

المصادر والمراجع

ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة . القاهرة ، المطبعة الشرقية ، ١٣٢٥ هـ .

ابن خلدون : المقدمة . القاهرة ، دار الشعب .

ابن سعد : الطبقات الكبرى . ليدن ، مطبعة بريل ، ١٣٢٢ هـ .

ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر . القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٧٤ .

ابن عبد البر القرطبي : الاستيعاب في معرفة الأصحاب . حيدر أباد ، ١٣١٨ هـ .

ابن عبد ربه : العقد الفريد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ .

ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة ، تحقيق مصطفى الشويمي . بيروت ، مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ .

ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر . القاهرة ، دار التراث ، ١٩٧٣ .

ابن قتيبة : كتاب الأشربة ، تحقيق محمد كرد علي . دمشق ، ١٩٤٧ .

ابن محجن الثقفي : ديوان ابن محجن الثقفي . بريل ، ١٨٨٧ .

ابن هشام : السيرة النبوية . القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٩٣٦ .

أبو نعيم الأصفهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ .

أحمد الشايب : تاريخ النقائض في الشعر العربي . القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٦ .

أحمد كمال زكي : دراسات في النقد الأدبي الحديث . ط ٢ القاهرة ، ١٩٨٠ .

الأصفهاني ، أبو الفرج : الأغاني ، تحقيق إبراهيم الإبياري . القاهرة ، مطبعة الشعب .

البلاذري : فتوح البلدان . القاهرة ، دار النشر للجامعيين ، ١٩٥٧ .

الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، ١٩٤٨ .

الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٩٦٥ .

جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام . العراق ، المجمع العلمي ، ١٩٥٥ .

حسان بن ثابت : ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق سيد حنفي حسنين . القاهرة ، ١٩٧٤ .

حسين نصار : القافية والعروض . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

الحصري القيرواني ، ابن إسحاق : زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٩٦٩ .

حميد بن ثور الهلالي : ديوان حميد بن ثور الهلالي ، تحقيق عبد العزيز الميمني . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٧١هـ.

ديوان الهذليين . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ .

رجاء عيد : دراسات في لغة الشعر . الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٩ .

الزوزني : شرح المعلقات السبع الجاهليات ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ .

زينب فواز : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور . ط ٢ بيروت . دار المعرفة .

سلامة الجندل : ديوان سلامة الجندل ، تحقيق فخر الدين قباوة . سوريا ، حلب ، ١٩٦٨ .

السهيلي : الروض الأنف . القاهرة ، مطبعة الجمالية ، ١٩١٤ .

السيوطي : صحيح الجامع الصغير . بيروت ، منشورات المكتب الإسلامي .

شرح ديوان عنترة بن شداد ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ .

شوقي ضيف : العصر الإسلامي . ط ٧ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ .

صلاح الدين الهادي : الأدب في عصر النبوة والراشدين . ط ٢ ; ١٩٨٠ .

الطبري ، محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، دار المعارف .

طرفة بن العبد : ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق علي الجندي . القاهرة ، ١٩٥٨ .

عبد القادر القط : في الشعر الإسلامي والأموي . بيروت ، طبعة دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ .

العسكري ، أبو هلال : كتاب الصناعتين . القاهرة ، المطبعة التجارية ، ١٩٥٢ .

عمر رضا كحالة : معجم أعلام النساء . ط ٣ بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٧ .

الغزالي : إحياء علوم الدين . القاهرة ، دار الشعب .

كعب بن مالك : ديوان كعب بن مالك ، تحقيق سامي مكي العاني . بغداد ، المعارف ، ١٩٦٥ .

كمال بشر : علم اللغة العام . ط ٥ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .

لبيد بن ربيعة : ديوان لبيد ، تحقيق إحسان عباس . الكويت ، ١٩٦٢ .

المبرد : الكامل في اللغة والأدب . طبعة دار العهد الجديد بالخرنفش .

محمد علي رزق الخفاجي : علم الفصاحة . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .

محمد قطب : منهج الفن الإسلامي . القاهرة ، دار القلم .

محمد مندور : قضايا جديدة في أدبنا الحديث . بيروت ، دار الآداب ، ١٩٥٨ .

مراد كامل : دلالة الألفاظ العربية وتطورها . القاهرة ، نهضة مصر ، ١٩٦٣ .

المرتضى : الأمالي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، الحلبي ، ١٩٥٤ .

المرزوقي : شرح الحماسة ، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .

المرزباني : الموشح . القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٢٩ .

المسعودي : مروج الذهب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . بيروت ، المكتبة الإسلامية .

مصطفى الشورى : شعر الرثاء في العصر الجاهلي ؛ دراسة فنية . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ، ١٩٩٥ .

المفضل الضبي : المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . ط ٤ القاهرة . دار المعارف .

نازك الملائكة : قضايا الشعر . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٨ .

نللينو ، كارل : تاريخ آداب اللغة العربية ، ترجمة إبراهيم الكيلاني . دمشق ، الجامعة السورية . ١٩٥٦ .

نصر بن مزاحم المنقري : وقعة صفين ، تحقيق عبد السلام هارون . ط ٢ القاهرة ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر ، ١٣٨٢ هـ .

نصرت عبد الرحمن : الصورة الفنية في الشعر الجاهلي . عمان ، مكتبة الأقصى ، ١٩٧٦ .

النعمان عبد المتعال القاضي : شعر الفتوحات الإسلامية . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .

النويري : نسب قريش . ط ٢ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٦ .

النويري : نهاية الأرب . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤ .

ياقوت الحموي : معجم البلدان . ليبزج ، ١٨٦٦ .

يحيى الجبوري : شعر المخضرمين . بغداد ، مكتبة النهضة ، ١٩٦٤ .


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الشعر والشعراء

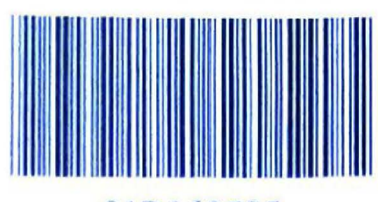
هذا الكتاب

يقفو خطوات شقيقه « الرثاء في العصر الجاهلي » ، ويستكمل مسيرته : فيرصد ما طرأ على هذا العرض من تطور في عصر صدر الإسلام ، في ظل العوامل المتغيرة ، ودور الحروب والغزوات في نموه وكثرته ، وأثر الإسلام في شعرائه . كما يرصد دور المرأة فيه ، والتغيّر الذي اعتراه من حيث القلة والكثرة ، ومن حيث الجودة والرداءة .

ويكشف عن الحرب الأدبية أو النقائض التي كان مدارها هذا الغرض بين الشعراء المسلمين وغيرهم . ويعلل لما أصاب هذا الشعر من رقة ولين ، وما غلب عليه في بعض فتراته من روح الجدل والخطابة .

هذه السلسلة تتناول الشعر العربي تعريفًا بشعرائه ، وتحقيقًا ونشرًا لدواوينه ، ومناقشةً لقضاياه انطلاقًا من أن الشعر جزء من الكيان اللغوي للأمة ؛ والكيان اللغوي للأمة هو كيانها الفكري وميراثها الجليل .

وهي تعنى بالتراث تقرؤه بعيون حية ، وتفكر فيه بعقول ذكية ، فتحييه في صدور الأجيال ، وتتيح لها الامتياح من ينابيعه واستلهام كنوزه . كما تعنى بالجديد تستكشف آفاقه وتجلو غوامضه وتؤثل بنيانه وتقيم دعائمه ، في لغة مجنحة بأجنحة الصدق العلمي والولاء ، لا بأجنحة الميول والأهواء لتشكل موسوعة في مجالاتها يجد فيها القارئ العام من الثقافة ما يلذه ويمتعه ، ويجد فيها المتخصص العمل المرجعي الذي ينشده .



01R160505

مكتبة لبنان ناشرون